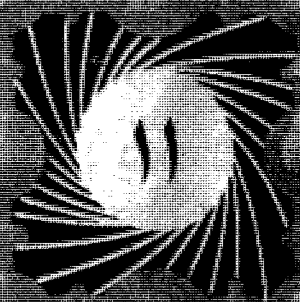
أعلام العرب



مالك

تجارب حياة

تأليف: الأستاذ أمين الخولي

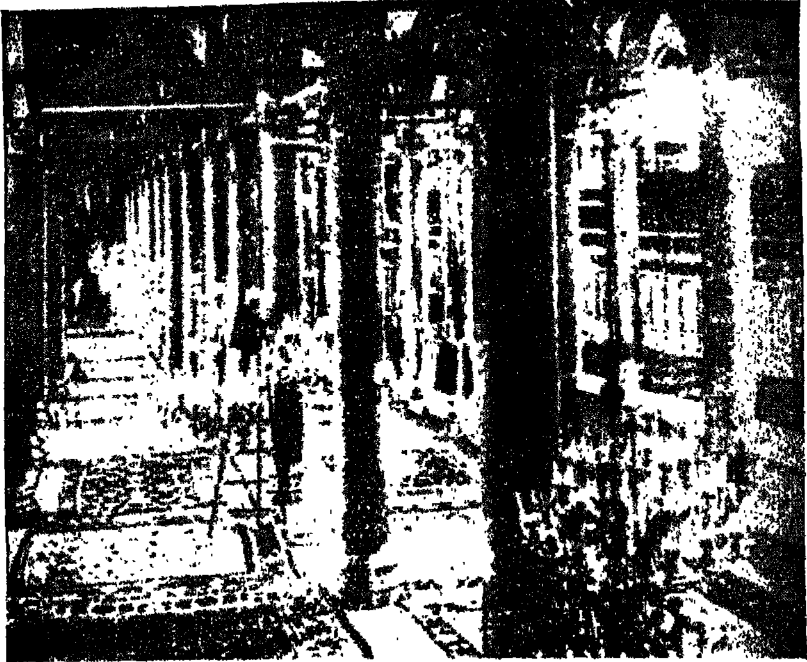
أعلام العرب
١١

مالك

تجارب حياة

تأليف: الأستاذ أمين الخولي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر



الروضة النبوية وجانب من الحرم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ألوان التراجم

« ما ننظر فى حياة هؤلاء الرجال وعملهم وعلمهم الا النظرة الواقعية الى بشر مثلنا » .

مالك بن أنس : ترجمة محررة ص ٧٦٧

١

كتبت التراجم فى قديم التاريخ ، ووسيطه ، وحديثه ، لأن الأشخاص هم العقل العالم ، والوجدان المتفنن ، والنزوع الدافع للحياة .. فهم الحياة فى التاريخ ، أو هم التاريخ الحى.. وما عدا الأشخاص ، من الأعمال ، والآثار ، والدول ، والديانات ، والعلوم ، والفنون ، و .. و .. ليس الا التاريخ الصامت ؛ بل الميت اذا لم يعرف الأشخاص الذين نفخوا فيه من روحهم ، فكأنما كل

ما يكتب من التاريخ ليس الا سطورا فى ترجمة الأشخاص، الذين صنعوا أحداثه .

* * *

وكان ما يكتب فى تراجم الأشخاص محببا للقارئين ، أثيرا لديهم أكثر مما سواه من صور الكتابة التاريخية ؛ ولهذا الاقبال على التراجم أسباب نفسية وفنية ، بما هى مرايا تتراءى فيها صور أشخاص صانعى التاريخ ، ومحركى الحياة ؛ فكانت التراجم عاملا قوى الأثر ، فى تكوين شخصيات الخالقين ، وتأثرهم بصنيع أسلافهم ، الذين عبدوهم طورا ، أو مجدوهم فى صور من التمجيد مختلفة ، واتخذوا منهم المثل المحتذى ، حتى لتجد لكل طامح ذى مستقبل قدوته من العظماء ، وأسوته فى الخالدين ، يجد فى حياته مشابه منه ، وملامح له ، كما يجد فى ترجمته حلول مشكلاته ، فى التجربة الحيوية ، والحافز الدافع الى معاودة التجربة ، التى عبد طريقها ذلك السلف الأول ، الذى اتخذه اسوته .

* * *

ولما ظهرت التراجم والسير ، على مر التاريخ ومختلف عصوره ، محببة الى الناس ، كان فى الحق أن نقدر مسايرة

كتابتها لخطوات المعرفة الانسانية ، فى تطورها وتقدمها ، حتى لتكون كتابة الترجمة صدى مرددا لأصوات المعرفة فى العصر الذى تظهر فيه السيرة ، وتجرى على قدر تحدده تطورات هذه المعرفة وتدرجها ، يحتكم فيها منطق عصرها ، ويضبطها وعيه ، ويصححها نقده حين يتقدم ، كما تخططها غيبيته ، وترسلها سذاجته ، وتصورها بساطته ، يوم يكون بدائيا أوليا .

وكذلك كانت الترجمة حينا من الأساطير . يسرح فيها الخيال ، يضفى على البطل المترجم له أضواء ، وألوانا من آفاق أوهامه ، ومجال خرافاته ؛ فتتداول تلك الترجمة الأسطورية حديث خرافة تردده السوامر ؛ أو تنقش أثرا تحفظه الجوامد ، أو تشيع مثلا يضرب ، أو تجسم فى ضرب مما يشكل الانسان من الفنون .

وتتدرج المعرفة البشرية فى تقدمها فتكون الترجمة آنا من المناقب يجمع فيها من الفضائل والمفاخر ما هو من الأسطورية بسبيل ، وهو من الغيبية الساذجة ، التى لا تثبت على فحص أو تحقيق ، اذ تعتمد على الرؤى والمنامات فى اثبات الفضائل ، أو التكهن بمستقبل الوليد

أو الحدث ، وتؤيدها بالبشارات المروية بأسانيد لا قوة لها، وتتعلق بأخبار فى هذا المستوى من ضعف النقـل ووهن سنده ، وفى ذلك ترد أشياء وأشياء لا يقبلهـا الواقع ، ولا يسلمها الوعى ، ويورد ذلك كله فى جـو نفسى من الاستهواء والاستسلام ، مفتون الفكر ، مغلوب الرأى .

وترقى المعرفة ، وتبدو الدقة ، ويتحرر المنهج من بقايا الأسطورية وآثار المنقبية فتكون الترجمة تاريخا ، بصحيح معناه ، يقوم على خطوات سليمة ناقدة .

أولها : الجمع المستقصى الشامل ، لأخبـار صاحب الترجمة ، على قدر الطاقة ، التى تزداد اقتدارا بالجديد من وسائل الجمع والتنقيب ، والصـيانة ، والتعريف للآثار المادية . والمخطوطات التراثية ، التى تتعاون الطاقات الدولية على حمايتها وخدمتها .

وثانيها : النقد الفاحص ، الذى ينفى من ركام هـذا المجموع ما ينزل عن مرتبة الوثيقة الموثوق بها ، ويدق هذا النقد ، ويعمق باتباع المنهج النقلى المحرر ، الذى شارك القدماء فى تأصيله ، بما وصفوا من نقد السند ونقد المتن ، ثم أكمله المحدثون بما وصفوا من منطق المادة الجـديد ،

بعد القديم من منطق الصورة وما سلطوا على ذلك من أضواء الخبرة العلمية والعملية .

وثالثها : تفسير المرويات والمنقولات التى ثبتت على النقد تفسيرا نفسيا ، واجتماعيا وعمليا ، تفسيرا ينفذ الى ما وراء الظواهر ، ويستبعد السطحيات ، ويفيد من كل ما عرفت الدنيا ، من أمر الانسانية والانسان ، حتى ليستطيع هذا التفسير الصحيح الأصول أن يسد ثغرات فى الأخبار ، ويكسوا عظامها لحما ، حتى تقدم صورة ماثلة للمترجم له ، بشخصيته العقلية ، والنفسية ، والخلقية .

ثم يستطيع التعبير الدقيق الوضىء أن يقدم الصورة القولية لهذه الشخصية التى أمكن للخطوات الثلاث السابقة أن تقدم عناصرها وأجزاءها ، قدر المستطاع[1] .

* * *

وتلك الخطوات ، على ما فى بيانها هذا من اجمال ، دعائم وطيدة ، وأركان جوهرية ، تؤلف كلا متكاملا وكيانا متماسكا ، هو الذى يمكن أن يسمى « ترجمة تاريخية » ،

---

(١) راجع الشرح التفصيلى لهذه المراحل فى كتاب مالك بن أنس : ترجمة محررة ـ صفحة ط الى خ من المقدمة .

واذا ما فات منها شيء ، أو أخل به فقدت الترجمة اسم التاريخ ، ووصف العلم ، وكانت لونا آخر ، مما قبل هذا من الترجمة المنقبية ، التى تقدم وصفها ، وبدت صلتها بالأسطورية التى قبلها ، الى حد ما ، . أو كانت الترجمة التى فاتها شيء من تلك الأركان الكاملة لونا آخر مما بعد هذا الضرب التاريخى ، على ما سنبينه قريبا ؛ والمهم أنها مع هذا الفقدان أو النقصان لا تكون تاريخا بين التراجم ، ولا تعد علما ، بين المعارف الانسانية ، وليكن لها ما لها مما وراء ذلك ، من طلاوة الفن ، أو جمال العرض ، أو جاذبية الأسلوب ، أو مشغلة التسلية ، أو رواج الدعاية ، أو أى شيء يقال غير التاريخ فى مستواه الحالى ، الجدير بهذا الاسم ، وغير العلم فى الموضوعية الخالصة ، والتجربة السليمة .

* * *

وأداء لأمانة القارىء عند القلم لا يمنعنى ضيق هذا المقام ، ولا يتسير تلك الترجمة ، من الاشارة الى الصعوبة الماثلة ، فى كل ركن من الأركان الثلاثة ، لتلك الترجمة التاريخية العلمية :

فالجمع المستقصى لأخبار المترجم له ، من كتب

التـاريخ العامة ، العارضـة للحياة جمـلة ، كالطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير وغيرهم ، وكتب التاريخ الخاصة، العارضة للحياة فى اقليم بعينه كالنجوم الزاهرة ، عن مصر ، وابن عساكر عن الشام ، والأزرقى عن مكة ، وغيرهـم ، أو العارضة لحياة فئة من الرجال ، وطبقات بذاتها ، كطبقات الفقهاء ، والمفسرين ، والصوفية وغيرهم . هـذا الجمع المتتبع المستقصى بحق لما فى هـذه الكتب وأشباهها ، مما يدخل فيه المترجم له مع غيره ، أو يرد ذكره عرضا وتبعا ؛ ثم لما فى غير ذلك كله مما كتب عن المترجم له خاصة ، من مناقب مفردة ، وقد كتب منها الكثير ، عن مالك بن أنس ، ووصلنا منها الجم ، أو من ترجمات جاوزت حد المنقبية نوعا ما ، أو فاتته كثيرا . كل أولئك ونحوه ، فى تتبعـه التام ، واستقصائه الكامل صعوبة تمنع من مواجهتها تلك العجلة الشائعة ، والمنفعة العاجلة ، أو الشعور القليل بحرمة الحقيقة وكرامة الكلمة ، وتبعة القلم فى عصرنا الحاضر ، فيزعم زاعم تبريرا أو تقصيرا ، ألا حاجة به فى ترجمة يكتبها الى تتبع الأخبار كافة ، والاعتماد على المراجع عامة ، لأنه فيما يقال : يجد مفتاح الشخصية ، فى شىء بذاته ، فلا يعنيه بعد ذلك أن تكون أفعال معينة قد صدرت عن صاحب تلك

الشخصية ، بعد معرفة الأصل الذى يصدر به مثلها عنه ؛ فلا حاجة به اذن الى جمع أو تتبع ، على الوجـه المتزمت المتحرج ، الذى يشير اليه ما تذكر من استقصاء .

لكن فى الأمر خطأة قلبت أوله آخرا ، وآخره أولا : وذلك أن أحدا لا يعرف مفتاح شخصية مّا الا بعـد أن يعاشرها ، ويحيط بعاداتها ، وأساليبها ، وميولها ، وليس الى ذلك سبيل ما فيمن غبر ومضى الا عن طريق التاريخ والخبر ، ولا تكون عشرة ، ولا معرفة يحل لصاحبها أن يفتح الشخصية ، ويقتحم الطوية ، الا بعد احاطة أوسع وأعمق من احاطة العشير الحى بتصرفات عشيره ، الذى يغدو أمامه ويروح ، فتغنى الرؤية ، والخبرة ، والفطنة فى ادراك تصرفاته ، وتبين أغراضه ، عن الكثير المكرر منها ، لأن بعضها يدل على بعض ... ولا كذلك الذاهبون الذين لا سبيل فيهم الى رؤية ، ولا فرصة لخبرة ؛ ولا مجـال لفطنة ، اذ تأتينا أفعالهم أخبارا بعيدة الدلالة ، عسـيرة الابانة .. فكيف يستغنى ببعضها عن بعض ؛ وأنى تكون ترجمة لهم دون جمع مستقص لأخبارهم كلها ..

ثم لنقد الأخبار بعد ذلك صعوبة ليست دون تلك ؛ لأن ما لدينا من مادة تاريخنـا العام أو الخـاص ، ليس

الا ركاما من مرويات ، لم يخض أحد حتى اليوم عبابها ، ويدرك غورها ؛ وفيها من التدافع والتناقض ، والمنقبية بل الأسطورية غير قليل ؛ ثم فيها من ضياع المعالم ، وفقدان السند ، وعدم التوثيق لأصولها ، وغير ذلك من الآفات ما يصعب فيه نقد الأخبار صعوبة ، لا مخلص منها الا بشيء من تجوز ، بل تساهل .. بعد بذل الجهد المجهد فى النقد الممكن ، والتقييم المستطاع .. فكيف تكون الترجمة التى فاتها هذا النقد جملة وتفصيلا من الترجمة التاريخية أو الصفة العلمية فى شيء !! . انها تكون شيئا غير ذلك كله مما أشرنا اليه قريبا ، ونعرض لبعضه قريبا .

وأما تفسير الأخبار التى رجحت صحتها ، بعد النقد الممكن ، والفحص المستطاع فان فيه مزلقة لأشياء كثيرة لا سبيل هنا الى شيء من بيانها ؛ وحسبك من أصل ذلك وأسه المعنى الذى أشرت اليه فى العبارة المتوجة لهذه والمقدمة وهى :

ما ننظر فى حياة هؤلاء الرجال وعملهم وعلمهم الا النظرة الواقعية ، الى بشر مثلنا ؛ وهى بعض ما ورد فى كتاب مالك بن أنس : ترجمة محررة ؛ وينبغى أن يذكر فى كتاب مالك بن أنس : تجارب حياة ، لأن الثانية تقوم على

أساس من الأولى ، وتعتمد على ما وصفته من تجارب تلك الحياة ، بعد الجمع المستطاع ، والتفسير الممكن ..

ولقد يحسن أن أورد كذلك عبارات فى هذا المعنى أحوجت الى تكرارها واسهابها الضرورة الماسة ، لتأصيل هذا المعنى ، من انسانية العظماء ، وبشريتهم ؛ فقد قلت ادفع شر المنقبية فى بعض الأخبار .

ان هذه المنقبية تنظر من هؤلاء الأئمة ، الى أشباه ملائكة يمشون على الأرض ، ولا نخضعهم للبشرية ، التى آكد الرسول عليه السلام ، وأكد القرآن ، أنها صفته الثابتة ، التى تذكر له فيها المماثلة لسائر ولد آدم ، وانما المماثلة هى أتم المشابهة [1] .

وفى سبيل أن العظمة الانسانية ، فى أبعد آفاقها ليست الا شيئا تضبطه السنن الحيوية ، ولا يقع فى الحياة موقع الكرامة الخارقة ، والمعجزة المتحدية ، التى مضى الزمن الذى احتملها ، وانقضت المناسبة التى تطلبتها ، ولم تعد تستطيع الدنيا فهمها الا فى ايضاح وابانة ، فقلت لبيان ذلك:

ولعل الخير أن تتذكر ونذكر ، بأن مالكا آدمى ، وأن بشريته توجب علينا فهمه ، على أنه صنعة وراثته وبيئته ،

---

(١) مالك بن انس : ترجمة محررة ص ٢٨٩ .

وصنيعة سنن الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وان محاولته التسامى والترفع ، وما الى ذلك من ترق وتقدم ليست الا محاولة تضبطها تلك السنن نفسها وتحدد مداها تلك النواميس ذاتها ، فتفهمها على أساس من هذه البشرية ، وطاقتها وقوتها ، دوافع من الحيـاة ، وحكمها وسلطانها [1] .

وفى هذا بيان كاف لايضاح أن ليس من التاريخ ولا من العلم أن تتناول الترجمة دفاعا عن المترجم له . وردّ الهجوم الهاجمين عليه ؛ ولا تقديرا لعظمته ، التى هى كذا وكيت ، فى الدنيا ، ولدى الانسانية ، وليس من ذلك فى شىء أن تسمى عبقريات : محمد ، وفلان من أصحابه وفلان ؛ ثم يكون الحديث عن فلان آخر من هؤلاء الصحابة فاذا اسم الكتاب « فلان فى الميزان » .. وانما الأمر أن الكل جميعا فى الميزان ، مهما تكن الظروف والأسـباب فى الماضى أو الحاضر .. فالكل ليسوا الا بشرا ، والكل يفهم ثم يحكم عليه ، ولا شىء فى الدنيا ، من عقيدة ، أو تلقين ، أو محبة تحل الحكم أولا ، ثم الفهم ثانيـا ، فى كتابة الترجمـة

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٧ .

التاريخية ، الآخذة بأسباب العلم ؛ أما غير هذه التاريخية العلمية من التراجم فشيء آخر ، قد نعرض له فى مكان آخر .

واذا احتكمت الانسانية فى ترجمة المترجم لهم أنبياء كانوا أو أبطالا ، أو محبوبين مذكورين ، أو عند العامة مقدسين ، فلا موضع مع الاحتكام الى البشرية لشيء من العذر ، أو المقتضى لفهم حياة واحد منّا من هؤلاء ، على غير هذا الأصل من بشريته ؛ ولا وجه لما يقال من حاجة الأجيال الخالفة الى صورة من قدسية هؤلاء الأسلاف ليحفظ ذلك على الأخلاف ثقتهم بأنفسهم ، عن طريق ثقتهم بماضيهم ، وشعورهم بجلال هذا الماضى ، ووفرة حظه من العظمة والعظماء ، الذين يعتز بهم أبناؤهم ، ويمضون على أثرهم مطمئنين الى جدارة فيهم وكفاية لهم ، قد ورثهم اياها أولئك الآباء ؛ أما حين يكشف عن هؤلاء بيد التاريخ ، وتبدو منهم البشرية بقصورها أحيانا ، وضعفها أحيانا فلذلك أسوأ الأثر على أبنائهم الذين لم يرثوا الا استعدادهم ، ولم يجيئوا الحياة الا بهذا الميراث .

نعم — لا وجه لشيء من هذا الذى يقال ، لأنه يخفى اعتبارا أصدق وأقوى أثرا من هذه التعلة .. وهو : أن أبناء

هؤلاء وورثتهم لو لفتوا الى هذا الذى فى تاريخهم على أنه نادر ؛ وأنه فوق الطاقة ، ووراء القدرة ، وسمعوا مع هذا أن خير الدنيا قد ذهب ، وأن خير القرون قد مضى ، وأن تلك العبقريات قد كانت شيئا فذا فوق مستوى الناس ، فما من شك أن هؤلاء الأبناء ، حين يكبرون وهم خافضو الرءوس أمام ذلك التاريخ وعباقرته سيستقر فى نفوسهم أن ذلك شىء لا وجه لمحاولته ، ولا أمل فى مجاراته ، لأنه اما مؤيد بقوة من السماء ، ليست تمنح الا للمصطفين المختارين ؛ واما معتمد على شىء من هذه الغيبيات التى لا تحسن التلقى عنها الا تلك الأنفس الفردة ، الفذة ، العبقرية ، التى لا يجود الزمان بمثلها ؛ وهو ما ردده شاعرهم صدى لشىء من ذلك فقال فيما قيل :

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يازمان فكفر

وان لم يكن هذا اليأس كله فقليل منه يكفى لتعلة العاجزين واعتذار المتخلفين ، بل الفت فى عضد المحاولين أيضا ، ولو قد عرف الأبناء أن هؤلاء الأسلاف بانسانيتهم ، وبما فيها من ساعات ضعف ، أو جوانب تراجع ، تستطيع أن تستعلى على ذلك كله ، وتنهض للمطلب الجليل . وتثبت

فى ميدان النضال عن أمل بعيد . ومثل عزيز المنال ، لأحس هؤلاء الأبناء أنهم هم كذلك ، بما فى بشريتهم من قصور أو فتور يستطيعون أن يرتاضوا ويصلوا ، ويبلغوا المدى ، فتكون عبرتهم بتلك المثل البشرية المحضة من الرجال المترجمين أصح وأجدى من تمثلهم لتلك الشخصيات المدعاة ، النادرة ، الفريدة ، فى الوجود .

* * *

وأخرى من صعوبة ذلك التفسير للأخبار ، واستخراج دلالاتها النفسية والخلقية ، وتلك الصعوبة هى تقدير ممارس الترجمة التاريخية العلمية فرق الزمن ، واختلاف الأعصر ، وتغير الاعتبارات بتغير البيئات ، وتفاوت المؤثرات ، فلا يحمل عبارة من المعنى على ما لم يعرفه استعمال عصرها ، ولا ينقد فعلا يعيبه عصره هو لا عصر المترجم له ، ولا يحمد ما يذمه عصر المترجم ، ويحتاج ذلك الى كثير من المعرفة الدقيقة لأحوال عصر المترجم ، ومستواه المدنى ، ومنطقة السلوكى ، وأعرافه الشائعة ، وتقاليده السائدة ؛ وليس ذلك بالأمر الهين والمطلب اليسير .

ومن الموضوعية العلمية فى تلك الترجمة التاريخية أن يتميز ادراك المترجم له ، بعصره ، وبيئته ، وذوقه ، وعاداته ،

عن شخصية كاتب الترجمة ، وحال قومه ، ومنطق عصره ، واتجاه رغباته ، فلا يحكم على شيء من حال المترجم مقيسا بميله ، ولا معتبرا بمثله ، ولا يسقط من نفسه على مشخصات المترجم له ما يريده مما يعجب الكاتب ؛ ولا يقـومه بما يرضيه هو ، لأن الترجمة التاريخية العلمية لا تقبل هـذه الاعتبارات الذاتية ، بل تدع ذلك ما يشبهه للجو الفنى ، حين تتلون الترجمة بألوانه ، على ما سنبينه قريبا ولا تكون الترجمة مع شيء من هذا تاريخية موضوعية ؛ وعلى هـذا الأصل تدرك ما تكون عبقرية عمر حين يقول السيد مؤلفها : ... فانك اذا قرأت مثلا عبقرية عمر فانك تقرأ العقاد فى عمر[1] . وما ينبغى الا أن تقرأ عمر ، كما أدرك العقاد من أمـره !

تلك ألوان من الترجمة التاريخية فى مدارجها الزمنية من الأسطورة ، فالمنقبة ؛ فالترجمة على اختلاف فى تاريخيتها باختلاف نسبة السـلامة فى أركانها الثـلاثة من : جمع الأخبار — ونقدها ، وتفسيرها .

---

(١) مجلة المجلة العدد ٦٢ ـ ابريل ١٩٦٢ ص ٢٩ .

٢

والآن .. نوفى على بيان ما سبقت الاشارة اليه — غير مرة — من ألوان التراجم ، التى ليست تاريخية علمية .. وانما هى فى جملة الأمر تاريخية فنية . اذا تسمحنا فى وصفها بالتاريخية ، ووفت بحق التاريخ مع لونها الفنى .

وأصل ذلك كله هو : ما بين التاريخ وعامة الفنون من صلة ، حين تعمد الفنون الى تفسير الحياة تفسيرا وجدانيا ، وتعمد الى ذلك التفسير الوجدانى للماضى ، الذى هو ميدان التاريخ .

وللفنون جميعا — بصرية وسمعية ، تشكيلية وغيرها — تلك الصلة الوثيقة بالتاريخ ، أو ذلك الحق الكامل فى التاريخ ، تقف الفنون بعامة عنده ، تحدث عنه الحديث الصوتى المسموع ، فى الأدب والموسيقى ، والحديث الماثل الشاخص ، فى الصورة ، والتمثال ، وما اليها ، تعرضه ، وتفسره ، وتحييه وتعيده ، وتقومه ، وتقدره ...

وكذلك تحدث هذه الفنون كلها من التاريخ ذلك الحديث الصوتى والبصرى ، وأقول تحدث منه ، لأنها فى هذه الحالة تختار منه بعضه ، موضوعا للقصة والمسرحية

وما اليها من مقروء ، واللوحة والمجسم من المرئى ؛ تعنى ببعض من التاريخ ، حادثة ، أو شــخص ، أو حتى عصر تخصها بالعناية ، فترسل المعزف ، والريشة ، والقــلم ، والازميل لتعمل فى عرضها ، وتنتزع منها موضوعها ومجالها الجزئى الخاص ، الذى عبرت عنه بحديث الفنــون من التاريخ ، حين جعلت حديث الفنون العام الشامل حديثا عن التــاريخ .

والوقوف عند هذه الصلة بين التاريخ والفنون جملة ، وبيان شىء من عمل الفنون التاريخى حديث يطول ويطول، ولا مكان لشىء منه هنا .. ولا نحن أهله الأولون ، فحسبنا الالتفات الى الصلة بين التاريخ والأدب بخاصة نشير الى شىء منها ، لنقول ببعض السعة عن التراجم والأدب .

فللأدب عمله فى الحديث عن التاريخ ، حين يقدم له الأدب فنه القولى ، يعرض التاريخ ويصوغه ، فيبين ويجلى أحداثه البيان والجلاء ، الذى يسعف المؤرخ ، على دقة التصوير وصحته ... وقد جلى هذا الفن القولى التاريخ بالشعر التعليمى ، أو الشعر العادى ، يحــدث عن شئون تاريخية ؛ كما جلاه بالنثر عامة يكتب به التاريخ ، أو بالنثر

الفنى المتألق خاصة يقدم به الأدب مثل ذلك الذى قدم فى الفيح القسى من العماد [1] مثلا ، وفى اليمينى للعتبى [2] كذلك .

وللأدب أكثر من ذلك وأكثر فى الحديث من التاريخ فى مدارجه المختلفة ، منذ كان أسطورة وسحرا ، الى أن صار درسا ، وأوشك أن يكون علما ؛ فمن التاريخ ، فى صورة من صوره يختار الأدب وفن القول أعماله الكبيرة المنوعة ، من الملحمة ، والقصة ، والمسرحية ، والصــورة القلمية ، وما الى ذلك .

والحديث عن تنسيق هذه الصلة بين التاريخ والأدب فى تلك الفنون كلها ، وكيف تكون هذه الصلة غير جائرة على التاريخ ، ولا مؤذية له ، حديث يطول كذلك ويطول، ولا مجال هنا لما نحن أصحابه من هذا الحديث عن الفنون الأدبية حين تكون تاريخية الموضوع ، وبم تكتمل دقتها

---

(١) هو كتاب الفيح القسى للعماد الكاتب أرخ فيه فتح بيت المقدس بعبارة أدبية مسجوعة .

(٢) هو كتاب « اليمينى فى اخبار السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، وقد كتب فى عبارة أدبية متأنقة .

الفنية ، وكيف تتم سلامتها التاريخية [1] ، فتظل مصادر للتاريخ معترفا بها من أهله ، أو تخرج عن تلك المصدرية التاريخية ، ويدق — أو يغمض — الانتفاع التاريخى بها ؛ وماذا للأديب من حق فى التاريخ حين يتجاهل الدلالة التاريخية فى عمله ، ويتناول المادة التاريخية رمزا موحيا لا غير ؛ أو مجالا فسيحا للانطلاق الوجدانى ، لا أكثر ، كل هذا وما اليه من الحديث الطويل الذى لا نجد له هنا

---

(١) من خفيف الملاحظة التى تغير صورة المترجم له تغييرا عنيفا ، وتتبين بها الحاجة الشديدة للأصول التاريخية فى رسم الصورة الأدبية ، أن عبقرية الامام على للاستاذ العقاد ، فى طبعة الهلال تزين غلافها صورة فارس على جواده شاكى السلاح ، وكأنها خلاصة عمل الفن المنظور فى تقديم صورة على المقاتل ، ولا يكاد يلمح أحد فى هذا الا التجاوب العادى من الفن فى عرض التاريخ ؛ لكن التاريخ ينكر هذه الصورة ، اذ يعلن حكم الرسول عليه السلام أن عليا راجلا — من المشاة — خير منه فارسا ، ويروى ذلك فى حادثة كانت يوم بدر اذ قال على للمقداد، أعطنى فرسك أركبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنت تقاتل راجلا خير منك فارسا ، فركب على الفرس ، ووتر قوسه ، ورمى فأصاب أذن فرسه هو ، فصرمه ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى أمسك على فيه ، فلما رأى على ضحكه غضب ، فسل سيفه ثم شد على المشركين فقتل ثمانية قبل أن يرجع ؛ فقال على : لو أصابنى شر من هذا كنت أهله ، حين يقول : أنت تقاتل راجلا خير منك فارسا — ابو حيان : الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٩٥ — فكلمة التاريخ أن عليا ليس فى خير أحواله فارسا ؛ وصورة الغلاف ضد هذه الحقيقة ؛ واحترام التاريخ يستبعدها !!

مكانا ؛ فتجتزىء — مكرهين — بشىء من الحديث عن التراجم الأدبية ، تتمة للقول ، فى ألوان التراجم ، الذى آثرنا أن نقدم به هذه الترجمة لمالك بن أنس ، جارّ الرسول، وامام دار الهجرة ، وأحد فقهاء الطليعة والرعيل الأول ، فى تاريخ الاسلام .

***

ان قدرا من المشاركة الأدبية لابد منه فى الترجمة التاريخية العلمية لكى تتم وتكمل وذلك هو التعبير الذى يجسم كيان الترجمة المتكامل بأجزائها الثلاثة السابقة : جمع الأخبار ، ونقدها ، وتفسيرها — والتعبير هنا هو التصوير القولى ، الذى يحول خطوط الشخصية ، التى دلت عليها الخطوات السابقة الى جمل وكلم ؛ فالتعبير الأدبى هو الذى يكسو الهيكل العظمى للترجمة التاريخية لحما ، وينفخ فى هيكلها روحا فتسعى بين يدى قارئها ، كما كانت يوم جال فى الحياة صاحبها .

وجلى أن هذا التعبير الفنى يتحدد فى الترجمة التاريخية العلمية ويدق ويتقيد ، بحيث لا تكون صوره البيانية ، وجماله التعبيرى مرسلا ، متوسعا ، خطابى التعبير ، موهما، يذهب منه القارىء كل مذهب ، كما فهم ، ويفهم كثيرون

قديما وحديثا أن التعبير الأدبى تعبير انشائى ، لا حرج على قائله ، ولا هو ملزم بالصدق الواقعى .. وهو ما لو أرسل فيه العنان ، وصدرت به الأحكام ، وانطلقت فيه الأقلام لفقدت الترجمة التاريخية قوامها ، ولم تكن فى شىء ، من العمل التاريخى ، الذى وصفناه بأنه علمى ، وانحدرت الى المرتبة التى دونها ، مما لا يعرف الدقة ، ولا يضبط الحكم ، ولا يحرر المراد ، وهو أولى بأن يكون من الأساطير ، أو من المناقب ، على الأكثر .

ولعلى قد أخرت هذا البيان عن التعبير فى الترجمة التاريخية العلمية ، ليكون ذكره هنا خير تمهيد يوضح الفرق بين الترجمة التاريخية العلمية ، وما عداها من الترجمات الأدبية ، والقيمة العلمية لهذه التراجم الأدبية .

لقد قيل : ان التاريخ يدون صنع السلف ، وأما القصة الأدبية فتدون ما يجب صنعه على الخلف وهى عبارة تشير الى أن القصة الأدبية حين تعمد الى التاريخ لتختار منه موضوعها انما تعمد الى موضع العبرة ، ونتيجة الخبرة ، التى أدتها الحادثة التاريخية ، وانتهت اليها تجربتها ، دون أن تقف عند أخبار الحادث الجزئية تجمعها أو تنقدها

أو تفسرها ، على نحو مما أشرنا اليه فى الترجمة التاريخية الجدية .. فهل الترجمة الأدبية ، تنتهى الى هذا فلا تكون شيئا فى التاريخ ، ولا حساب لها ، بين مراجعه ؟

لعل هذا السؤال وقد عقب به على القولة المفرقة بين التاريخ والقصة ، ويلفت الى شيء من الحديث عن القصة أو المسرحية حينما تكون تاريخية ، ومدى حق الفنان ، فى الجور على أحداث التاريخ المروية ؟ وهو موضع للقول فى ألوان التراجم ، لكنا لا نجد له الزمان ولا المكان هنا ، فلنلزم حدود القول ، فى الترجمة الأدبية والتاريخ ، ونحن على ذكر فقط من أمر القصة والتاريخ . لأن ذلك ينير طريق الرأى فى هذا الحديث عن شأن التراجم وصلتها بالتاريخ .

بعض هذه التراجم الأدبية قد يكون صورة قلمية كاملة ، لا نصفية ، ولا وجهية ، ولا جانبية ، وتكون ملامح تلك الصورة ، وأجزاؤها ، مما حدده وميزه شعور الكاتب نفسه . خيالا أو واقعا ، لأن للكاتب ميلا خاصا ، وشعورا بعينه ، نحو صاحب الترجمة ، فهو يترجم الشخص كما تصوره ، أو كما تمثله ، أو كما يراه هذا الكاتب . وتكون تلك الصورة مهما تكمل أجزاؤها صورة للمترجم له ، فى

نفس الذى صوره — ولا عليه أن يكون التـاريخ قد تصوره هكذا ، أو تصوره غير ذلك تماما — وهذه الصورة الأدبية لشخص تاريخى ، كما يجده صاحب الصورة إنما هى تعبير عن شعور صاحب هذا القلم نحو من صوره ، أو ترجم له ، سواء أكان شعور الرضا والاعجاب أم شعور الكراهية والسخط .. ولا رقيب على مثل هـذه الصورة للتاريخ والماضى الا الاعتبارات الاجتماعية ، من سوء وقع هذه الصـورة أو حسنه ، على أخلاف هـذا الشـخص المترجم له ، وعلى الجماعة البشرية ، فيما تتطلع اليـه من مستقبل مقيس على ذلك الماضى ؛ ولهـذه الاعتبـارات الاجتماعية — لا لسواها — يحاسب المختصون بذلك صاحب الصورة القلمية ، المترجمة لأحد رجال الماضى — ولهم كل الحق فى أن يعدوا الجور على التاريخ الدقيق عملا خاطئا ، أو حتى عملا يعرض لمسئولية اجتماعية ، قانونية .. أما المسئولية العلمية المنهجية فلا شيء منها يلزم هذا الذى ترجم لشخص ، كما تصوره هو ، وعلى ما تمثله هو ؛ وان كان هذا التصور والتمثل لابد قد وجد معتمدا فى التاريخ، ولو بنقده ، وتحليـله ، وتوهينه ، فهو أسلم عاقبـة اذا ما اعتمد على عمل تاريخى ، وكان هذا العمل التـاريخى

سليما .. وليته هذا المنهج السليم ، بنقده ، وتفسيره الى نتائج تخالف ما استقرت أجيال على روايته وتداوله .

* * *

ومن الترجمة الأدبية ما يكتب عرضا لشخصية يختلف حولها المختلفون ، عقيدة أو سياسة ؛ كنبى أو بطل ؛ وهذا الانصاف لتلك الشخصية لن ينال من نفوس المخالفين منالا ، ولن يقع عند القارئين موقعا الا اذا كانت سبيله الى البيان والانصاف هى السبيل التاريخية ، التى تعتمد على المنهج الصحيح فى ذلك ؛ من الجمع المستقصى ؛ والنقد الفاحص ؛ والتفسير الواعى .. وقد أخرج نتائج ذلك كله بتعبير من القول الفنى ، دقيق الأداء ، محدود الدلالة ، غير مسرف ولا متوسع ، فى المعنى ، فان أصاب مع ذلك شيئا من لباقة ، أو حسن بيان ، أو قوة أداء فلا بأس بذلك ، ما دام الأصل التاريخى ، المحقق للمعانى المؤداة سليما ، منتهيا الى تقرير أصول تلك الحقائق ، وجملة تلك الدواعى .. أما الخلابة مع ذلك فى العرض ، أو الفنية فى التفسير ، أو الوجدانية فى الاحتجاج فذلك قدر تجيزه الصفة الأدبية للترجمة ، وان كانت تهز المصدرية التاريخية للترجمة الأدبية ، التى تكتب لهدف ، ويدخلها صاحبها منذ أول أمره برغبة

معينة ، ولمقصد خاص .. ومن هذا ما تخرجه الدعاية أحيانا توجيها لتفسير التاريخ الى وجهــة معينة ، ولو لم تكن صحيحة .



ومن الترجمة الأدبية ما يعد لقراءة النشء الدارسين عن رجال تاريخهم وهو من الصنف السابق نفسه ، يحسن أن يسلم فيه المنهج التاريخى ، اثباتا لأمهات الحقائق ، وخطوط الصورة الكبرى ، والملامح الأساسية للشخصية ، ثم لا بأس بعد ذلك فى أن يضفى العرض الأدبى أضواء لافتة على تلك الملامح ، وألوانا زاهية لتلك الخطوط ، لا تستبيح التعبير المتساهل ، ولا الادعاء المستهين ؛ وانما تحترم اسم الكاتب ، وعقل القــارىء ، وان جلت الصورة محببة ، كريمة ، وقدوة حسنة .. فى بشريتها ، وخيريتها ، وعظمتها .

وبهذا البيان لألوان مختلفة ، من التراجم الأدبية بدا أن جوهر الفرق بينها وبين الترجمة التاريخية العلمية انما يتجسم فى الجانب الفنى عند التعبير ، اذ يتسمح منــه فى الترجمة الأدبية ، بما لا يتســمح به كله ، فى الترجمــة التاريخية .. أما حق التاريخ فيلزم الوفاء به ، وان تفاوتت

نسبة الدقة فى الترجمة التاريخية بعض الشىء عن الترجمــة الأدبية .. ولم يعف من الدقة التاريخية الا صاحب الصورة القلمية ، المترجم لما يتمثله هو عن الشخص ، لأنه يصور ما رسمته نفسه للشخص ، لا مارسم الباحثون المحققون عنه .. وان كان صاحب هذه الصورة يتعرض من الناحية العملية لمسئولية لا يعفيه منها المجتمع الا حين يأوى الى ركن شديد ، من النقد التاريخى أو التفسير النفسى ، على ما بينــا .

* * *

وهكذا نطمئن الى أن الترجمة ، على اختلاف ألوانها ، لابد أن تقوم على أساس راسخ من الواقع التاريخى لحياة المترجم له ، راسيا ذلك الأساس على أرض صلبة من المنهج التاريخى السليم ، المستفيد من كل تجدد وتطور لهــذا المنهج ، على ضوء المعرفة الانسانية لحياة الفرد والمجتمع ونواميسها ؛ لأن كل تجدد فى ذلك وتقدم يغير من نتائج النقد الدقيق للمرويات التاريخية ، على اختلافها ؛ كما يغير تغييرا أوسع مدى ، من نتائج التفسير النفسى والاجتماعى ، لتلك المرويات ، كلما دق وشــف علم الانســان بالنفس والمجتمع ، والأمر فى ذلك كله أوضح من أن يبين أو يمثل له.

ولو قدرنا أن الثروة المعنوية من المرويات التاريخية ، كلامية أو مادية ، قابلة كل القبول للزيادة والنمـاء وأن تاريخنا نحن العربى والاسلامى بصفة خاصة ، لا تزال دفائنه الكتابية ، والنقشية ، والبنائية ، والنقدية ، والفنية الزخرفية وغيرها ، لا تزال كل أولئك الأشياء وما اليها ودائع فى بطن الأرض ، أو فى ظلام مكتبات ، فى أنحاء الدنيـا ، ذهبت بالكثير النفيس من ذلك ؛ ولم نبذل أيسر الجهد فى معرفة نوع واحد من هـذه الدفائن ، وهو الكتب المخطوطة ، فكيف اذا جد الجد ، وصـدق العزم ، وتمت الحفـائر الدارسة للمناطق التى قامت فيها حواضر دول الاسـلام المختلفة ، فى أنحاء العالم القديم المترامية ، والتى قامت فيها كذلك سائر مدائنه ، ومدارسه ، ومساجده ، ومعاهده ومعاقله ، ومنازله ، ومغانيه ، وبقى فى ذلك وغيره ما لابد أن قد بقى ، من كتابات ونقوش ، وطرز ، ونقود ، وأدوات ، ووثائق ، و .. و .. مما لم نعرف عن شىء منه مثل الذى عرفت الحضارات الأخرى — ولا تزال تعرف — ؛ وقد يكون فى اليسير من ذلك ما يغير شائعا مشهورا ، منقبيا أو خبريا ، مسندا أو مرسلا ، منقودا أو مسلما .

وحسب القلم انطلاقا ، يذكرنا بواجب الدرس ، ومحكم المنهج ، ومفروض الدقة ، وما يقوم به ذلك كله من علم وعمل ، لم تؤد بعض حقه ، بل ربما لم نشعر به واضح الشعور ، وهو الشعور بالنقص ، الذى يعد أول مراتب الكمال .. حسبنا اعترافا بالقصور ، واغراء بمسايرة الدنيا حولنا ، وقد عبدت الطرق ، وقدمت المثل ، وسقطت المعاذير ، وحققت المسئولية ، ووجب الوفاء لأنفسنا ، وللخالفين ، وللسالفين جميعا .

حسبنا هذا لفتا الى سؤال قد تردد أخيرا ، وتناولته أقلام كثيرة ، وهو فى واسع أفقه :

هل تقال الكلمة الأخيرة فى التاريخ ، حتى حين يكون عصريا يكتبه معاصرون ؟ ..

وجلى أن الجواب عن هذا السؤال لن يكون الا : لا .. ثم لا .. ولا .. ودلائل ذلك النفى وشواهده كثيرة ، قد تجلت الاشارة اليها فيما تقدم من هذا البحث ؛ فما دام التاريخ جمعا مستقصيا ؛ والاستقصاء التام لا يقف عند حد ، ولا ينتهى بزمن ، بل لا تزال هناك الفرص المواتية للعثور على روايات تاريخية ، ووثائق ، وشواهد ، سواء

فى قديم التاريخ الذى لم نقم بالبحث الواجب عنه ، أم فى حديث التاريخ الذى لم تجمع له وثائق عندنا على وجه يعفى من المسئولية ، فبذلك يظل الباب مفتوحا على مصراعيه ، لتدخل منه الى ميدان البحث مواد جديدة من أخبار التاريخ ومصادره .

ثم يكون بعد ذلك النقد ، وهو متأثر بجديد ما يظهر ، من وسائل الدقة والتحرى ، والفحص العقلى والعملى لمرويات التاريخ ومواده ، وجميع المعارف البشرية النظرية والعملية وسائل فى ذلك ، تقدم المتجدد من أسباب الدقة والتحرى ؛ ثم هذا النقد متأثر أوضح التأثر بجديد ما يضاف من أخبار تاريخية ، مما أشرنا الى عدم تطلعنا الى شىء منه .

فاذا ما كانت خطوة التفسير النفسى والاجتماعى فكل ذلك متأثر أقوى التأثر بكل ما تعرف الانسانية كل يوم ، من حال هذه الدنيا المادى والعقلى ، ولا تدرى نفس ماذا يكون غدا من علم الانسان بنفسه كلما زاد توغله فى أنحاء الكون . فجاز الفضاء وأمن طريقه فيه ، وعبر الى الكواكب. وعاش بها ، و .. و .. مما لا يقف عند غاية .. وقبل هذا

البعيد قريب من الدرس النفسى والاجتماعى الدقيق نوعا ما، لرجال تاريخنا المعروفين ولمجتمعات أسلافنا وما كان يضبط سيرها ، من سنن الحياة ؛ فاذا ما أضيف الى القديم — وهو كالمجهول تماما لدينا — جديد من خبر هؤلاء الأفراد أو الجماعات فقد تهيأت أسس التفسير للتطور والتحول المستمر الدائم .

وهكذا نجد فى كل خطوات المنهج ، وأجهزة العمل التاريخى عوامل للتغير ، والتجدد ، والزيادة والنماء ، مما لا يمكن أن يقال معه : ان الكلمة الأخيرة عن شخصية فلان هى كذا ، ولا كلمة بعدها !! ولا ان الكلمة الأخيرة فى الحادث الفلانى ، أو الفترة الفلانية ، أو العصر الفلانى هى كذا ، ولا كلمة بعدها !!

وكذلك نقول : ان الترجمة الأخيرة لأى أحد لم تكتب، ولعلها ستظل أبدا لم تكتب ، حتى يشبع النهم البشرى من البحث والتتبع والاستقصاء ، وهو ما لا يمكن أن يقال : متى يكون .. وكيف يكون .. ؟

وكذلك تقول فى ثقة واصرار : ان الفرصة متجددة ، والحق متقرر ، ليقول كل انسان مقالة جديدة فى تاريخ أى

فرد أو جمع ، على أن يرسل من ذلك ما يرسل . فى حماية منهج سديد .

٣

لقد حق القول أن الترجمة — على اختلاف ألوانها — تكتب مرارا ، فالترجمة التاريخية العلمية تكتب مرارا كلما زاد فى الخبر شيء ، فغير من فحص النقد ، وأثر على تفسير الأخبار والأحداث ؛ وكل هذا — فى تاريخنا بخاصة — منتظر مرتقب ، بل واجب أن يكون مطلوبا مبحوثا عنه أداء لواجبنا نحو أنفسنا ، ونحو مستقبلنا قبل ماضينا .

والترجمة الأدبية — على اختلافها — تقوم على الأساس التاريخى فى عامة أمرها — على ما أسلفنا — وهو قابل لكل تجدد وتغير ؛ فالعمل الفنى القولى له تبع ، وبه متأثر ..

والرقى الفنى ، ودقة الحساسية الوجدانية كافية وحدها لأن تستشف فى الشخصية مشاعر وملامح تعرض بها تلك الشخصية عرضا أدبيا ، متجددا كل التجدد ، مختلفا كل الاختلاف عما ألف واشتهر .

وعلى هذا الأساس من امكان كتابة الترجمة مرارا ؛

وكتابة التاريخ الدقيق غير مرة كذلك أشـير الى ما كان لصاحب هذه الكلمات من عمل فى ترجمة مالك بن أنس :

فمنذ أحد عشر عاما كتبت « مالك بن أنس : ترجمة محررة » فى ثمانماية وست صفحات ، وقد برز فيها بجلاء أن المرويات التاريخيـة عن مالك لم يتيسر لهـا جمع ؛ وقلت : .. انى لأطمـع فى أن نظفر بالضـائع من آثارنا العلمية ، بجمع جاد ، توضع له سياسة ثابتة — وبتنقيب متعمق ، تصل به اليد ، الى تلك المرويات المادية ، فنظفر بمصادر جديدة يكون فيها الوفاء ، بما شكونا ، من نقص تلك الترجمة — صفحة ل مقدمة ، وصفحة ٤٣٥ من الكتاب.

وأما فى نقد ما جمع من مرويات هذه الترجمة فقـد شكوت التناقض فى تلك المرويات — ص ١٣ ، ١٤ — وبرمت باختلافها ذلك الاختلاف الذى يكاد يستغرق الصور العقلية المحتملة جميعا فى كل مسألة تروى !! وهو ما حال حذف السند كله أو جله ، دون الانتفاع بنقده لرفع التناقض — صفحة ن مقدمة — كما اعتمدت مقهورا على نسخ .. لا أصالة فيها ولا شعور بواجب .. الخ .

وفى تفسير ما بقى من الأخبار تفسيرا نفسيا أو اجتماعيا قدرت صعوبة هذا التفسير النفسى لاشتباه مسالكه ؛ فهو

لذلك أخفى وأدق من التفسير الاجتماعى — صفحة ص من المقدمة — وكل أولئك التفسير — كما تقرر — قد يختلف أعظم الاختلاف بجديد من الخبر اليسير يضاف الى ما نعرفه ، أو بنبأ عن النفس والمجتمع وتفهمهما ...

وهكذا جاءت ترجمتى المحررة لمالك ، وكأنها دعوة الى ترجمة أخرى ، وتأكيد للواجب الكبير ، فى استكمال مصادر تاريخنا ، ومراجعه ، وأخباره .

* * *

والآن .. أكتب « مالك بن أنس : تجارب حياة » للقراءة الميسرة ، يستكمل بها القارىء صورة ماضيه ، ويتعرف الى رجال شاركوا مشاركة فعالة — بنسبة ما — فى صنع الماضى العقلى ، والخلقى ، والعملى الذى هو امتداده ، وصنيعته ، ووارثه ، وممثله .. فهى ترجمة تعطى صورة تخطيطية تتضح فيها الملامح الكبرى لشخصية من تلك الشخصيات ، التى شاركت فى تلك الحياة السالفة مشاركة ايجابية فى تنسيقها بالقانون العملى ، وضبطها بالفقه الشرعى ، وتوجيه نشاطها العامل ، بهذا التنظيم والتنسيق القانونى ، وتحديد خلقيتها وسلوكها بحدود التحريم والتحليل التشريعى ..

فهذه ترجمة تقدم فى العرض تجارب هـذا الرجـل للحياة ، وماذا تقدم هذه التجارب لنا اليوم من نتائج تزيد خبرتنا بتلك الحياة ، وتضيء طريقنـا فيها ، أو تدل على مزالق ومخاطر خفية فى الطريق ، الذى نسلكه بعدما سبقنا فيه أولئك القوم أمامنا .. ومن أجل هذه تتجه العناية الى تجارب مالك فى الحياة أكثر مما تتجه الى دقائق تصوير الشخصية ، أو حقائق القيم الفقهية أو الكلامية التى أمضى مالك فيها جمهرة حياته وعامة نشاطه ، لأن ذلك يفرد القول فيه للمتخصصين المتفرغين لدرس هـذه المعارف الشرعية وتاريخها ، وليسوا هم وحدهم قراء مثل هذه الترجمة . بل لعلها عنيت بقراءة غيرهم ، فكان ذلك العنـوان « مالك بن أنس : تجارب حياة » وكانت تلك التجارب فى قريب معناها هى هدف تلك الترجمة ، وهى قوام تنسيقها . فى حكاية حياة ، تتشابه فيها الصور أمس واليوم .

ترجمة أدنى الى الجـانب الأدبى منها الى الجـانب التاريخى البحت ، فهى أقرب الى الصنف الثـالث الذى عددناه فى ألوان الترجمة الأدبية — ص ٢٧ — التى تعد لقراءة الأخـلاف عن أسلافهم . على أنها ليست خاصـة بالنشأ الصغار فى مقاعد الدرس ، الا أن يكونوا المتقدمين

فى المرحلة الثانوية : وهذا اللون من الترجمة الأدبية — كما قدمنا — يحسن أن يسلم فيه المنهج التاريخى ، اثبـاتا لأمهات الحقائق ، وخطوط الصـورة الكبرى ، والملامح الأساسية للشخصية ؛ وهو القدر الذى قامت بالمستطاع منه حتى الآن ترجمتى المحررة المنشورة من قبل ، فان صح أن صاحب الترجمة الأدبية يقوم بما يقوم به من عمـل تاريخى فى معمله ، ليخرج بنتائجه فقط ، على قراء الترجمة الأدبية ، فقد تيسر فى هذه الترجمة الأدبية لمالك أن يستطيع القارىء المدقق ، حين يريد ، أن يشهد العملية التاريخية ، التى وراء الستار ، واضحة مقروءة فى الترجمة المحررة ؛ التى تعتمد عليها هذه الترجمة لحياة مالك العملية ، كما انتهى اليها البحث التاريخى ، وتقررت نتائجه حتى اليوم .

وفى مثل هذه الترجمة الأدبية — كما بينت — لا بأس بأن يضفى العرض الأدبى أضواء لافتة .. وألوانا زاهية .. على ألا تستبيح التعبير المتساهل ، ولا الادعاء المستهين .. وان جلت الصورة محببة ، كريمة وقدوة حسنة فى بشريتها وخيريتها » . ولعلى بذلك قد رسمت لنفسى ما أعتقد أنه الخطة المثلى لترجمة تتخلص من اهمال الأساس التاريخى الذى لن تكون ترجمة ما الا أن أقيمت على عريض منه ..

وتتخلص كذلك من وثبات تعبيرية متساهلة ، ترسل ادعاء مستهينا لا أستطيع أن أعرض له هنا شيئا من مثل ؛ فحسبى تلك الاشارة دفعا للقارىء الواعى الى الانتباه لذلك واتقائه.. فانى لأحسبنى قد تركت أمام القارىء — حين يريد — معيارا لتقويم ما يرى من قديم الترجمات أو حديثها ، يستطيع به — فى سهولة — أن يضع كل ترجمة فى مكانها من ألوان الترجمة التاريخية ؛ أو الترجمات الأدبية .. وأن ينزل كل ترجمة منزلتها فى صنفها ، وأين تقع بذلك فى الفهم التاريخى ، والعرض الأدبى ..

وأعتقد أن القارىء الفطن سيجد حين يحاول ذلك التقييم أن من تراجم عصرنا الآن ، ما قد يرجع الى أول ما عرفت الدنيا من الترجمة الأسطورية ، وأنه وان ألقى فى أرقى معاهد هذا البلد ، علما وحرية فكر ، لا يجاوز تلك المنزلة الساذجة ولعلى أجد الفرصة فى غير هذا المكان لعرض نماذج نقدية من التراجم التى كتبت فى عصرنا هذا ؛ وكيف وفت بحق التاريخ ، والى أى حد التقى فيها التاريخ بالأدب ، ان كانت قد جاوزت عصر الترجمة الأسطورية ، والترجمة المنفية الى الترجمة التى يمكن أن تسمى تاريخية..

والعلم أمانة .. والنقد فريضة [1] .. والشباب وديعة .. والماضى ذخيرة ، والمستقبل نتيجة .. والضمير رقيب .

أمين الخولى

---

(١) تقديرا لهذه الفريضة أضع أمام القارىء مثلا نقديا هو ما جاء فى كتاب « ابن حنبل : حياته وعصره وآراؤه الفقهية » ص ٥ من أنه « لو قال رجل أن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ما عنف فى ذلك ؛ وذلك أنه لو قصد رجل خراسان ونواحيها لقالوا ان ابن حنبل رجل صالح ، وكذلك لو قصد الشام ونواحيها لقالوا ابن حنبل رجل صالح ، وكذلك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا ابن حنبل رجل صالح فهذا اجماع ولو عنف هذا على قوله بطل الاجماع » .. ينقل هذا القول مؤلف الكتاب العصرى ويتبعه بقوله : هذا قول فقيه،محدث ، معاصر لأحمد ؛ فيه .... انعقد اجماع أهل الأقطار الاسلامية المتنائية على أنه رجل صالح ... واذا كان الاجماع حجة فقد قامت الحجة على صلاح أحمد ، ليس فى ذلك من ريب ، ولا مجال للشك فيه»

فقول هذا الكلام فى ترجمة عصرية ، ودرسه فى معاهد الجامعة العليا مما لايستطيع الانسان معه أن يسكت عن التساؤل : هل يتقرر الاجماع بفرض أنه لو قصد رجل الى العراق لقالوا له كذا ، ولو قصد خراسان لقالوا له كذا .. الخ !! وهل الاجماع الذى هو حجة هو الاجماع على طيبة فلان !! وورع فلان !! وهل !! وهل !! مملا نجد المكان لعرضه هنا !! وهل يتيسر مع هذا المنهج تفسير نفسى أو اجتماعى للحياة والتاريخ !!

أسرة يمنيّة - في الحجاز
- الهجرة
- الاستقرار

الفصل الأول

أسرة يمنية .. في الحجاز

عرفت الأمة العربية الهجرات الجماعية ، من الجنوب الى الشمال وسيلة فى تاريخها لتوحد الشعبين القحطانى والعدنانى لغة ونشاطا ، حتى كان من أمرهما ما كان ، فى التجربة الحضارية الكبرى ، التى قامت فيها الأمة العربية بدورها الكبير فى التاريخ .

وهذه هجرة فردية من الجنوب الى الشمال ، هى هجرة الأسرة التى ينتمى اليها مالك بن أنس الامام وقد كانت تلك الهجرة نقطة تحول واضح فى حياة هذه الأسرة ، اذ كانت سبب ما كان من اتصالها بمركز الحياة الاسلامية ، فى الحجاز ، ذلك الاتصال ، الذى كان وسيلة فى تاريخها لمشاركة سليلها مالك ، فى ذلك الدور العربى الحضارى ، الذى وجه الحياة الانسانية العامة توجيها مذكورا ؛ كان لابن هذه الأسرة فيه من المشاركة ما جعل اسمه يذكر بعد اثنى عشر قرنا ،

وتعاد اليوم كتابة تاريخه ، بعدما كتبت غير مرة ، قبل ذلك .

ويبحث فى هذا الكتاب عن أسرته وما كان من أمرها ؛ فاذا هى أسرة يمنية الأصل قد هاجرت الى الحجاز — فى الاسلام غالبا ، أو فى الجاهلية على قول — لما تكون له الهجرة دائما ، من نبوة المضجع بالانسان فى مكانه الأول ، وقلقه فيه ، فتتنكره البلدة أو ينكرها .. وقد أقض مضجع تلك الأسرة ظلم من والى اليمن لم تحتمله ، فخرج « مالك ابن أبى عامر » أبو أنس والد الامام ، الذى سمى ابنه مالكا على اسم أبيه ، هذا ، كما لا يزال يفعل الناس اليوم.

خرج مالك ابن أبى عامر ، جد مالك بن أنس الى الحجاز متظلما ، مما لحقه من ظلم والى اليمن اذ ذاك لكن يبدو أنه خرج على أن يبقى فى الحجاز ، اذا طاب له المقام هناك ؛ وهذا ما كان أخيرا .

وهو غريب فى مهجره ذاك ، والحياة اذ ذاك تحتاج الى قوة تؤمنها ، فهو لهذا يحالف عربيا قرشيا ، من أهل المنطقة ، من بنى « تيم بن مرة » على أن يكون منهم وفيهم : دمه دمهم وهدمه هدمهم ... هو الذى طلب ذلك من التيميين ؛

أو فى رواية هم الذين عرضوا عليه ذلك ؛ أما هو فليسند ظهره بهم ؛ وأما هم ان عرضوا ذلك فلشعور منهم بأن فى هذا الحليف شيئا من قوة ؛ وعلى كل حال فقد صار « مالك ابن أبى عامر » فى التيميين ومعدودا فيهم ، وقد تزوج منهم ، فقيل انه عد فيهم بالتحالف ، أو بالصهر .

ومالك الجد ، الذى لا يعرف له أصل فى هؤلاء التيميين ، وهو غريب معروف الأول فيهم يعيش فى مجتمع حساس اذ ذاك ، من حيث العصبية ، ينظر الى غير العربى نظرة تنقص ، كما هو معروف ، أو يشتم بالغربة ، كما لا يزال الناس لعهدنا اليوم يفعلون ، ويذمون « الغَرْبِّى بأكثر من عبارة ؛ ولا سيما يوم الخصومة فهو — فيما سمعت ببلدنا « التّوِى » ؛ وفى الفصحى التَوِىّ : المقيم ؛ ومن قول الشاعر .. وتَوِىٌ بالفلاة غريب .. وقد أدرك ذلك كله مالكا نفسه على الأيام ، عندما غاضب أحد من حوله .. وورد فى بعض الرواية التاريخية أن الأسرة من الموالى ، غير الأحرار ..

فأما المغاضبة فكانت « لمحمد بن أسحق » صاحب السيرة ؛ وأما الرواية فعندما اشتبه الأمر حين رأوا الأسرة تعد فى التيميين ، وليس لها فيهم آباء ..

وكان مالك — فيما سنرى — يضيق بتهمة الولاء ، وعدم الاصـالة العربيـة .. التى جرتها الهجرة والاغتراب على أسرته ؛ وهى من تجارب الأسرة فى الحياة ، لا نزال نجد شـواهدها حولنا ، وان اختلفت الصـورة نوعا ما لكن الغريب المهاجر « مالك بن أبى عامر » ينجح فى البيئة الجديدة ، فاذا « أبو أنس » يعـد ، على التـاريخ من كبار التابعين وعلمائهم ، وتدون له رواية فى الحـديث ، وليس هذا العلم وتلك الرواية فحسب ؛ بل هو يشارك فى مهمة دينية رسـمية ، لعـله لم يكن يندب لهـا اذ ذاك الا أشخاص بارزون ، وتلك هى مهمة كتابة المصاحف فى عهد الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » ؛ فيكون مالك الجد ممن كتب هذه المصاحف الرسمية ؛ أو فى رواية قد أملى من كتبوها ..

وللرجل مع النشاط العلمى المرموق نشاط عمـلى فى أحداث سياسية كبرى ، كفتنة عثمان ومقتله ، فان اسـم « مالك بن أبى عامر » يذكر فى المراجع التاريخية بين أربعة رجال حملوا جثة الخليفة بعد قتله ، وواروه قبره ليلا ؛ وهو فى هذه الظروف عمل ليس سهلا ، .

ويظهر الرجل فى الحياة السياسية بأكثر من هذا العمل

فاذا الرواية تذكر أن الخليفة الأموى الخير ، عمر بن عبد العزيز ، فى دمشق كان يستشير « ابن أبى عامر » ، هذا ، والاستشارة من عمر بن عبد العزيز تشهد بصلاح المستشار ، مع حكمته وخبرته .

ولا تقف الروايات التاريخية عند هذا الحد فى وصف نشاط رأس أسرة مالك فى الحجاز ، بل يقال : ان له نشاطا عسكريا ، الى جانب النشاط العلمى ، والسياسى ؛ فولاه عثمان غزو افريقية ففتحها .. وان كان لا يسهل الظفر باسم هذا الجد ، بين الذين ذكروا فى فتح افريقية .. فنهب هذا الخبر لما لابد من توطين النفس عليه ، من اختلاف الروايات التاريخية ، فى هذا المجال وسواه اختلافا يعز معه الترجيح أو التوفيق ، وتتسع فيه مسافة الخلف اتساعها فى سنة وفاة هذا الجد صاحب النشاط المتعدد الجوانب فى العلم والحرب والسياسة ، فيتسع هذا الخلاف من أنه مات سنة ٩٤ هـ حتى سنة ١٠١ هـ أو نحوها .. وهو ما نجده كذلك اذا حاولنا تحديد زمن هجرة أسرة مالك من اليمن ، والمهاجر الأول بها ، فالهجرة تارة فى الاسلام ، وتارة فى الجاهلية — كما قلنا — وبهذا يختلف تعيين المهاجر ، ويعز السبيل الى الترجيح بين هذه المرويات فلا يبقى لنا منها الا أن هذا الحادث قد كان ،

وان لم نعرف بالضبط المحدد متى ؟ ومن ؟ .. وندع فرصة النظر فى هذه المرويات ، ومنهج مناقشتها لما تأسست عليه هذه الترجمة من الترجمة الأخرى الموسعة فى الصفحات من ٣١ — ٣٣ .

* * *

وتستقر الأسرة فى الحجاز ، ويكون « أنس » أبو مالك قد عاش فى « ذى المروة » أو على الأقل كان بها يوم استقبل مالك ابنه الحياة ، وهو مكان به عيون ومزارع وبساتين ، كأنه واحة فى الصحراء يقع على بعد ١٩٢ كيلو مترا شمالى المدينة المنورة .

ولا نعرف عن هــذا الأب الكثير الذى يزيد معرفتنا بظروف الابن الذى نترجم له ؛ ومن جملة ما وصلت اليه اليد ، من خير هذا الأب أنه ليس صــاحب نشاط كنشاط أبيه المنوع المجالات ، فلا هو صاحب علم يذكر كأبيه ، وان كان هو واخوته الثلاثة ، أعمام مالك ، وهم أويس ، ونافع ، والربيع قد رووا شيئا من الحديث عن أبيهم مالك ابن أبى عامر ، الذى رأيناه بعد من كبار علماء التابعين .. لكن واحدا من هؤلاء الأربعة الاخوة — ولا سيما أنس أبو مالك — لم يعد من أصحاب الحديث الخليقين بهــذا

الاسم ، وان كنا فى جملة الأمر نحس أن للأب رغبة علمية طيبة ، مع هذا اليسير من المعرفة الدينية .

وأما سائر نشاط أبيهم العملى والسياسى ، والحربى — فيما يقال — فليس لأنس منه نصيب ، لأنه كان مقعدا.. كما يصرّح بأنه كان يتعاطى عملا يدويا تعيش منه تلك الأسرة المتوسطة الحال ، التى نشأ فيها مالك الامام ؛ وذلك العمل اليدوى هو صنعة النبال .

ولم تسعفنا الأخبار بسنة وفاة الوالد أنس . لنعرف كم من الزمن رعى ابنه ، وفى أى مرحــلة رآه وان أمكن أن نستنتج من بقايا الأخبار أنه رأى مالكا غلاما أو يكاد .

* * *

ثم من التى تزوجها هذا النبال المقعد ؟ وكانت أم ابنه مالك ؟ لا تستطيع الأخبار الاجابة المحــدودة عن هــذا السؤال ، فحتى اسمها ليس متفقا عليه ، فهى « العالية » وأبوها شريك وهى قحطانية أزدية ، من أنفسهم ؛ يعنى ليست من مواليهم ؛ وان كنا لا نعرف شيئا عن هذا الأب « شريك » .

أو هى طليحة المولاة ؛ وتجىء اهانة الولاء ، من جهة

الأم أيضا ، بعدما وجهت مرة من طريق الأب ، بالعد فى التيميين — على ما أشرنا اليه — من أمر تحالف الجد معهم .

واذا كانت طليحة المولاة فقد نعرف اسم مولاها ، ولكن لا نعرف اسم أبيها ، وبنت من هى .. وهكذا لانعرف شيئا ذا غناء ، عن أم مالك الامام ، وان كنا نعرف من نثرات الأخبار شيئا ، بعض الشىء عن شخصيتها بما هى أم ، وحدبها على ابنها ، وأملها فى مستقبله العلمى ، يوم تلبسه وترسله ليتعلم العلم والأخلاق ؛ وشمائل أساتذته عندها أهم من علمهم .. وهى يقظة طيبة ، من هذه الأم الصالحة ، التى لا نعرف عنها أكثر من مثل هذه المعانى العامة الخفيفة .

* * *

وهذه الأسرة اليمنية التى يتحدث عنها هذا الفصل ، قد ظهرت منها اليمنية ، فى شخص والد مالك وجده المهاجر من اليمن ، كما ظهرت فى بعض الروايات عن الأم القحطانية الأزدية — على رواية — ويمضى النسابون — على عادتهم ، فيذكرون جد أبى الامام : أبا عامر بن عمرو ، ويمضون فى سلسلة نسب الأسرة ، مرتفعين به — على اختلاف فى سرد الأسماء وضبطها — حتى ينتهون بها الى

« ذى أصبح » الحميرى القحطانى ، أحد أذواء حمير ؛ فتكون تلك الأسرة اليمنية قد ذهبت ببعض الدم الأزرق ، من هذه النسبة الملكية ، المنتهية الى الأذواء ...

ومن هذه الصلة تكون النسبة « الأصبحى » فيهم ، الى « ذى أصبح » المذكور ؛ فتظهر فى وصف مالك ، على الأيام ؛ وقد يكون لها عند النظر المدقق شىء من الأثر فى شخصية هذا الذى جاءته تلك الوراثة الأرستقراطية ، المقولة . متسلسلة فى بضعة أجداد ، حتى أنس أبيه ، الذى كون تلك الأسرة مع الأم المبهمة الشخصية ؛ وكان لهم أولاد قبل هذا الابن ، الذى ذهب بالصيت الكبير ، والشخصية التاريخية ، وربما كان لهم أولاد أصغر منه ، ولدوا بعده ، وان كان ذلك مما لم تستوفه الأخبار المروية ..

فمن هذه الأسرة التى عرفنا عنها ما أمكنت معرفته ، يجىء مالك ، ونقف عنده جنينا .. أولا .

حنين سنين

الفصل الثاني

جنين .. سنين

كم يشتهى كاتب الترجمة أن يعرف عمن يترجمه ما قبل نضوجه واشتهاره ، ليفهم عناصر الشخصية الناضجة ، وهو لهذا يبحث عن أسرته ووراثته القريبة والبعيدة ؛ كما يبحث عن بيئته وتأثيرها عليه ، وأحبب اليه أن يعرف ما يمكن أن يعرف عن تلك البيئة الأولى لكل انسان ، حيث يصنع ذلك الجنين ، فى ظروف جسمية ، ومادية ، ونفسية ، يكون لها الأثر البعيد ، على كيانه الحيوى ، الذى يشارك به فى الحياة ويناضل ؛ حتى يكون ما يكون أخيرا ، فى عالم الشهرة والعظمة .

والدراسة التاريخية تهش وتطرب لما تظفر به من حديث عن أولئك المترجمين ، وهم أجنة أو أطفال ؛ وتفتقد هذا فلا تظفر بالكثير منه مفرقا ، أو مجموعا فى مؤلف واحد ، فان لم تجد شيئا عن تلك المرحلة التمست ما بعدها من

أنباء الطفولة ؛ والمكتبة العربية لذلك تشعر بطرافة كتاب « ابن ظفر الصقلى » عن تلك الفترة البادئة من فترات حياة النجباء ، وهو الكتاب الذى يسمى : أنباء نجباء الأبناء ، ويتحدث عن طفولات مشهورين من العرب وغيرهم ، وليس لمالك من أخبار هذه الطفولة نصيب .

وانما يذكرنى بهذا كله ما أحاوله من الحديث المتدرج عن مالك : طفلا .. فغلاما .. فشابا .. فرجلا .. فأجد من مطالع الأخبار ما يتحدث عن مالك جنينا أولا ، فيذكر من طول مدة حمله ما يذكر ، من أن أمه حملت به ثلاث سنين ؛ أو أكثر من سنتين ؛ أو سنتين .. وهى عندهم خاصة لا ينفرد بها مالك ، بل يشركه فيها غيره ، فبكار بن عبد الله الزبيرى يروى أن الحمل به كان ثلاث سنين ؛ وذكر أصحاب التواريخ من مدة الحمل ما فات ثلاث سنين ، الى أربع ، نزل بعدها الغلام ، وقد استوت أسنانه ولم تقطع سرته .. بل صار طول مدة الحمل عن تسعة الأشهر التى نعرفها خصيصة لنساء بعينهم ، فتمدحت نساء آل الحجاف ، من ولد زيد بن الخطاب بذلك ، وكن يقلن : ما حملت امرأة منا أقل من ثلاثين شهرا ..

وتدخل مالك الفقيه بعد ذلك فى تقرير امكان هـذا ووقوعه ، فقال : قد يكون الحمل ثلاث سنين . وقد حمل ببعض الناس ثلاث سنين ؛ وقالوا : انه فى هـذه العبارة الأخيرة كان يعنى نفسه .

وهذا القول فى طول مدة الحمل يتصل بشائعة قديمة ، لعلها مما قبل الاسلام ، وشاعت بين العرب فيما يحدثون به عن نجابة الأبناء ، وتفردهم بميزة تهيئهم لهذه النجابة ، فحدثوا عن طول مدة الحمل ، وشعروا — وهم يقررون ذلك — بما سبقت الاشارة اليه ، صدر هذا الفصل . من أهمية كبرى ، لهذا المنزل الأول — الرحم — من منازل الناس فى حياتهم ، وبينوا أثر طول الحمل ، فى تمام نماء الجنين ؛ وجعلوا ذلك فى الانسان والحيوان أيضا . فزعموا: أن الناقة اذا تأخرت ولادتها شهرا ، عن حين الولادة كان أقـوى للولد ، وتكون فى قولهم قد نضـجت ولدها ، وسموها اذ ذاك : « المنضجة » . وعلى مثال هذا مدحوا الرجل منهم بأنه قد نضجته أمه ، فقال قائلهم :

يضن بحملنا الأرحام ، حتى   تنضـجنا بطون الحاملات

كما قالوا فى ذلك : تمطت به أمه فى النفاس ، يريدون أنها زادت فى حمله على تسعة أشهر ... وهو بعض حديثهم ،

عن حياة الانسان ، فى هذه المرحلة التى « وراء النور » كما قلت سابقا !! .

وبهذا يكون طول مدة الحمل بمالك الى ثلاث سنين ليس خبرا منقبيا حسب .. بل هو ذاهب العرق الى ما قبل الاسلام ، متصل بفكرة عامة ، عن أهمية الفترة الرحمية ، فى حياة الجنين ، وأنه البيئة الأولى من البيئات الطبيعية ، التى يعيش فيها الانسان ، ولذلك كانوا يعدون التّوم ، والحمل فى اثنين مضعفا للجنين ، وبه علل الشعبى ضآلة جسمه ونحافته ، حين سئل : ما لنا نراك نحيفا ، فقال : انى زوحمت فى الرحم . وكان قد ولد هو وأخ له ، فى بطن ؛ وعلى هذا المعنى قال الشاعر يصف هزيل الجسم :

تحسبه مما به نضو سـقم   أو توأما أزرى به ذاك التوم

ومدحوا الرجل منهم بهذا النضج فى الرحم ، واستقامة الوضع فيه ، وانفراده به فقال الشاعر :

تمطت به أمـه فى النفـا   س فليس بيتن ، ولا توأم

واليتن هو : الوليد المنكوس ، تخرج رجـلاه قبـل رأسه ، وقد سمعنا سبب كراهتهم للتوأمية ، بما فيها من مزاحمة فى البطن ، تمنع كمال نماء الولد .

ولكن شعورهم بأهمية مرحلة الحمل ، فى حياة الجنين ،

مع صحته والاعتراف معهم اليوم به ، لا يكفى لصحة قولهم : ان الجنين يظل فى البطن هذه المدة الطويلة ، ذات السنين فتنضجه الأرحام ، على زعمهم ، فى الانسان والحيوان .

وربما كان منشأ ما زعموه تجربة ، فى طول مدة الحمل ، أنه كان من نساء ممتدات الطهر ، على قول الفقهاء ، لا تحضن ، فتظن المرأة نفسها حاملا زمنا طويلا ، لعدم الحيض ، وتحسب الزمن حسابا غير منضبط ، مع أن مدة الحمل الفعلية لم تجاوز القدر الذى يعرف أن العلم يعترف به فى ذلك وهو أحد عشر شهرا على أن زعمهم هذا عن أثر طول مدة الحمل فى انضاج الأجنة يجيب عن استنكار بعض الكاتبين العصريين ، حين قال قائلهم : عن هذا الزعم فى مدة الحمل من السنين : « ولا أدرى قيمة هذا فى فضل الرجل ؟! فانا قد سمعنا قول شعرائهم وناثريهم، فى بيان وجهة قولهم هذا فى فضل من تحمل به أمه أطول من مدة الحمل العادية ، ويمتد حمله الى سنين ؛ فهذا هو الفضل عندهم .. صوابا أو خطأ ..

والعلم هو صاحب الكلمة الحاسمة فى هذا ، واذا لم يصح زعمهم فقد عرفنا منشأ تناقلهم اياه ، الى حد افراد

ابن قتيبة له فى كتابه « المعـارف عنوانين ، أحدهما ؛ من حمل به أكثر من وقت الحمل ، وثانيهما : من قصر به عن وقت الحمل .

وقد يذكرنا هذا بما قال الفقهاء الاسلاميون ، بعـد الجاهليين . من طول مدة الحمل وجعلهم أقصاها سنتين ، أو أكثر ، فليس لهذا القول أساس من ملاحظة ، أو وجه من فضل فى الحمل . على ما سمعنا من العـرب فى هـذا الطول وأثره ، وانما يأخذ الفقهاء هذه المدد ، من نصوص يفهمونها ذلك الفهم الذى يجعل أكثر مدة الحمل سنتين أو غير ذلك ، ويثبتون بهذا نسب مواليد ، فى هذه المدة لآباء أحياء أو ماتوا ، مع عدم الاطمئنان العلمى الى هذا القول فى مدة الحمل ، وامكانها ؛ وتقرير أن ما زاد عن هذه الأشهر الأحد عشر انما هو حمل ميت ، لا تضـعه الحامل الا بعملية جراحية .

وحسبنا ذلك فى دعوى الحمل بمالك كذا من السنين ، وما لذلك — عندهم — من انضاج الرحم له وأنه جاز هذه المرحلة ، فى بيئة صالحة ، ظفر فيها — على رأيهم — بالنماء الكافى ، وخرج الى الدنيا بحال حسنة ، أهلته لاستقبال ما نؤرخه بعد ذلك ، من أدوار الحياة ، فى صحة عامة .

طفولة مالك

- الطفولة الأولى
- الطفولة الثانية

الفصل الثالث

طفولة مالك

متى استقبل هذا الوليد الحياة ، بعد سنى الحمل — على زعمهم — ؟ فكان تاريخ ميلاده عام كذا ؛ دون أن نطمع فى شهر .. أو فى أسبوع .. أو فى يوم لهذا المولد نعرفه .. ؟

لم يكن هذا الطفل ، ابن الأسرة المغمورة ، على رأسها صانع نبل ، مقعد ، بحيث يتثبت أحد من تاريخ ميلاده بين أطفالها ، وحينما عظم شأن هذا الابن — مالك — على الأيام ، وأريد معرفة تاريخ ميلاده اختلفت الروايات من سنة ٩٠ هـ الى سنة ٩٧ هـ ، وقيل ان الأشهر أن مولده سنة ٩٣ م ، وهو التاريخ الذى يذكر أنه سمع منه هو ، وهو كبير .. فان لم يكن هذا التحديد فهو وليد يوم .. فى شهر .. فى سنة .. من العقد العاشر .. من القرن الأول الهجرى .

وقد ولد الطفل مالك ، فى « ذى المروة » الذى ذكرنا

موقعــه قبل — ص ٤٤ — وأشرنا الى جمــال طبيعته ، ونستطيع اقتراض أن الطفل عاش طفولته فى هذا المكان ، وقد عرف أنه نزل العقيق ، قبل سكنى المدينة ، والعقيق ضاحية على بضعة أميال من المدينة ، وفى عقيق المدينة عيون ونخل ، بل العرب تقول لكل مسيل ماء شقة السـيل فى الأرض ، وأنهره ، ووسعه ، عقيق .. فهو بين ذى المروة والعقيق فى منزل ليس بجدب ، ولا جاف ، وبيئة مادية . أدنى الى الجمال ، ينشأ فيها ويدرج ، ذلك الطفل الذى وصفوه وصفا ، نأمل ألا يكون منقبيا ، فهو : أشقر ، واسع العينين ؛ وقد يميزه عظـم الرأس ، وكبر الأذنين ، فيما وصفوا ، وان بالغوا فى ذلك فقالوا — فيما بعد — لم ير أحسن صورة منه ، ولم ير بياض ولا حمرة أحسن من وجه مالك .

ولعل الطفل كان سليم البنية ، حسن الصحة ، فقد عمر طويلا ، واحتمل الكثير من مشاق الحياة ، وقسوة ظروفها فى صراع الطغيان ، الذى كان الحكم الفردى يستبيح فيه الأبشار والحرمات ، ويعتدى بالضرب ، على غير واحد من أولئك العلماء ، فى سبيل تأييـد ذلك السلطان المهـدد بالثورات السياسية ، المعتمدة على المقالات الدينيـة ،

والمطالبة بالعدل ، والحقوق الاجتماعية ، والحاجات الاقتصادية ، التى كانت تحرك الجماهير ، ويستغلها الثائرون دائما .. فيكون القلق الشائع ..

وكما هو الحال دائما ، تعوزنا الأخبار ، عن طفولة مالك وأمثاله ، الا ما نعثر عليه لماما وعرضا ، اذ كان التاريخ تاريخ الملوك والحكام لا تاريخ الشعوب والجماهير ، والتراجم حين تكتب لا تعنى بشىء من التحليل ، الكاشف عن عناصر الشخصية ، وعوامل تكوينها .

ولعل كل ما نستطيع تقريره هنا أن الطفل مالكا قد أمضى طفولته ، فى تلك الأسرة المتوسطة الحال ، التى تعيش من عمل الأب فى صناعة النبل ، ومن تجارة الأخ فى البز ، فى حياة من مثل هذا المستوى .

وربما كان الأب قليل الظهور والتأثير فى حياة الطفل ، وحياة الأسرة جميعا ، اذ نقرأ أن مالكا كان يدعى حينا من الزمن « مالكا أخا النضر » ؛ وتختلف الرواية فى أن النضر هذا أخو مالك أو هو عمه ، والأشهر أنه أخوه ، وهو بذلك أخ أكبر ، لا يستغرب فى العادة أن يأخذ مركز ذلك الأب المقعد ، فيرى الناس مالكا الطفل أو الغلام مع أخيه ، لأن

أباه بحكم قعوده قليل النشاط والظهور فى الخارج ، أمام الجمهور .

والأم بعاطفتها تمنح الطفل واخـوته عطفها ورعايتها ، حين يقوم الأخ الأكبر أو العم بشئونه الخارجية هو واخوته؛ وسنرى لرعاية هذه الأم أثرها فى وصيتها لولدها حين يبلغ سن الطلب ؟

وبين اخوة وأخوات ذكور واناث ورد ذكرهم عرضا ، قضى الطفل طفولته ، وان كنا لا نعرف كذلك عـدد هؤلاء الاخوة والأخوات ، ولا أحوالهم الاجتماعية ، والثقافية ، وأى بيئة معنوية كانوا لهذا الأخ ، الذى صار فيما بعـد عالما مرموقا ، واماما مشهورا ، لكن حدب أخته عليه فيما بعد وهو كبير ، واعدادها له طعـامه ، على ما سـيذكر ابنه ، يمكن أن ندرك منه أن الصلة بهذه الأخت كانت صلة حسنة ، منذ أول العمر ، كما أن اشتهار مالك باسم أخى النضر قد يدل نوعا ما ، على صلة لا بأس بها مع هذا الأخ ، وان كان لا يبعد أن يكون الأخ الأكبر الذى يتولى عن الأب سلطته فى الأسرة قد كان مرهوبا من الطفل أو مخوفا. ففى الأخبار أن مالكا كان بزازا مع أخيه هذا ، ينزل منه منزلة الصبى — تعبيرنا اليوم — لصاحب العمل أو التجارة .

وقد يمكن القول بأن الطفل كان يظفر بجو ملطف فى الأسرة ، لا يحرم فيه من بعض التدليل والملاطفة ، فقد روى أن مالكا كان وهو غلام يدعى « مويلكا » ونداؤه بهذا الإسم المصغر وهو غلام ، يؤذن بأنه كان يظفر بشىء من هذه المداعبة فى طفولته .

والطفل فى طفولته الأولى هذه يلعب ؛ ويبدو أنه كان مولعا بالطيور ، فقد روى فيما بعد أن أباه سأله يوما فى مسألة فأخطأ فيها ، فقال له أبوه : ألهتك الحمام .. ونفهم أن اللعب بالطيور كان معروفا أو شائعا فى المدينة ، أو لا أقل من أن يكون معروفا فى هذا البيت ، فسنرى فيما بعد أن ابن الامام مالك نفسه سيشكو هو منه ما شكاه أبو مالك من أمره فى اللعب بالحمام ، اذ يكون ابن الامام ، واسمه محمد أو يحيى ، يجىء وأبوه يحدث ويعلم فيدخل ويخرج ، على أبيه وتلامذته ، وعلى يده باشق — طائر صيد — وقد أرخى سراويله ، ولا يجلس ليتعلم شيئا .

وفى المدينة جو فنى لا نجهله ، ولا نحتاج الى التعريف الكثير به هنا ، فسنعرض لذلك فى مكانه بعد ؛ فهذا الجو الموسيقى لابد أن قد تلقت آذان الطفل منه أصداء وأصواتا ، مما يمتلىء به هذا الجو ، بل يزخر ، فكان لذلك أثره فى مزاج

الطفل وحسه الفنى ، حتى ليتجه الى الغناء ذلك الإتجاه الذى نقف عنده فيما يلى ؛ والذى يطمأن اليه أن الأنغام كانت حافة بالطفل حول البيت ان لم تكن فى البيت نفسه ، ومثل هذا مما لا يهمل أثره فى تلك الطفولة الأولى التى يقول النفسيون انها فترة تكوين الانسان فى كيان الطفل الصغير ، ترصدها قواه ، وتسجلها مشاعره ، ما يفلت منها شىء ، ولا يتبدد أثر مهما يكن خفيفا أو خفيا .

ذلك هو ما نستطيع الآن أن نتحدث به عن طفولة مالك الأولى ، حين يندر الخبر ، ويعز المرجع ، وهو على رغم ذلك كله شىء يهيىء لفهم شخصية مالك فى مراحل عمره التالية ، من طفولة ثانية وما يليها من غلامية وشباب .

* * *

فاذا كانت الطفولة الثانية — بعد الخمس السنوات الأولى — وقد صار « مالك » فيما تسميه اللغة « دارجا » قد دب ونما ، وفكر فى مستقبله الذين حوله من أم واعية ، وأخ أو اخوة أكبر منه ووالد له اهتمامه به ، وان كان مقعدا ؛ وقد روى — كما تقدم — أن أخاه الأكبر ، وربما كان هو المسمى « النضر » كان يبيع البز ، وكان مالك معه بزازا ، ثم طلب العلم ، فهل كان معه فترة من هذه الطفولة الثانية ،

على ما يظهر ؟ ربما ؛ وربما كان الذين حوله قد ترددوا
شيئا ما ، فى تعليم الصبى ؛ وان كان كما سنرى بعد فى حلقة
العلم ، وهو حدث ؛ والعلم اذ ذاك — كما سيتبين — كان
شيئا بعد التعليم الأول ، الذى يتم فى مكاتب أشبه بالمكاتب
التى كانت منتشرة فى مصر ، وفى سائر العالم الاسلامى ،
يتصدى فيها ناس لتعليم الصبيان القراءة وحفظ القرآن ،
سواء أكانوا يفعلون ذلك مجانا ، على أنه خدمة دينية
اجتماعية ، أو يأخذون عليه أجرا ، من نوع المعلوم البسيط
الذى كان حتى أول القرن الحالى ، هو ذلك المعلوم من
الخبز ؛ كما تحدث بذلك آثار أدبية قديمة تذكر عبث
الشعراء بالمعلمين واختلاف خبزهم من ذلك المعلوم الذى
يحمل اليهم ؛ فهذا « الحجاج بن يوسف الثقفى » وقد صار
له ذلك الشأن السياسى الكبير ، فى العصر الأموى ، الذى
عاش فيه مالك ، كان هذا الحجاج يسمى أولا « كليبا » ؛
وكان معلم صبيان بالطائف ، وكذلك كان أبوه يوسف من
قبله معلم صبيان ، وفى كليب يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليم سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهر

ونجرؤ على القول بأن « مالكا » دخل مكتبا من هذه

المكاتب ، وربما جرؤنا على تعيين ذلك المكتب وان لم نسمع فى ذلك خبرا ، ذلك أن فقيه مكتب يسمى « علقمة بن أبى علقمة المدنى » ، كانت أمه « مرجانة » مولاة لعائشة أم المؤمنين ، وهو من موالى التيميين ، الذين حالفهم جد « مالك » ووالاهم ، وكان له مكتب يعلم فيه أكثر من حفظ القرآن ، اذ كان يعلم العربية ، والنحو ، والعروض ، و « مالك » يعترف له بتلمذة اذ يروى عنه فى « الموطأ » ، فهل يكفى ذلك كله للاجتراء على احتساب « مالك » من تلامذة هذا المكتب ؟ ربما .. فقد يكون « مالك » تعلم القراءة وحفظ القرآن فى هذا المكتب ، أو فى مكتب آخر ، أقل منه أهمية ، لما فى مكتب علقمة من تعليم العربية ، وأشياء من علومها ، كالنحو والعروض ؟

وبعد حفظ القرآن يكون تجويده ، على ما هو المعروف ، من خطوات التعليم الدينى ، وهذا ما قد يسمى فى القديم — كما ظل يسمى عندنا الى عهد قريب — أخذ القراءة ، بأن يجود الطالب القرآن ، ويتلقى فيه قراءة بعينها ، من القراءات ، التى اختص كل اقليم اسلامى منها بواحدة ، فكانت قراءة حفص ، هى قراءة المصريين ، وكان نافع بن عبد الرحمن ، أحد القراء السبعة هو امام أهل المدينة ، الذى

صار المدنيون الى قراءته ؛ ويروى أن « مالكا » أخذ قراءته ، عن « أبى رويم نافع » المذكور ، بالطريقة التى يسمونها العرض ، بأن يقرأ الطالب والشيخ يسمع ، وهى طريقة تلقى القراءات ، حتى عهدنا .

وقد ذكروا أن « مالكا » قد أحسن ضبط حروف القرآن ، وأجاد أداءه ؛ وتلك مرحلة من التعليم ، يمكن القطع بأنهم كانوا يبدءون بها ؛ وأن قد مر بها « مالك » اما وحدها ، كما فى أغلب المكاتب واما مع شىء من علم العربية أو الدين ، يشدوه الطالب فى هذه المرحلة ؛ فلا أقل من أن يعلم الطفل ما يصحح به دينه من عقائد ، وعبادة كالصلاة ، التى يؤمر بها لسبع ، ويضرب عليها لعشر سنوات .. ومما يؤيد أخذ الصبى شيئا من العلم ، فى هذا العهد انهم كانوا يسألون الصبى البادىء فى الطلب أى بعد حفظ القرآن عن الفرائض ..

ويتضح رسم خطوات التعليم عندهم من خبر يقول : ان « ابن عيينة » مر على « الزهرى » وهو جالس عند باب الصفا ، فجلس بين يديه ، فقال : يا صبى ، قرأت القرآن ؟ قلت : بلى ؛ قال : تعلمت الفرائض ؟ . قلت : بلى . قال كتبت الحديث : قلت : بلى .

وعلى هذه المراحل مر تعليم « مالك » فيما يرجح ،
وقد اطمأننا الى أن « مالكا » مر بتلك المرحلة الأولى ، فى
مكتب ؛ وجود القرآن ؛ ثم هو — على هذا الترتيب —
يتقدم الى ما بعد ذلك .

الغلام مالكٌ

- بدء التعلم
- اتجاه الغلام

الفصل الرابع

الغلام مالك

وهو فى سن لا يد لنا بتحديدها المضبوط ، الا أنها — غالبا — بعد العاشرة ، وتهيىء الأخبار لشىء من التردد فى اتجاه الغلام ، وماذا يختار له من أنواع التعليم ، وهل تحدد اتجاهه هو واضحا أولا ؟ وماذا كان الاختيار له ؟ وكيف كان ؟

ويبدو أن للأم التى لم نعرف اسمها ، ولا شيئا ذا قيمة عن شخصيتها ، دورا كبيرا فى التوجيه ، وتحديد نوع المعرفة ، التى يتكمل بها هذا الغلام .

وفى متفرق الأخبار عن هذه الفترة ، وفيما وقع لنا من الأخبار عما بعدها أن الغلام كان له ميل فنى ، واتجاه واضح نحو الغناء بالذات ، وبيئة المدينة — كما أشرنا — خليقة بأن تحدث هذا التأثير ، وتبعث على رغبة فى الغناء ، يكون منها ما يروى على لسان مالك نفسه ، فى كهولته ، اذ يقول:

نشأت وأنا غلام فأعجبنى الأخـذ عن المغنين ؛ فقالت أمى : يابنى ان المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه ، فدع الغناء ، واطلب الفقه .. فتركت المغنين ، وتبعت الفقهاء فبلغ الله بى الى ما ترى ..

وربما كان قول أمه عن قبح وجهه رغبة منها فى ابعاده عن المغنين ؛ لأنا نسمع كثيرا ، بل كثيرا جـدا ، ما سبق ذكره ، من حسن وجه الغلام ، وشقرته ، وسـعة عينيه ، وبياضه ، وحمرته ، مما لم نخله من اشارة الى الخوف من أن يكون من منقبياتهم ، التى تلم وتجمع ، وتنسى نفسها حين تصف الرجال بالملاحة ، حتى تقول ، فى الأذان الدينى، الصلاة والسلام عليك يا مليح الوجه ، يارسول الله .

ونظل فيما نحن فيه ، من اتجاه الغلام « مالك » . الى الأخذ بأسباب النشاط ، فى مجال فنى أو غيره ؛ بعد الذى قيل من اتباعه المغنين أولا ، الى فترة لا نعرف مقدارها ، وان عرفنا — وسنعرف — أنها كانت مع سائر ظروف البيئة ذات أثر فى شخصية الرجل الامام الفقيه ، صاحب المزاج الفـنى .

وسواء أكانت فترة أتباع المغنين فترة عابرة ، أم فترة ظاهرة فانه اتجه بعدها لغير هذا الميدان الفنى ، الذى يبدو

أنه رغم رواجه كان ينظر اليه — ولا سيما من فئة المحافظين المتزمتين — على أنه شيء يسقط المروءة ؛ ولو كانت هذه النظرة الى الغناء وحده لهان الأمر ، لأن فيه القول فى الحل والحرمة ، وترديد أن المعازف حرام .. الخ . لكنا نجد فى هذا القرن الثانى الهجرى نفسه ، عصر حياة «مالك» هذه النظرة الساخطة الى الأدب ، شعره ، وأخباره ، فى خبر عن « الشافعى » اذ يسمعه كاتب لوالد صديق له ، يتمثل ببيت من الشعر ، فيقول له : أمثلك يذهب بمروءته ، فى هذا !! أين أنت من الفقه .. والشافعى نفسه رغم اتجاهه الى الفقه ، يقول — فيما يعزى اليه :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى

لكنت اليوم أشعر من جرير

ولعل هذه النظرة قد ظلت تبدو شزرة ساخطة ، فى البيئة الدينية ، منذ هذا الوقت المبكر ، الى ما بعد ذلك من قرون ، حتى أيامنا ، فقد أدركنا الأشياخ ، مع عدهم العربية بعلومها ، وأدبها من الوسائل للدراسة الدينية ، واعطائها الأهمية ، والطلب الدينى لها ، خدمة للحياة الدينية ، لا يزالون مع ذلك يسخرون من الأدب ودارسيه ويعدونه كلام انشا ، ويتبعونه ما يتصل بصناعة الكتابة ، كالصحافة،

اذ يعدونها ، من لهو الحديث ، ومضيعة الوقت ، فكانوا يقولون لمن يتعثر فى امتحانهم الشفوى للعالمية : قم اقرأ لك جرنال .. وقد دخل على قريب لى شيخ وأنا أشارف الانتهاء من الدراسة ، فى القضاء الشرعى ، وفى يدى جريدة ، فنظر الى فى سخط ، وقال : ماشاء الله . بتقرأ جرنال !! فلم تكن هذه النظرة لعصر متأخر ، فى القرن الثالث عشر الهجرى أو الرابع عشر بل كانت على ما ترى ، فى القرن الثانى ، وأيام رواج الحياة الأدبية ، بل فى عصر أدبى ذهبى ، ان صح هذا التعبير .

* * *

وفى اختيار الغلام « مالك » ما يتعلمه ، أو اختيار غيره له ، نجد النزعة الواضحة الى أن العلم للعمل ، أو لحاجة المجتمع ، أو ذلك الاتجاه أغلب مما عداه ؛ وهناك نص تاريخى ، من هذا العصر المتقدم ، بل أسبق من عصر مالك بنحو عقدين من السنين . ينسب الى « أبى حنيفة » — المولود سنة ٨٠ هـ — أنه لما أراد طلب العلم ، جعل يتخير العلوم ، ويسأل عن عواقبها ، وما يكون آخرها ، فكانت خلاصة الاجابة فى تقدير مستقبل المواد المعروفة فى ذلك العهد هى كما يلى : —

آخر تعلم القرآن ، اقراء الصبيان ، حتى يخرج فيهم من هو أحفظ منه فتذهب رياسته .

وآخر تعلم الحديث . اجتماع الأحداث عليه ، والصبيان كذلك ، ولا يأمن أن يغلط ، فيصير ذلك عارا عليه وعلى عقبه .

وآخر تعلم النحو : القعود معلما ، رزقه ديناران الى ثلاثة .

وآخر تعلم الشعر حتى ما يكون أحد أشعر منه ، أن يمدح من يعطيه ، ويهجو من يمنعه ، ويقذف المحصنات ..

وآخر تعلم علم الكلام ، الرمى بالزندقة فيقتل ، أو يؤخذ فيكون مذموما ..

وأما آخر تعلم الفقه فهو : أن يسأل ويفتى الناس ، ويطلب للقضاء ان كان شابا .

فكانت نتيجة هذا البحث كما يدونها الخبر هى أنه : ليس فى العلوم شىء أنفع من الفقه .. وكل هذا — كما ترى — فى جو كان العلم فيه ينصرف الى العلم الدينى ، قبل كل علم آخر .

وسواء أترك « مالك » اتباع المغنين ، وسمع لقول أمه ، فطلب الفقه ، أم لم يكن قد اتبع المغنين ، بل مال الى الفقه

بادىء ذى بدء . فقد كان يساير روح العصر ، الذى رأيت
نتيجة الاختبار فيه هى : أن ليس شىء من العلوم أنفع من
الفقه . وكان لأمه فى هذا البدء ما يكون للأمهات دائما ،
فى بدء هذا الدور الذى يجاوز فيه الابن دور الطفولة ،
ويأخذ أخذ الكبار ؟ وهو أن تلبسه وتهيئه لهذا التلقى ،
فى مدرسة أو مسجد ، أو ما يكون ، فلما قال « مالك »
لأمه سائلا : أذهب فأكتب العلم ؟ قالت : تعال فالبس ثياب
العلم ؛ فألبسته ثيابا مشمرة ، ووضعت قلنسوة طويلة على
رأسه ، وعممته فوقها ، ثم قالت : اذهب فاكتب الآن .
ولعلها منحته قبلة تعبر عن كل أمانيها لمستقبل العالم ؛ كما
يروى أنها منحته نصيحة ثمينة ، فقالت له بعد ما ألبسته :
اذهب الى ربيعة — تعنى ربيعة الرأى — فتعلم من أدبه
قبل علمه ، فكانت تقول من وراء هذا الماضى البعيد بلسان
كل أم طيبة ساذجة : الأدب — أى الخلق — فضلوه على
العلم .

وقد رئى مالك فى مجلس ربيعة هذا وهو حدث السن ،
يمكن ألا يكون قد جاوز العاشرة من سنه بكثير ، كما
اطمأننا قريبا ، لأنه رئى فى حلقته وعليه شنف — كالقرط
يعلق بأعلى الأذن — ، والى الآن نجد من يضع حلقة فى

أعلى أذن الطفل وذلك يكون غالبا فى سن طفولة صغيرة ؛ لكنا لا ننسى أن لهم تقليدا فى اسماع الصبيان المميزين الحديث من شيوخه قبل أن تكون فيهم صلاحية لتلقى الرواية ، اما للتبرك ، واما ليعرفوا أشياخا من المتقدمين فيكون لهم سند عال ، فيمكن أن تكون رؤية « مالك » فى حلقة ربيعة ، وعليه شنف ، من هذا النوع فى ترك الصبيان أول التمييز يغشون مجالس المحدثين .

وقد دخل « مالك الحلبة » وتهيأ — فى أى سن كان ذلك — للتكون العلمى .

الطالب مالك

- مكان الدراسة
- زمان الدراسة
- الأساتذة الأصليون
- ربيعة الرأي
- ابن هرمز
- الزهري
- نافع
- جعفر الصادق
- الأساتذة المساعدون
- ابن المنكدر
- ابن أذينة
- الأساتذة الزائرون
- الإجازة العلمية

الفصل الخامس

الطالب مالك

فى مهبط جبريل .. ومغنى محمد .: ومشرق النور .: ومبعث الرسالة .. ومشهد الأحداث .. ومجلى الذكريات.: ونفحة الأرض من السماء .. بين القبر والمنبر .. فى الروضة.: حيث غدا وراح صاحب الدعوة والدولة والدين ، سنين عددا ، يبلغ ما أنزل اليه ، ويبين للناس ما نزل اليهم ، يقول ليسمعوا ، ويفعل ليفعلوا كما رأوه يفعل ؛ وهذه البقعة طوال تلك العشرات من عقود السنين ، منذ صارت مسكن محمد وأسرته ، ومتعبده هو وصحابته ، ومنتدى شوراه وسياسته ، وأخيرا مرقده هو وخاصته ؛ ولها من معالم هذا العلم حظ لا تشركها فيه بقعة ، ولا تشابهها فيه منطقة ، فيها أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، وكان كخير ما يكون المسجد ، فى حياة الاسلام والمسلمين ، معبدا ، ومعهدا ، ومنتدى .

وفى هذا المكان أمضى الطالب مالك كل سنى تعلمه .. ثم تعليمه أيضا .. وهو واضح الشعور بميزتها

وامتيازها ، يجمع العلم من رجال فى الروضة ..
ويحدث على مسمع ومرأى من صاحب الحديث ، ويتجسم
له المثل ، ويلمس الشاهد ، ويتمثل الواقع تمثلا ، لا يد لأحد
به من ملايين المسلمين الا أن يحج الى هذه المواطن زائرا ،
أو مجاورا ، أيام كانت المدينة احدى معاقل الاسلام العلمية.

وفى هذا الجامع ، والجامعة لقى مالك أشياخا أجلاء ،
من أعلام المسلمين ،كلهم يحاول أن يؤدى هذه الأمانة ،
من قول الرسول ، وفعله ، وتقريره ليأخذ الناس من ذلك
أسلوب سلوكهم ومنطق عملهم .

ولو شئت أن أصور لك هذا الجامع العلمى ، أو هذا
المسجد الجامعى لوجدت فيما تنوقل عنه الى حياتنا حتى
عهد قريب صورة واضحة ، وبقية كاملة ، فى دراسة الأزهر
وأشباهه ، منذ جيلين أو ثلاثة أجيال على الأكثر .. فالخطة
هى الخطة ، والمنهج هو المنهج ، الا فرق ما بين الروح
العامة ، من حيث طلاقة الفكر المجتهد ، البانى ،
ووقوف الفكر المقلد الراكد ، يحتفظ من التراث
بهيكله ورسمه ، لا بروحه ووعيه .. وعلى غرار هذه
المشابهة الظاهرة أحدثك عن نظم دراسة الطالب «مالك» ،
وموادها ، واختباراتها ، واجازاتها .

فمكان الدراسة : هو المسجد أصلا .. يعرف فيه للشيخ مكان يعتاد القاء دروسه فيه ؛ وقد يكون الدرس فى منزل الشيخ ومأواه . لأن الطلبة فى ذلك الحين مريدون ، ينزل الأساتذة منهم منزل الرائد فى الطريق ، أو المسلك كما يقول الصوفية ، فليس بينهم وبين طلابهم المريدين حجاب ؛ وسنرى « مالكا » يقصد بيوت أشياخه ، طالبا ، كما سنراه بعد يقصد طلابه بيته ، ويستضيفهم ، ويقوم على خدمتهم ، فى تواضع ، ورحابة صدر .

وزمان الدراسة : هو الوقت الذى يفضله الشيخ ، فيجلس نافع من أشياخ مالك مثلا بعد الصبح ، ويجلس غيره فى غير هذا الوقت ، كما كانت الدراسة فى الأزهر الأول ، تبدأ بعد صلاة الصبح ، وتكون بين المغرب والعشاء ؛ وقد يأتى الطالب « مالك » شيخه « نافعا » هذا وما تظله الشجر من الشمس . كما نراه يأتى « ابن هرمز » من بكرة ، فما يخرج من بيته ، حتى الليل ، وكما نراه يزاحم على باب « ابن شهاب الزهرى » وكان وزملاؤه يزدحمون على درج سلم بابه ، وكانت لبابه عتبة حسنة ، يجلس عليها « مالك » ورفاقه ، ويتدافعون اذا دخلوا على « الشيخ » حتى يسقط بعضهم على بعض ؛ كما نرى « مالكا » يحاول

الانفراد بشيخه « ابن شهاب » هذا يوم العيد نفسه ، فيقول : شهدت العيد ، فقلت : هذا اليوم يخلو فيه « ابن شهاب » . فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه ، فسمعته يقول لجاريته : انظرى من على الباب : فنظرت ، فسمعتها تقول : مولاك الأشقر « مالك » قال : أدخليه ، فدخلت ، فقال : ما أراك انصرفت بعد الى منزلك، قلت : لا ؛ قال : هل أكلت شيئا ؟ قلت : لا ، قال : فاطعم ، قلت لا حاجة لى فيه ، قال : فما تريد ؟ ؛ قلت تحدثنى سبعة عشر حديثا .. الى آخر الخبر الدال على نوع العلاقة بين الأساتذة والطلاب ، ونوع معاملتهم لهم ؛ والدال كذلك على حرص مالك على فرص لقاء الأشياخ ، وتلطفه لذلك أو احتياله له حتى يجعل فى كمه تمرا يعطيه صبيان « ابن هرمز » ليقولوا لمن يسأل عنه : ان الشيخ مشغول ؛ ويفهم من هذا أنه يريد اطالة وقته مع الشيخ ، والانفراد به؛ فقد روى : أنه كان يأتى « ابن هرمز » من بكرة ، فما يخرج من بيته ، حتى الليل كما قدمنا ..

وما يعنينا من كثير هذه الأخبار السابقة ، عن أوقات لقاء الطلاب لأساتذتهم الا الدلالة الاجتماعية والتاريخية لهذه الأخبار ، فانما نسوق ترجمة « لمالك » بما فى تلك

الترجمة من تجارب حيوية ... وهذه الأخبار تشير الى شيء من موضع العلة فى حياتنا التعليمية . بفقد مثل هذه العلاقة بين الطلاب وأساتذتهم .

تم ما فى الدلالة التاريخية لهذه الأخبار من رسم الصورة التى كان يجرى عليها اختيار الطلاب لأساتذتهم ، وتوزيع وقتهم معهم وبينهم ؛ وبهذا الاختيار تتأسس تلك العلاقة التى رأيناها بين الطلاب والأساتذة لأنهم ليسوا أساتذة الجدول والحجرة ، وأصحاب كرسى المادة ؛ وانما هم أساتذة معرفة الطلاب ، وحرصهم ، وشعورهم التقديرى نحوهم .. ومن هذا نشعر أن أساتذة تلك الجامعة المسجدية لم يكونوا أساتذة وظيفة ، بل كانوا فى تاريخ عصرهم أساتذة من يفيد منهم ، ويتلقى عنهم ، ويعرف لهم عليه مشيخة ، ويحسبهم فيمن أخذ عنهم وروى .

وهكذا نشعر أن الصورة الصحيحة لحياة « مالك » العلمية ، ثم لشخصيته ، فى علمه ، وسلوكه ، ومزاجه انما يتم رسمها الصحيح بالحديث عن أولئك الأساتذة الأشياخ، الذين اختارهم واختصهم ، وعرف له بهم وثيق صلة ، أثرت فيه ولذا نعرّف فى اجمال تام بهم ، ونرسم الخطوط الكبرى، من معارفهم العلمية ، وقسماتهم الخلقية ، ليدلنا ذلك على

مسارب التأثير فى « مالك » ، ولتقدم فى الوقت نفسه تجارب حيوية ، من علم هؤلاء الأشياخ وأخلاقهم ، قد تفيد منها حياتنا العلمية والخلقية ، الفائدة التى ترجى من كل سنة صالحة ، وتجربة رشيدة .

* * *

فمن أوائل أساتذته :

ربيعة الرأى : بن أبى عبد الرحمن فروخ المدينى — المتوفى سنة ١٣٠ أو ١٣٦ هـ — مولى آل المنكدر التيمى ؛ فولاؤه فى تيم ، الذين حالفهم جد « مالك » ، وهذه صلة مّا بالأستاذ قد تدخل فى تقديره ؛ وتفسر ايثار أم مالك له حين ألبسته ثياب العلم ، على ما سبق ، وقالت له : اذهب الى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه .

وربيعة هذا يضاف اسمه الى « الرأى » على معنى أنه صاحب رأى ، فى مشكلات الأمور ، كما سمعت تلك الاضافة فى « المغيرة بن شعبة » فقيل له « مغيرة الرأى » اذ كان من دهاة العرب ، لا يقع فى أمر الا وجد له مخرجا ، ولا يلتبس عليه أمران الا ظهر له الرأى فى أحدهما ؛ وهذا أقرب من أن تكون اضافة ربيعة الى الرأى بمعنى القياس الفقهى ، الذى لم يظهر بعد الظهور الكافى .

والذى يقال : أن ربيعة بن فروخ هذا كان أول الدهر صاحب عبادة ، ثم نزع عن ذلك ، الى أن جالس القوم ، فنطق بلب ، وعقل سديد ، وفطنة ؛ وعدوه صاحب معضلاتهم ؛ وهذا فيما يبدو أصل اضافته الى الرأى ، فهذا التفكير السديد العاقل معنى فى « ربيعة » ظاهر ؛ كما أن له ذوقا ومزاجا جرى الكلام عنه ، اذ يلبس الأقمصة الرقيقة ، كما يقول « مالك » ، حين لبس مثلها : ما أدركت أحدا يلبس هذه الثياب الرقاق ، وانما كانوا يلبسون الصفاق الا « ربيعة » فانه كان يلبس مثل هذا ؛ ويشير الى قميصه الرقيق .

وقد أخذ عنه « مالك » الفقه ، بمعناه فى ذلك الوقت ، وروى عنه أنه قال : ذهبت حلاوة الفقه منذ مات « ربيعة »؛ وأخذ عنه أحاديث كذلك لم يزد عددها فى « الموطأ » عن اثنى عشر مرويا ، ما بين مسند ، ومرسل ؛ وبلاغ ؛ وربيعة أحد من يريده « مالك » اذا قال فى موطئه : على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا ؛ والأمر عندنا كذا .

وبدأت صلة « مالك » به مبكرة ، اذ رئى فى حلقة « ربيعة » وعليه شنف — كما تقدم — وظل متصلا به حين قعد للتدريس ، وكان بينه وبينه اذ ذاك أشياء ، من استفادة

منه أو مخالفة عليه . وكل أولئك يبين أثر « ربيعة » فى حياة مالك العلمية وغيرها .

ومن أساتذته الذين طال اتصاله بهم :

ابن هرمز : أبو بكر بن يزيد المتوفى سنة ١٤٨ هـ — ويعرف بالأصم — وكان شديد الصمم — وهو كذلك من الموالى، ويظن أنه فارسى ، وفى اسمه شىء من دلالة على ذلك .

وتحسن الاشارة هنا الى اشتباه ، وقع فيه غير واحد من القدامى ، بين « ابن هرمز » الفقيه هذا ؛ «وابن هرمز» غيره نحوى ، مع ما بينهما من فروق عـــدة ، لا بأس بأن نوردها هنا :

فالمحدث شيخ « مالك » هذا اسمه « عبد الله » فى أكثر ما وصلنا من الروايات ، أو « أبو عبد الله » فى الأقـــل ؛ والآخر النحوى اسمه « عبد الرحمن » .

والفقيه المحدث كنيته « أبو بكر » والنحوى كنيته « أبو داود » .

والفقيه جده هرمز ، واليه ينسب اختصـــارا ، وأما النحوى فهرمز أبوه الوالد .

ويتميز ابنـــا هرمز بعاهات تختلف كذلك فالنحـــوى « ابن هرمز الأعرج » والفقيه « ابن هرمز الأصم » .

والنحوى الأعرج هو الذى خــرج الى الاسكندرية ومات بها ، وفيها مسجد يعرف باسمه الى اليــوم . وأما الفقيه شيخ « مالك » فلزم المدينة وبها مات .

ويعد « ابن هرمز » هذا من فقهاء المدينة ، بين الطبقة التالية لفقهائها السبعة المشهورين ، وهم ســبعة نفر من التابعين يجيئون بعد فقهاء الصحابة مباشرة ، وتلى الفقهاء السبعة طبقة من الفقهاء ، نجد بينها من شيوخ « مالك » « نافعا » الذى سيأتى ذكره ؛ و « ابن هرمز » هذا ؛ كما نجد من تلك الطبقة أشياخا آخرين لمالك مثل « ابن شهاب الزهرى » وسنتحدث عنه .

ويشهد الفقهاء « لابن هرمز » بخير حتى ليميزونه على جميع من عداه ، فى مثل قول « سليمان بن بلال المدنى » ، « لربيعة » : رأيت العلماء والناس ؟ فيقول له « ربيعة » : ما رأيت عالما قط بعينك الا ذاك الأصم « ابن هرمز » ؛ وقد قالوا : ان « مالكا » اذا قال : على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا والأمر عندنا كذا ، فانه يريد ربيعة وابن هرمز ، فابن هرمز من أهل العلم بالمدينة الذين يعرف بهم الأمر ، فى الفعل والترك ، والتحريم والتحليل .

ثم يقول « مالك » عن « ابن هرمز » انه كان من أعلم

الناس بالرد على أهل الأهواء ، وبما اختلف فيه الناس ، من هذه االأهواء ، وانه كان يسد على أهل الأهواء .. فهو مع الفقه عالم فى علم الكلام .

وأما علم الحديث بخاصة فلا يبدو أن مالكا قد أثبت منه فى موطئه شيئا عن ابن « هرمز » هذا ، ولذلك سبب لعله يرجع الى ظاهرة عرفت عندهم ، فى هذا القرن الثانى ، عصر مالك ، وهى : أن يكون الرجل من كبار الفقهاء وهو مع ذلك متروك الحديث ، وقد سموا فى هذا العهد غير واحد ، ما بين فقيه من كبار الفقهاء ، أو قاض ولى القضاء فى مدينة كبرى ، أو عاصمة .. ثم هو مع ذلك متروك الحديث ، ضعيف فيه .. فيكون « ابن هرمز » فقيها ومتكلما ، وان لم يكن مع ذلك محدثا بالمعنى الأخص .

على أن فى شخصية « ابن هرمز » معانى اجتماعية كبرى ، يؤثر بها العالم فى الحياة حوله أثرا أقوى وأبعد من تأثيره بعلمه ، وقل من رأينا فى هؤلاء الأشياخ بخاصة ، فى زماننا من له من قوة الشخصية ووضوح المثل ما يذكر ، وهذه القلة التى رأيناها كانت أجدى على حياة العلم ، وحياة الشيوخ ، من كثيرين فيهم قد حفظوا شيئا أو حصلوا مادة علمية ، ثم لم تكن لهم مع هذا شخصية تذكر !!

والمعنى الخلقى الأول فى « ابن هرمز » يعود على الحياة العلمية نفسها بكثير من الدقة وسلامة المنهج ، وحسن تقدير المسئولية والأمانة العلمية . وعدم التهجم على الاجابة فيما لا يحسن الشخص معرفته . وكبح النفس عن العجب، وحب الرياسة ايثارا للحقيقة ، وميلا الى التلقى بالتوقيف الصحيح ، وهى خلال — كما ترى — تعوز أشخاصا فى عصرنا ، يقفون فى مكان التأثير والعدوى ، وهم مع ذلك ممن أخذ العلم عن الصحف ، ولم يصح لهم منهج ، ولا وجهتهم مشيخة ، بل تشيخوا بالطريقة ، التى كان القدماء يسمونها « تشيخ الصحيفة » وكانوا يعدونها بلية على العلم ورزية ..

وهذا المعنى فى « ابن هرمز » هو حرصه على أن يؤصل أصلا قويا فى خلق العالم ، هو : أن يورث جلساءه قول لا أدرى ، حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون اليه ، فاذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال لا أدرى ..

وكذلك نرى مالكا ، فيما بعد حين تصدر يقول « لا أدرى » أو لا « أحسن » أو « حتى أنظر » واشتهر الخبر بأنه سئل فى أربعين مسألة ، فقال فى كثير منها لا أدرى ..

ولقد يلفت النظر حقا ما نجده فى هذا الصدر الأول ، وهو عهد أكثر حرية وحيوية ، من نقل القول « بلا أدرى » عن رجال لهم من المركز والمقام ما يدعو مثله ، أو أقل منه ، الى الاستنكاف من قول : « لا أدرى » ؛ فعمر بن الخطاب مثلا ابتلى بأشياء سئل عنها فلم يجب ؛ وابنه « عبد الله بن عمر » قال : لا أدرى ؛ و « عبــد الله بن الزبير » قال : لا أدري و « عبد الله بن عباس » قد ينسب اليه أنه قال : اذا أخطأ العالم « لا أدرى » أصيبت مقاتله .

ومن خير ما بقى من آثار ذلك ، فى كتب الأقدمين ، بعد هذا العهد بقرون أنهم يجعلون وجود « لا أدرى » أساسا فى تحديد تعريفاتهم ، وبيان المراد فيها ، ففى تعريفهم الفقه مثلا بأنه : العلم بالأحكام الشرعية .. الخ . يقول قائلهم : « واعلم أنه لا يراد بالأحكام الكل ، لأن الحوادث لا تكاد تتناهى ، ولا ضابط يجمع أحكامها ؛ ولا يراد كل واحــد لوجود لا أدرى — فيقدرون فى مثل هذه العبارة واقعية التطور والتجدد الذي لا تتناهى معه الأحكام ، ويقدرون فيما وقع فعلا وجــود لا أدرى ؛ وأنها وقعت وتقــع من العالمين » .

هذا هو المعنى الأول ، من المعانى الخلقية الاجتماعية ،

فى شخصية « ابن هرمز » وهو معنى جدير بالوقوف عنده، حينما تتجه عنايتى فى هذه الترجمة بالتجارب الحيوية ، كما عنونت لها بذلك ، شعورا منى بأننا فى حاجة ماسة الى هذا الشعور نحو الحقيقة ، وهـذا الأساس فى الخلقيـة العلمية ، التى تحترم الحقيقة ، ولا تراها أقل حـرمة من العزة الشخصية ، والاعتـداد بالسمعة الفـردية ، حتى لا يستنكف المشتغل بالعلم — مهما يكن مركزه — من أن يقول « لا أدرى » .

والمعنى الثانى من المعـانى الخلقية الاجتمـاعية ، فى شخصية « ابن هرمز » شيخ مالك ، هو : الشعور بالواجب الاجتماعى للعالم ، ومسئوليته أمام ضميره ، وأمام التاريخ، عن الحياة العامة ، وعدم سكوته عن خطأ فيها من الحاكم أو انحراف .. وهو شعور يبدو من قليل ما نقل عن « ابن هرمز » أنه كان شعورا منه عميقا أصيلا فى نفسه يؤرقه ويؤلمه ، حتى يبكيه ، فيقول « مالك » الطالب : كنت آتى « ابن هرمز » فيأمر الجارية فتغلق الباب ، وترخى الستر ، ثم يذكر أول هذه الأمة ، ثم يبكى حتى تخضل لحيته .

ولم يكن هذا الشعور من « ابن هرمز » سلبيا ينفس عنه بهذا البكاء الذى يبل لحيته ، بل كان شعورا ايجابيا .

يدعوه الى انكار المنكر على الأفراد ، والحكام ، واحتمال المكروه فى سبيل ذلك ؛ فهو فى الطريق بالمدينة يرى رجلا من الوجوه واقفـا أمام داره مع جارية له فى منظـر غير مؤدب ، فيعترض عليه وينهاه ، ويغضب السرى لذلك ، ويعتدى على الشيخ ، حتى يرض أضلاعه .

وهو مع الحكومات يخرج على الظلم ، وهو شـيخ هِمٌ فيثور مـع « محمد بن عبد الله » المعروف بالشبه ، لشبهه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين خرج على المنصور بالمدينة ، ويقدر أثر عمله فى الناس ، فحين يقال له : والله ما فيك شيء ؛ يقول : ولكن يرانى جاهل فيقتدى بى ..

وبعد هزيمة محمد الشبه أتى بابن « هرمز » الى قائد جيش « المنصور » ، فلم يزل ، ولم يعتذر اعتذار الضعاف ؛ بل قال له قائد المنصور : ياشيخ أما وزعك فقهك عن الخروج ، فقال « ابن هرمز » كانت فتنة شملت النـاس فشملتنا .. تلك هى خلة « ابن هرمز » فى الشعور بالواجب الاجتماعى، وتقديم المثل للنـاس ، بالاشتراك فى المعـركة مع السن والضعف .. وصاحب هذا الشعور هو الجـدير حقا بأن يبكى حتى تخضل لحيته ، حين يذكر سلف أمته ، وحال خلفهم بعدهم ، فى فسادهم .

ويبدو أن عناية « ابن هرمز » بالرد على الأهـواء ، وجده فى ذلك ، على ما قيل ، وأنه كان يسد على أهـل الأهواء انما كان ذلك كله منه صـدى لشـعوره الحى بالواجب الاجتماعى ، وخشيته من خطر تلك الأهواء والبدع على المجتمع الذى يعيش فيه ، ويشعر بواجبه نحوه ، ذلك الشعور الحى ، الذى نرجوه اليوم لكل ذى علم فى مجتمعنا، ولا سيما أصحاب العلم الدينى ، الذين كان « ابن هرمز » فى سلفهم مثلا صالحا ، وأسوة حسنة حقا .

ويلفت النظر أن الطالب « مالكا » صحب « ابن هرمز » مدة طويلة ، بل طويلة جدا . اذ قالوا انه انقطع له ثمانى سنين ، لم يخلطه بغيره ، كما قالوا : ان « مالكا » جالس « ابن هرمز » ثلاث عشرة سنة ؛ أو أقام خمس عشرة سنة يغدو من منزله الى منزل « ابن هرمز » ويقيم عنده الى صلاة الظهر ، مع ملازمته لغيره ؛ أو أنه جالسه ست عشرة سنة ؛ بل قد تصل هذه المدة بالاشارة الى ثلاثين سنة . وذلك فى قول « مالك » ان كان الرجل ليختلف للرجـل ثلاثين سنة ، يتعلم منه .. فكان تلامذة « مالك » يظنون أنه يريد نفسه مع « ابن هـرمز » واذا ما كان الأمر كذلك فان « مالكا » ظل دائم الاتصال بهذا الشيخ من أساتذته بعد

ما كبر ، وتصدر للفتيا . وجلس للتدريس فكان فى ذلك من حسنات القوم ، فى الاستمرار على طلب العلم ، وهو يدرس ويفتى ، كالذى يروى من أن « سفيان بن عيينة » كان يجلس فى حلقة « مالك » يسمع الحلال والحرام ، والحديث المعمول به ، ولا يتكلم بحرف ، واذا خرج حلق لنفسه حلقة .. ولا غرابة فى أن تكون تلك سنتهم وقد سمعوا الأمر بطلب العلم من المهد الى اللحد .. وليت لنا اليوم من هذه السنة حظ جزيل .

ومعاشرة « مالك » « لابن هرمز » تلك المدة الطويلة مما كنا نرجو معه أن يقفو الشيخ آثار أستاذه فى قوة شعوره الاجتماعى ، وهو ما سنعرض للكلام فيه ، حينما نحدث عن شخصية « مالك » من جوانبها المختلفة .

وممن زاحم « مالك » على بابه :

ابن شهاب الزهرى : أبو بكر ، محمد بن مسلم المدنى، من زهرة بن كلاب ، من قريش — توفى سنة ١٢٣ هـ أو ١٢٤ أو ١٢٥ — وهو الذى يعد رأس المدونين فى الحديث وواضع علم الحديث رواية — على رأى — ويلقب أعلم الحفاظ ، حتى وسعه أن يقول عن نفسه : ما صبر أحد على العلم صبرى ، ولا نشره أحد نشرى .. مع أنه كان — على

ما يقال — أعمش ، أى ضعيف البصر ، مع سيلان الدمع فى أكثر الأوقات !

ومع نشاطه فى الحديث يعد من فقهاء المدينة من طبقة « ابن هرمز » واخوانه .. وله بعد ذلك ثقافة أدبية واسعة ، حتى لقد قيل : ان حدث عن العـرب والأنساب قلت ، لا يحسن الا هذا ، وان حدث عن القرآن فكذلك ، .

ونذكر شخصيات هؤلاء الأساتذة بما هم معالم للحياة، فى عصرهم ، على صور مختلفة من العلم أو العمل ، ولذلك نحرص على عرض صورهم النفسـية والخلقية ، فنجـد « ابن شهاب » هذا صاحب حظوة عند خلفاء الأمويين ، فلم يزل مع « عبد الملك بن مروان » ؛ ثم مع « هشام بن عبد الملك » ، كما ولى القضاء « ليزيد » ؛ ولهذه الحظوة كان مقامه بالشام كثيرا ؛ ولما قدم المدينة كان « مالك » يزدحم مع الطلاب على بابه ، على نحو ما وصـفنا ذلك قريبا — ص ٧٥ ، ٧٦ — . ومن لازم هذه الصلة والحظوة أن يصله أولئك الخلفاء ، ويقضون دينه ، حتى أدى هشام عنه فى مرة واحدة سبعة آلاف دينار .. وكان الشيخ يعاب بالاستدانة فى مواجهته .. وقالوا . بجانب ذلك : انه كان من أسخى الناس لم يكن الدينار والدرهم أهون عند أحد

منه عند الزهرى .. وهى تصرفات لها أثرها — الى حد ما — على طلابهم

***

ومن الأساتذة الذين قويت صلة « مالك » بهم :

نافع بن سرجس : أبو عبد الله الديلمى ، مولى « عبد الله ابن عمر » — المتوفى سنة ١١٧ أو ١٢٠ هـ — خدم مولاه « ابن عمر » ثلاثين سنة ؛ وكف بصره أخيرا ؛ وكانت فيه لكنة ؛ .

وهو يوصف بفقيه المدينة ، ويعده « ابن حزم » من أهل الفتيا ، وقد نقل عن « ابن عمر » مولاه علما كثيرا ، وعد محدثا ثقة ، حتى لقد يلقب بالامام العلم . وقالوا — فيما قالوا — : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ؛ وحين يتصل الشافعى بهذه السلسلة تسمى سلسلة الذهب .. ولهم فى أصح الأسانيد أقوال كثيرة ، فى صور مختلفة .

ولنافع بمصر صلة خاصة ، اذ بعثه اليها الخليفة الأموى « عمر بن عبد العزيز » ليعلم أهلها السنن .. وصلة «مالك» « بنافع » هذا صلة قويت بمظاهر مختلفة ، فقد لازمه ملازمة خاصة حريصة ؛ وسمعنا قريبا — ص ٧٦ — أنه كان يأتيه وما تظله الشجر من الشمس ؛ وكان يترصد دخوله

وخروجه ليسأله .. وكان اتصاله به مبكرا ، اذ يقول : كنت آتى « نافعا » مولى ابن عمر ، وأنا يومئذ غلام ، ومعى غلام لى ، فينزل الىّ من درجة له .. وحين صار « نافع » كفيفا كان « مالك » يقوده ، من منزله بالبقيع الى المسجد النبوى فيسأله ويحدثه ..

وكان « لمالك » تقدير طيب « لنافع » يمثله قوله : كنت اذا سمعت حديث « نافع » عن « ابن عمر » لا أبالى ألا أسمعه من أحد غيره . وأورد له « مالك » فى موطئه ثمانين حديثا أو أكثر — على الخلاف فى عدها ..

وفيما نحاوله من حديث عن شخصيات أولئك الأساتذة تسمع أن « نافعا » هذا — على رغم ما سمعنا من جلالة مركزه ، وصحة سنده .. الخ ، كان يجلس بعد الصبح فى المسجد النبوى ، فلا يكاد يأتيه أحد ، فاذا طلعت الشمس قام . كما كان لا يفتى فى حياة « سالم » ابن مولاه « عبد الله ابن عمر » .. يأتيه « الزهرى » فيحدثه « نافع » عن « ابن عمر » ثم يذهب « الزهرى » بعد ذلك الى « سالم » ابن عبد الله بن عمر فيقول : سمعت هذا من أبيك ؟ فيقول له : نعم فيحدث « الزهرى » عن « سالم » ويدع « نافعا »، مع أن السياق من عند « نافع » .

ومن قولهم عن « نافع » هذا : كان لا يكلم أحدا ، كما يقولون عنه : كان صغير النفس ، فلا أجد التحديد الكامل لمرادهم بصغر النفس ، وهل هو كالذى نريده اليوم من هذا الاستعمال أو قريب منه ؟ أو هو معنى آخر ؟ .

ومن كل أولئك يبدو أن هذه الأوصاف المجتمعة من : لكنة ، وانفضاض طلبة ، وعزلة ، وصغر نفس ، وهوان تقدير ، لا تتفق مع ما يردد عنه من الوصف بالحفظ والامامة ، وذهبية السلسلة التى هو من حلقات سندها ، والتلقيب بالامام العلم !! ولا تعطينا جملة ذلك على كل حال صورة من القدوة الحسنة للتلاميذ .

وممن اشتهر من أساتذة الجامعة النبوية بالمدينة ، وكان لمالك بهم اتصال زمنا غير قصير : —

جعفر الصادق : بن محمد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب — المتوفى سنة ١٤٨ هـ — ونحن منه أمام شخصية لها مركزها الخاص ، بما لجعفر من حيث هو أحد الأئمة الاثنى عشر ، على مذهب الشيعة الامامية ، وأنه من سادات أهل البيت ، الذين ترنو اليهم الأبصار ، فى هذا الوقت الذى ينازع فيه العلويون أصحاب السلطان من الأمويين أولا ، ثم من العباسيين حينما صارت الدعوة اليهم ،

وجاوزت آل أبى طالب ، فللاتصال به معنى اعتقـادى ، ومعنى سياسى كذلك نلمح منه هنا فقط هدوء نظرة العصر الى التشيع ، وعدم التحرج اذ ذاك من الأخذ والرواية عن علماء الشيعة ؛ فيحملون الحديث عن وجوه الشـيعة ؛ ويخرج الأئمة لمن هو غال فى التشيع ، قد يقال فيه انه مذموم المذهب ، لكنهم مع ذلك يقولون عنه : انه ثقـة معروف ؛ ويوثقه رجال الجرح والتعديل الكبار ، مع اشتهار صفته فى التشيع ، واشتهار مغالاته فيه ، وهى نظرة تختلف اختلافا كبيرا عما صار اليه الأمر أخيرا من فرقة ومحادة تجعل الشيعة يعتبرون أهل السنة عامة ؛ وأهل السنة يعدون الشيعة من أصحاب الهوى ؛ بل يزيد فيه الأمر عنفا ، حتى يكون الاختلاف المتقاتل ، بين أصحاب المذاهب العمليـة الفقهية ، من الحنابلة وغيرهم .

وشخصية « جعفر الصادق » تضفى عليها منقبيات الشيعة ، بتعصبها المذهبى ، مع الغيبية المنقبية المعتـادة صفات من العلم بالأشياء الغائبة والنادرة ، مما هو من أثر رأيهم فى صفة الامام عندهم ؛ فالصادق له حظه من عـلم الدين ؛ وينسب اليه مع ذلك كلام فى صنعة الكيمياء — التى كانت الفكرة الكبرى فيهـا اذ ذاك هى الوصـول الى

الاكسير الذى يحول المعادن الوضيعة ذهبا ؛ ويبلغ الأمر فى كيميائية الصادق ، الى أن يكون « جابر بن حيان » الصوفى الطرسوسى ، رأس صنعة الكيمياء فى الاسـلام ، انما هو تلميذ لجعفر الصادق ، العابد العالم ؛ ويزيد الأمر بعد ذلك ، الى حد القول بأن التلميذ جابرا وضع كتابا ، يشتمل على ألف ورقة ، جمع فيها خمسمائة رسالة لأستاذه جعفـر ..

وللصـادق مع ذلك كلام فى الزجر والفـأل ؛ وليس هذا فحسب ، بل تنسب اليه الشيعة كتاب « الجفر » الذى فيه كل ما يحتاجون اليه حتى يوم القيامة ؛ وكان بالغرب يتوارثه بنو عبد المؤمن ... وهى صورة — كما ترى — مهزوزة لا يتضح ، ولا يسهل على المؤرخ رؤيتها ، وهو يقدر ما فى هذه الأوصاف من تزيد مسرف .

ومهما يكن القول فى هـذه الاضفاءات على شخصية الصادق فانه ليبقى بعد استبعـادها كلها قدر من العـلم والعبادة ، مع منزلة بين الأئمة الاثنى عشر ، ومع دين ، وتقوى ، وسلوك عمـلى ، وذلك كله كاف لأن يجعـل للصادق ، وللاتصال بالصادق لونا خاصا فى فهم الحياة ، وتفسير الأحداث ، ومعرفة خفايا من ذلك ، وراء شخصية

هذا الامام الشيعى ، مهما يكن له من مناسبات وارتباطات تخفف من شيعته ، وما تشعر به من وقوف فى الطرف المقابل لأهل السنة ، من أمر الخلافة وميزات بيت النبوة ... الخ .
وتلك الارتباطات التى نشير اليها هى : أن أم هذا الصادق الامام الاثنى عشرى انما هى « أم فروة » بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، أى أن « أبا بكر الصديق » — وهو عند الشيعة من هو — يكون أبا جد الصادق لأمه كما أن جدته لأمه انما هى : « أسماء » بنت « عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق » أى أن أبا بكر الصديق يكون جد جدة الصادق لأمه ؛ ولهذا كان يقول ، ولدنى « أبو بكر » مرتين ؛ ومن يفخر بولادة أبى بكر ، بل من يذكر هذه الولادة من أبى بكر ، الذى يقول الشيعة: انه أول من ذهب بحق على فى الخلافة ، يكون لتشيعه جو غير جو التشيع العادى وهذا المعنى جدير بأن يكمل ويعلل المعنى الذى أشرنا اليه قريبا . عن النظرة الهادئة ، غير الحادة الى التشيع فى هذا العصر ، حتى تقبل رواية الغالى فى التشيع ، ويوثقه الباحثون فى شئون الرواة ؛ وان كان « جعفر » نفسه لم يسلم عند نقاد الحديث ، فالبخارى لم يحتج به ، وقال « يحيى بن سعيد » : فى نفسى منه شىء .

وقد أخذ « مالك » من علم جعفر ، وأخرج له فى موطئه تسعة أحاديث ، منها خمسة متصلة مسندة أصلها حديث واحد ؛ والأربعة منقطعة ؛ وان كان اتصال مالك العلمى ؛ قد حددته الظروف السياسية ، أو ما يحسبه « مالك » من هذه الظروف ، ولو أنه أضعف مما يظن ، وذلك أنهم ذكروا : أن « مالكا » لم يرو عن « جعفر » حتى ظهر أمر بنى العباس ، أى أنه خشى فى زمن الأمويين الاتصال بهذا العلوى الامام !!

ونقف لحظة عند شخصية « جعفر الصادق الخلقية ، والاجتماعية ، لنرسم خطوطها الكبرى ، على ما التزمنا بيانه فى سائر الأساتذة ، فنرى أن « جعفرا » هذا ، مع عبادته ، وخشيته ، حتى أنه اذا ذكر له النبى صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر ، ولا يحدث عن رسول الله الا فى طهارة ، ولم يره « مالك » فيما قال الا مصليا ، أو صائما ، أو قارئا للقرآن، ومع هذا وشبيه له غيره ، كانت فيه دعابة وتبسم ؛ بل كان كثير الدعابة والتبسم ، وهى صفات ليست صفات الزهاد بعامة ، أولئك الزهاد ، الذين نرى منهم من يحلف ألا يضحك حتى يعرف أفى النار هو أم فى الجنة .

فاذا ما نظرنا الى شخصية الصادق الاجتماعية وجدنا منه موقفا سلبيا غريبا ، من دعوة قومه ، ونصرتهم ، اذ يخذل المناضلين منهم خذلانا عنيفا ، فحين خرج « محمد الشبه » على « المنصور » بالمدينة كما أشرنا ، وكانت خرجة عنيفة عززها خروج أخيه بالبصرة ؛ ولقى المنصور منها الأمرين وكادت تفلت منه الأزمة .. ومع ذلك فان الامام « جعفرا » هرب عند ذلك ، حتى قتل « محمد » واطمأن الناس وآمنوا فرجع الى المدينة . وذلك الهرب فى الوقت الذى رأينا فيه « ابن هرمز » وهو هم متهدم ، لا شىء فيه ، يخرج وينصر محمدا ، ليراه قادر قوى فيقتدى به ، على ما سمعنا منه .

وهكذا تتراءى لنا فى شخصية « الصادق » هذا متقابلات عجيبة نوعا ما ، فهو شيعى ، ثم ولده « أبو بكر » مرتين ؛ وهو زاهد عابد يصفر ويخضر اذا ذكر له الرسول عليه السلام ، ثم هو كثير الدعابة كثير التبسم : وهو أحد الأئمة الاثنى عشر ، ثم هو يهرب اذا قام أحد أهل بيته ليطالب بحقهم ، وهو على غرار ذلك محدث وفقيه ، ثم له كلام فى الفأل وزجر الطير ، مما نهى عن مثله فى السنة ؛ كما هو أستاذ الباحثين عن تحويل المعادن ذهبا. بما فى هذا البحث من وهم !

هذه الشخصية بمزدوجاتها تلفت النظـر عند تلمس آثار الأستاذ فى تلميذه ؛ وتقدم فى الوقت نفسه صـورة لتيارات متضادة ، متعاكسة ، فى المجتمع الذى عاش فيه صاحبنا « مالك » ؛ وان كان تلاقى هذه التيارات أو تصادمها فى شخص واحد ليس شيئا منتظرا ولا كثيرا ؛ انما المنتظر تواردها من الأنحاء المختلفة ، على الشخص الواحد من أهل عصرها ، فتتجاذبه اذ ذاك تجاذبا مختلف القوة ، يميل به الى احدى القوتين أو يصيبه بتردد أحيـانا ، أو يختلف موقفه فى ظروف مختلفة ، فيكون تجاذب هذه القوى مفسرا لعلمه ، لكننا نجد العالم النفسى الغالب على الشخص غلبة يسعنا بظهورها أن نسلكه فى فئة بعينها ، ونرده الى تأثير قوة بذاتها فى عامة أمره ، وان تغـير عالمه أحيانا ، وذلك — فيما يبدو — غير أن يكون الشخص غاية فى الطرفين المتقابلين ، فهو امام علوى معدود ، وهو هارب من نصرة أصحاب الدعوة ، التى يموت الأجانب عن قومه فى ميدانها!! تلك الشخصية « لجعفر » شخصية خليقة بالدرس الكاشف بعد الدرس التاريخى المفرد ، الذى يصحح ما ورد عنها من أخبار لم نستطع أن نفسرها تفسيرا متسقا .

وسنرى لهذه الشخصية الغريبة — نوعا ما — أثرا

حقيقيا ، أو مدعى فى حياة الفقه الاسلامى ومذاهبه التى صار « مالك »أحد فرسانها ، ووقف عليها حياته المؤثرة بعد نضجه واستكماله ، على ما سنتبينه .

* * *

أساتذة مساعدون : وهى تسمية عصرية نستعيرها هنا لقريب من معناها الجامعى ، فهم ليسوا أساتذة مساعدين للأساتذة الأصـليين الذين رأينا منهم نفرا ، فى موضـع الأصالة الجديرة بهذه التسمية « كابن شهاب » و « نافع » ، « وابن هرمز » ، « وربيعـة » ومن فى مسـتواهم ممن ذكرنا ؛ وانما هؤلاء الذين نسميهم بعدهم مساعدين كانوا مساعدين فى تكوين « مالك » يجيئون فى المرتبة الثانية ، من حيث الملازمة ، أو قوة الاتصال التى رأينـا مظاهرها الواضحة فى الاتصال بمن عددناهـم أساتذة « مالك » الأصليين ، فهؤلاء الآخرون أساتذة لهم ما لهم من مركز . لكن صلة صاحبنا بهـم أخف من صلته بأولئـك الذين صدرنا القول عن الطالب « مالك » بذكرهم ، وتعـرف شخصياتهم ، وممن كانوا فى المنزلة الثانية من الأستاذية « لمالك » : —

ابن المنكدر : محمد بن المنكدر بن الهـدير ، التيمى

القرشي — المتوفى سنة ١٣٠ أو ١٣١ هـ — وهو من التيميين الذين كان لآباء مالك حلف معهم . وكان شيخه فى المكتب منهم — على ماقدرنا — ؛ ثم هذا شيخه فيما يساوى الدراسة العليا من أسرة منهم متفقهة .

فعم « ربيعة بن المنكدر » هذا معدود من فقهاء الحجاز؛ وأخواه الاثنان « أبو بكر » و « عمر » فقيهان ؛ ثم للأحرار من الأسرة موال فقهاء أيضا مثل « يعقوب الماجشون » الفقيه ، وابنه كذلك ؛ ومثل « ربيعة الرأى نفسه » الذى عددناه أول ما عددنا من الأساتذة الأصليين ؛ فالأسرة بهذا قوة تعد فى حياة الفقه ورواجه بالمدينة وجامعتها المسجدية .

« ومحمد بن المنكدر » ، من فقهاء المدينة وأصحاب الحديث فيها ، ومن القراء أيضا ، يزكونه فى الرواية فيقولون : انه من معادن الصدق ، كما ينعتونه فى القراءة بأنه سيد القراء ؛ وقد أخذ « مالك » عن « ابن المنكدر » هذا علما ، وروى عنه فى « موطئه » بضعة أحاديث ؛ وبهذا انعقدت له الأستاذية العلمية عليه ، وهى تنعقد فى تقاليدهم بالحديث الواحد .

واذا ما نظرنا الى الشخصية الفردية والاجتماعية ، لهذا الأستاذ ، على ما نقدر من حسن فهم العصر بحسن فهم

هذه الشخصيات ؛ ومن الاهتداء الى مصادر التأثير منها على الطالب « مالك » نرى أن « ابن المنكدر » من حيث الشخصية الفردية زاهد عابد ، متقدم فى العلم والعمل ، يقول : كابدت نفسى أربعين سنة ، حتى استقامت ؛ وهو حاضر الدمعة بكاء ، لا يكاد يسأله أحد عن حديث الا بكى ..

وكان « مالك » — فيما يقول — يكبر شخصيته الزاهدة هذه ، ويأتسى به ، ويقول : كنت اذا وجدت من قلبى قسوة آتى « ابن المنكدر » فأنظر اليه نظرة ، فأبغض نفسى أياما .

ثم هذا الزاهد البكاء ، الذى يبغض « مالك » نفسه بنظرة اليه نجد معانى عجيبة فى شخصيته الاجتماعية ، اذ يسأل : أى الأعمال أفضل ؟ فيقول : ادخال السرور على المؤمن .. ويسأل كذلك : أى الدنيا أحب اليك ؟ فيقول : الافضال على الاخوان .. فهذا البكاء الذى يجد أفضل الأعمال ادخال السرور ؛ وهذا الزاهد الذى أحب شىء اليه الافضال على الاخوان ، هو انسان اجتماعى بمعنى حق ، كما هو انسان سليم الحس ، شديد التأثر .

وليس من الغريب أن يذهب الرأى الى أن الجو

الفنى ، الذى نعرفه يغمر المدينة فى هذا الوقت قد كان له الأثر القوى ، فى احياء مثل هذه المشاعر الانسانية ، الكريمة التى تزهد وتبكى ، ثم تعد ادخال السرور على المؤمن أفضل الأعمال .. والفن الموسيقى المتردد الأصداء فى هذه الأجواء خليق بأن يدق به الحس على هذا الحال .

وليس مما يستبعد فى تأييد هذه الفكرة أن نرى الفقهاء فى المدينة ذوى مزاج فنى ، يلتقى فيه العلم والفن ، ويتآخى الفقه والزهد ، فى مثال حى من هؤلاء الأساتذة الذين سميناهم مساعدين ، فى تكوين « مالك » .

ومن هذا الصنف :

ابن أذينة : عروة بن يحيى بن مالك ؛ ولقب الأب يحيى أذينة ؛ ويكنى عروة أبا عامر ؛ وعروة أبو عامر قرشى مدنى، يعده « ابن قتيبة » فى المعارف ، كما يعده « أبو الفرج الأصبهانى » فى « الأغانى » ، فى الفقهاء ، والمحدثين ، ووصفه « ابن قتيبة ؟ بأنه ثقة ، ثبت ؛ وهما وصفان من أعلى أوصافهم فى تعديل الرجال المحدثين .. ثم هو مع ذلك شاعر غزل ، مقدم ، من شعراء المدينة ؛ وتذكر له مع ذلك كله صنعة فى الغناء ..

ثم هو يوصف بعد ذلك بأنه رجل صالح ،

له مروءة ، غزله من وراء عفـــة .. وان كانت شــاعريته الغزلة ، وصنعته الغنائية قد عرضته لاتهام صــلاحه وعفته من نساء عصره البرزات ، كسكينة بنت الحسين وغيرها ، وقد واجهته فى هذا الاتهام بمثل قوله :

اذا وجدت أوار الحب فى كبدى

عمدت نحــو سقاء القوم أبترد

هبنى ، بردت ببرد الماء ظاهره

فمن لحر على الأحشاء يتقـد

وبشبيه هـــذا من شــعره المتأجج العاطفة ، فى حبـه — على قلة ما وصلنا من هذا الشـــعر — .. على أنا اذا ما ذكرنا اتهام هؤلياء النســاء لصلاحه وعفته لا ننسى أن نذكر تقدير الخليفة العدل عمر بن عبد العزيز له ، واذ يذكر عنــده « ابن أذينـــة ؟ فيقول عمر عنه : « نعم الرجــل أبو عامر » ، على أنه يقول :

وقد قالت لأتراب لها زهـــر تلاقينا

وابن أذينة بهذه الحال التى وصفنا صورة من تلاقى الفن والعلم الدينى فى المدينة ، مهما تكن القيمة النقلية ، لما يروى عنه ، لأنه فى كل حال يصور للمدينة المنورة صورة تمثلها الناس قبلنا ، فجاءوا من هذه الأخبار بما جاءوا به ،

وانا لنضم هذا العامل الفنى ، من أستاذية هـذا الفقيـه الشاعر ، المغنى الى ما سبق من اتباع « مالك » المغنين ، أول الأمر قبل طلب الفقه ، لنتبين الجانب الفنى ، فى شخصية « مالك » حين يحين ذلك .

ولهذا نؤخر القول فى مدى أستاذية «ابن أذينة» لمالك، لأنا وان رأيناهم يذكرون رواية « مالك » عنه ، أو يحددون أنها فى الفقه بخاصة ، لا نجده فى اثبات أسماء من روى عنهم ولا نظفر بشىء له فى « موطئه » .. وقد رأينـا من الأساتذة الأصليين من لم يرد له ذكر فى « الموطأ » لهـذا السبب أو ذاك ، « كابن هرمز » مثلا ؛ ولعل لغزل ابن أذينة وغنائه يدا فى شىء من هـذا الاغفال ؛ وان كنا نحن نرى مثل هذا الرجل فى البيئة التى يعيش فيها شخصا ذا دلالة اجتماعية تاريخية أحفل مما يمكن أن نفيـده من ذكره فى المحدثين ، أو عده فى الفقهاء ...

* * *

واذا وجـدنا بعض ما نحدث به عن « ابن المنكدر » و « ابن أذينة » من الأساتذة الذين سميناهم المساعدين فى تكوين « مالك » فانا لنظفر بأسماء رجال من هذه المرتبة ، لا نملك عنهم كثير خبر ، ولكنا نسمع بعظيم تقدير «مالك»

لهم فى الثقة والفضل ؛ مثل « عمارة بن عبد الله بن صياد المدنى » الذى روى أن « مالكا » كان لا يقدم عليه أحدا فى الفضل .. ومثل : « اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى » الفقيه المدنى — المتوفى سنة ١٣٢ أو ١٣٤ هـ فليس لدينا الكثير عن حياتهما أو اتصال «مالك» بهما ، لكنا نقرأ عن اسحق هذا ، أن مالكا كان لا يقدم عليه أحدا (كذلك) لنبله عنده .

* * *

وانا لنستطيع بعد ذلك أن نمضى فى استعارة الاصطلاحات الحديثة ، فتسمى « لمالك » .

« أساتذة زائرين » لأنه لم يلقهم اللقاء الطويل المطمئن، بل لقيهم زائرين فى زيارات لهم للمدينة ، أو فى زيارة منه لمكة ؛ لأن مالكا لم يرحل الى خارج الحجاز فى طلب هذا العلم الدينى ، النقلى ، الذى قوامه الرواية ، كما أنه لم يرحل ، — أو بعبارة أدق — لم يقبل الرحلة الى خارج الحجاز ، من أجل الدنيا ، حين عرض عليه خلفاء العباسيين ، أكثر من مرة ، وربما من أكثر من واحد منهم أن ينتقل الى العراق ، فكان يرد على ذلك دائما بقوله عليه السلام : والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون .

والرحلة فى طلب العلم كانت أشبه ما تكون بالسفر اليوم ، فى بعثة الى بلد خارجى من أجل التعلم ، وهو ما قد يكون « مالك » استغنى عنه ، بما للحجاز ، ولا سيما مكة والمدينة ، من صفة خاصة ، جعلته قبلة المسلمين ، ومثابة دينهم ، وشعائر حجهم ، فعلماؤهم ، — كعامتهم — يفدون اليه ، بهذا الدافع الدينى ، وفى الحجاز نفسه يستطيع لقاءهم .. ومهما يكن السبب فى عدم مغادرة « مالك » الحجاز — فيما نعلم — لا لطلب العلم ؛ ولا لغير ذلك ، فان هذا الوضع هو الذى يحتكم فى تفسير روايته عن أساتذة ، من غير أهل المدينة المقيمين بها ، مثل ؛ « أبى الزبير المكى » محمد بن تدرس ، مولى القرشيين — ت ١٢٨ هـ — فلا نجد الا افتراض أنه روى عنه فى احدى حجاته هو الى مكة ، فقد حج « مالك » أكثر من مرة ، أو فى زورة من الرجل للمدينة .. ومثل روايته عن « أيوب ابن أبى تميمة السختيانى ت ١٣١ هـ من علماء البصرة ؛ و « عطاء بن عبد الله » من أهل خراسان ، وغير هؤلاء من أهل الشام والجزيرة ؛ فعلى أساس أنه لم يغادر الحجاز، يكون لقاؤه القصير لهؤلاء ، قد كان وقت جيئة لهم للحجاز فى حج ، أو زيارة لقبر الرسول عليه السلام ، سواء

أكان هذا اللقاء لهم فى مكة « ومالك » يحج احدى حجاته، أو فى المدينة ، وقد وفدوا عليها هم .. ومن أجـل ذلك سميناهم « أساتذة زائرين ؟ لأنهم لم يلقوا الا فى فرصـة زيارة منهم للحجاز ؛ أو زيارة من مالك لهم عند وجودهم بمكة ..

* * *

وقد أخذ « مالك » العلم عن كثيرين ، حتى عدوا من روى عنهم نحو تسعمائة رجل ، كلهم يعتبر شيخا لمالك فى اصطلاح القوم ، كما أشرنا ، فجمهرة هؤلاء هم الذين استعرنا لهم من الاصطـلاح الحديث : اسم « أسـاتذة زائرين » لأنهم لم يلقوا الالقاء عابرا ، لقـاء زائر .. وأما منهج الدراسـة : على من عرفنا من صـنوف أولئك الأساتذة ، الذين يفردون بالقوائم الأبجدية ، ويبلغون من العد الكثرة التى أشرنا اليها ، فنستطيع من جريدة أسمائهم ذاتها ، ومن قليل ما أوردنا من أخبارهم أن نعرف أنهـم أساتذة المنهج النقلى ، الذى هو دعامة ما تقدم « مالك » لدرسه منذ ألبسته أمه العمامة ، وأرسلته الى ربيعة ، بل ان فى قولة الأم ما يشير الى هذا المنهج ومميزاته ، اذ تقول لابنها : اذهب فاكتب الآن .. بعـد ما سألها هو : أذهب

فأكتب العلم ؟ .. فذكر الكتابة فى هـذا الحوار يلفت الى أن الحقبة كانت فى حيـاة الثقافة العربية الاسلامية حقبـة التدوين ، وقد رأينا من أساتذة « مالك » من هو رأس المدونين للحديث « ابن شهاب الزهرى » .. وهذا الحديث وما معه من أثر متناقل هو الذى يراد من العلم اذ ذاك ، حين يطلق لفظه .

والمنهج فى هذه الدراسة هو المنهج النقلى ، الذى كانت تتكون تقاليده تدريجيا فى هذا العهد ، حين يبتعد النـاس شيئا فشـيئا عن عصر الصحابة ، الذين شـهدوا صاحب الرسالة ، وتلقوا منه ، وبلغوا عنه مبـاشرة ، فمع تتابع الأجيال يزيد البعد رويدا رويدا ، عن أولئك الأصحـاب الذين يعتبر ختام القرن الأول الهجرى آخر العهـد بهم ، وقد رأى آخرهم وفاة — فى رواية — « أبو حنيفـة » الامام الفقيه الذى يكبر « مالكا » ببضعة عشر عاما ..

وهذا المنهج النقلى الذى كان يتكون ، ويدق ، وتتضح معـالمه ، فى البيئـة الدينية ، للحاجة فيهـا الى التصحيح الدقيق ، الذى تطمئن به النفس ، الى صدور القول عن قائله ، بلفظه ، اذا أمكن ، والافبمعناه المعبر عنـه أخص التعبير — ما أمكن ذلك أيضـا — . وعن هـذه البيئة

الدينية يؤخذ المنهج النقلى ، فيما يروى ، من التاريخ والأدب وأشباههما ، مما عمدته النقل ، والرواية ..

ولم تكن تلك الرواية الناقلة تعدو احدى طريقتين :

احداهما — التلقى الشفوى ، من فم الشيخ ، اذ يتكلم بعلمه ، أو يقرؤه من كتابه ؛ والتكلم هو الأسبق فى هذا المجال ، ولا يصار الى الكتابة الا حين تصبح الحياة المدنية شاغلة عن الحفظ الدقيق ، بتيسير وسائل الكتابة وطرقها .

والثانية — كتابة ما ينسب للشيخ من علم فى كتاب أولا .. ثم قــراءة الكتاب على الشيخ وهو يسمع .. وقد يختصر ذلك بأن يجيز الشيخ الطالب فى أن يروى ما فى كتاب الشيخ دون أن يقرأه عليه ...

وقد أخرجت كل طريقة صنفا من العلماء ، فكان منهم من اعتمد على حافظته القوية الى حد مدهش ، حتى ما يند عنهــا ؛ وكان من هؤلاء الحفـــاظ من يشتهر بالعـــلم الكثير — فى تعبيرهم — مع أنه أمى ، ! «فجعفر بن سليمان الضبعى » أحـــد علمـــاء البصرة ، ومن ثقات الشيعة — ت ١٧٨ هـ — مع كثرة علومه ، قيل كان أميا ..

وصنف من العلماء كان يعنى بالكتابة ، ويشتهر بصحة الكتاب ، ولا يجيــد الحفظ « كالوليد بن مزيد البيروتى

ت ٢٠٣ هـ » . كان ثقة ولم يكن يحفظ .

ونستطيع أن نلمح فى هذا القرن الثانى رجحان الميل الى الكتابة ، حتى ليكتب الحديث مع التلاقى ، ومواجهة الراوى للشيخ المروى عنه .. وفى هذا العهد تشتهر كتابة ينقل عنها الحديث — كصحيفة « العلاء بن عبد الرحمن » ، التى كانت مشهورة بالمدينة ، ويحدثنا عنها «مالك» نفسه ..

وبالطريقة الثانية ، طريقة الكتابة — على ما يرجح — تلقى « مالك » نفسه ما تلقى عن صنوف الأساتذة الذين عددناهم ، وذكر هو ذلك حين طلب منه الخلفاء أن يسمع أولادهم العلم مشافهة ، فقال لهم : ان هذا البلد — أى المدينة — انما يقرأ فيه على العالم ، كما يقرأ الغلام على المعلم ، فاذا أخطأ أفتاه ، بل يقرر أن هذا هو منهج التدريس من قبله بقوله : سمعت « ابن شهاب » يقول : جمعنا هذا العلم من رجال فى الروضة ، وهم فلان وفلان (ويسمى فقهاء المدينة السبعة) ثم نقل عنهم « ابن هرمز » « وأبو الزناد » و « ربيعة » والأنصار ، وبحر العلم « ابن شهاب » ، وكل هؤلاء يقرأ عليهم ولا يقرءون » .

ومن مظاهر هذه الطريقة أن يتخذ العلماء لأنفسهم كتابا ، ويعرف رجال بالكتابة للأئمة ، مثل حبيب « كاتب

« مالك » ، « وهقل » كاتب « الأوزاعى » و « عبد الله ابن صالح » كاتب « الليث بن سعد » وغيرهم .

اجازة مالك العلمية : — ظل الطالب « مالك » بضع عشرة سنة يجد فى طلب العلم ، ويحرص على لقاء الأساتذة ، فى نحو ما سمعنا من أساليب فى ذلك ، يتلطف بها للقاء أولئك الأساتذة لقاء منفردا ، يطول وقته كما سمعنا ، وفى تلطفه لأتباعهم وخدمهم ، لكى يدخلوه عليهم ، فى منازلهم الخاصة .. الخ ..

وندع تحديد مدة الطلب مبهما بقولنا « بضع عشرة سنة » لاختلاف الروايات ، فى تقدير هذه المدة ، وتعيين السنة التى استحق فيها أن يجلس للاقراء ، ويتصدر للفتيا ، ويأخذ طابع الأستاذ ، الذى يعتبر نوالا للاجازة العلمية .

وقد كانت الطريقة لنيل ما نسميه — فى توسع — اجازة علمية ، فى هذا العصر ، هى الطريقة التى ورثت عنها طريقة الأزهر وأشباهه ، من تلك المعاهد الدينية ، فى العالم الاسلامى ، قبل دخول نظم الامتحانات الجديدة .

وأقرب صورة لهذه الطريقة التى يبدو أنها كانت المتبعة فى المعاهد المسجدية كلها هى تزكية الأساتذة وشهادتهم بصلاحية الطالب المتقدم ، وقدرته على أن يجلس للاقراء

والتدريس ، بأن يسألهم الطلاب عن ذلك فيجيبوهم ، كما سأل « مالك » « ابن شهاب الزهرى » و « ربيعة » : هل أنا للفتيا موضع ؟ وأنه بذلك أفتى ، ولم يتفت حتى سأل ؛ وقد يروى عنه أنه ظفر بشهادة كثيرين ، وأنه ما جلس حتى شهد له سبعون شيخا من أهل العلم أنه موضع لذلك ؛ ولا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس أهلا لها .

على أن هذا الجلوس قد كان غير مرة تحديا لبعض الأساتذة ، واعتدادا بالذات ، أو بالرأى والمذهب ، كما جلس « واصل بن عطاء » فى مسجد البصرة معتزلا « الحسن البصرى » .. فيما يقال — ليقرر فكرته التى خالف بها على شيخه « الحسن » فى حال مرتكب الكبيرة ، وأنه فى منزلة بين المنزلين ، لا كافر ولا فاسق .. ويروى أن شيئا من ذلك قد كان بين « مـالك » و « ربيعـة الرأى » فى مسـألة لا يعينونها ، كما عينت مسألة « واصل » ؛ فدارت المسألة فى مجلس « ربيعة » فتكلم فيها « ربيعة » فقـال مالك : ما تقول يا « أبا عثمان » ! ؟ . فقال « ربيعـة » : أقول فلا تقول ؛ وأقول اذ لا تقول ؛ وأقول فلا تفقه ما أقول .. هذا و « مالك » ساكت ، فلم يجب بشىء وانصرف ؛ فلما راح الى الظهر ، جلس وحده وجلس اليه قوم ؛ فلما صلى

المغرب اجتمع اليه خمسون أو أكثر ، فلما كان من الغد اجتمع اليه خلق كثير ، فجلس للناس ، فى سن يختلفون فى تقديرها بين ١٧ سنة ، ٢٠ سنة ، وعرفت له الامامة ، وبالناس حياة اذ ذاك ..

وفى كل حال كانت الاجازة العلمية لهذا العهد ، هى تقدير الأساتذة ، لا أكثر ، وحتى فى حالة مغاضبتهم كان الجلوس للاقراء انتزاعا للتقدير من الأساتذة ، مع امكان أن يكون اعتمادا على تقدير أساتذة آخرين لم يغاضبهم الطالب الكبير ، حين جلس ، بل قد يكون معتمـدا على تأييدهم .

وبهذه الطريقة التى قوامها ثقـة الطالب بنفسـه ، وشعوره بقدرته على أن يدرس . فيسأل أساتذته رأيهم فيه ، أو يفرض هو نفسه على حلقات الدرس ، مقدرا نجاحه بعدد من يجلس اليه ، كما سمعنا فى خبر « مالك » السابق. وبهذا الاعتراف العملى يدخل الطالب المنتهى ميدان الحياة مدفوعا بشعور منه نفسى ، لا متسلقا الى ذلك بنظام مرقع، مهلهل الأجزاء ، يرسب فيه حينا فى مادة أو مادتين ، وتجمع له الدرجات أعشارا وأتساعا من زوايا أوراق الامتحان . أو يتغير القـانون فى نسبة النجاح ، فيصبح الراسب الذى

لم يأخذ الا أقل من نصف الدرجات ناجحا بلا امتحان ، لأن قانونا صدر بجعل نسبة النجاح أربعين فى المائة من المجموع مثلا .. ان تجارب الحياة عندنا وعند غيرنا تجعل لاختيار الطالب أستاذه — فى التعليم العالى — من بين أساتذة عدة لمادة واحدة ، أثرا واضحا فى اعتماد أستاذية الأستاذ على مقدار علمه ، وصلاحية طريقته ؛ كما أن ربط النجاح بتقدير الأساتذة لعلم الطالب فى درس فعلى يلقيه ، أو فيما عرفوا من حاله ، العلمية الظاهرة ، كل ذلك يكون فيه النجاح عن شعور من طالب العلم بأنه أهل لذلك .. لا عن فرص غير مضبوطة تتاح دوريا ، فى فوضى تطبيقية أو تنظيمية .. بل ان جلوس الطالب للتدريس متحديا الأشياخ أكثر حيـوية وصلاحية من نظمنا المضطربة .

مالك - يواجه الحياة

- وراثة مالك البعيدة والقريبة

الفصل السادس

مالك .. يواجه الحياة

ها هو ذا « مالك » فى حوالى العشرين من عمره ، شاب مكتمل . يفتل سبلتى شاربه ، وأكبر الظن أن لحيته سوداء تستدير حول وجهه ، وهو يفرق شعر رأسه ، على ما سنصف بعد من سماته .. وقد جلس فى المسجد النبوى مستقلا يعلم العلم الدينى ، فواجه الحياة منفردا ، لم يعد يذهب الى أستاذ له ، ومعه غلام ، بل لم يعد يتلقى ما يسمعه ، بالروح التى كان يتلقى بها ، خلال السنوات التى مضت قبل اليوم فى أواخر العقد العاشر من القرن الأول الهجرى ، والعقد الأول من القرن الثانى ؛ حتى ما يرويه أو يسمعه اليوم ، من العلم ، صار له فى نفسه وقع غير ما كان له أمس من صورة ، فالمعلم حين يعاود القاء معلوماته ، التى تلقاها ، وأدى الامتحان فيها ، تكون لها فى هذه الحال صورة أوضأ وأوضح ، وأكثر تحديدا ، منها يوم كان يتلقاها ، وهو غلام أو فتى ، قبل أن ينهض ليلقيها ،

وهذه اليوم هى حال «مالك» بعد ما جلس فعلا للتدريس ، واجتمع حوله خمسون شخصا أول يوم .

و « مالك » الذى كانت دنيــاه بالأمس هى البيت والمسجد ، وما بينهما ، أو ما حولهما تتســع اليوم آفاق دنياه ، فيمارس فيها تجارب مختلفة ، هى دراسات كتلك التى كان يتلقاها ، فى البيت والجامعة المسجدية ، أو هى أوسع أفقا وأبعد مدى وأوضح تأثيرا ؛ وأكثر تنــوعا ، « فمالك » سيمارس تجربة الحياة الشخصية الزوجية ، بأعبائها ومسئولياتها أمام الأهل والولد ..

« ومالك » سيمارس حياة التعليم ، بما هو معروف من أمرها . مع ممارسته الحياة العــامة فى دوائر متداخلة ، أضيقها دائرة مجتمعه فى المدينــة المنورة ، وأوسعها دائرة العالم القديم ، فى آسيا وافريقية وأوروبا أيضا ، فسيبلغ علمه شمال افريقية ومصر ، واسبانيا ؛ كمــا يبلغ العراق وما وراءه نبأ هذا العالم ، فيفد اليه الطــلاب ، ويكون له شأن مع حكام هذه الأقاليم فى دولاتها المختلفة المشرب ، والوجهة ..

و« مالك » .. يشعر — ولا مفر — بما حوله قريبا ، أو ما يتصل به بعيدا ، من الحياة الفنية فى صورها المختلفة،

وهو بحيث يسلك فى ذلك مسلكا ، مشرعا أو مطبقا ، يحلل ويحرم ، يعلم ويفتى ويحكم ؛ وله فى ذلك ما يكون من خطة.

« فمالك » فى هذا الدور يواجه الحيـــاة ويمارسها ، مباشرة ..

و « مالك » الآن يتفاعل مع الحياة ، يفيد منها تجارب جديدة ، وخبرة معاينة ، يضيف بها علما الى علمه ، الذى سمعه وحفظه ، بل يفحص على هديها ذلك الذى حفـــظ وسمع .

ولو قلنا : ان « مالكا » كان حتى اليوم يمر بدور من التأثر . يأخذ فيه من الحياة ، ولا يكاد يعطيها ، فانا الآن لنقول : ان « مالكا » فى هذا التفاعل مع الحياة لم يخلص تماما ، من التأثر ، بل سيظل ينفعل بالحياة كما قلنا ، ويظل بهذا يجد ما يتعلمه ، وما يضيفه من جديد الى شخصيته ؛ كما أنه سيؤثر فى الحياة ، وعلى من فيها ، بما هو انسان معاشر ، وبما هو معلم مثقف ؛ وبما هو عالم موجه ، له بالسياسة والحكام صلة أى صلة ، وله بالناس والجماهير مثل تلك الصلة ، أو أقوى .

ولو كان لابد من تحديد مدى هذا التفاعل ، والسن التى لا يزال ظاهرا فيها ، لأمكن القـــول بأنها السن التى

تعارف القوم على النضج فيها وهى الأربعون سن النبوة ، يبقى التأثر قبلها مستمرا ، ويقل بعـدها ، ويكون التأثير واضحا فيما تلاها ولا يظهر التأثر ، وان صـدقت قولة القائلين : يموت المعلم وهو يتعلم .. لكن النسبة فى ذلك تتفاوت ..

ومن هنا لا نستطيع أن نقول شيئا عن شخصية مالك فى جوانبها المختلفة ، الا بعد أن نرصد تفاعل « مالك » مع الحياة ، بعد ما وصفنا حتى الآن انفعاله بها .. فرأيناه جنينا، أبطأ به السير الى النور ؛ ثم وليدا فى حجر أمه ، وكفالة أبيه ، ثم غلاما ، فى رعايتهما ، وملاحظة اخوته الأكبر منه ، ثم فتى يلقنه أساتذته ، حتى ينضج فيجادلهـم أو يخالف عليهم — فيما يقال — ويتقدم منفردا ، فيمارس الحياة وحده ، متفاعلا معها ، متأثرا بها الى فترة النضج والاكتمال، التى أشرنا الى امكان تحديدها بسن النبوة ، مؤثرا فيها قبل ذلك وبعـده بنسب مختلفـة ، تكتمل بها شخصيته ونستطيع أن نتمثلها ونصورها ، قدر المستطاع .

ونحن نعرف أن « مالكا » فى هذا الدور انما يواجه الحياة متفاعلا معها ، بحصيلة ما فات ، مما عرفناه من حياة الجنين ، والوليد ، والطفل ، والغلام ، والفتى ؛ فلو عرفنا

معالم هذه الحصيلة ، ثم أدركنا ما عسى أن يضيف اليها من تفاعله مع الحياة حوله ، لوضحت أمامنا عناصر شخصية ذلك الرجل ، الذى جاز اسمه الينا الأجيال والأزمان : وهذه الحصيلة التى خرج بها ، هى فى أول الأمر : وراثته التى زودته بها فطرته من أسلافه ؛ ثم معها ثقافته النظرية والعملية التى زودته بها دراسته ، ومخالطته من خالط من أهل وأساتذة ، ومعاشرين ؛ وقد روينا من خبر هذا كله ، ونقدنا مرويه ، حتى لنستطيع وصف ما خرج به هذا الشاب ابن العشرين سنة ، التى مضت ، حتى اليوم ، من عمره ، فنتمثل ما سيفعل مع الناس ، وما سينفعل به منهم .. ولذا نقول أولا فى : —

وراثة مالك : نعرض منها القريبة ، التى ألقاها اليه والداه ، فالبعيدة بعد ذلك ، ثم الأشد بعدا ، فى حدود ما يمكن أن يقال ؛

ونحن نشعر عند كل قول فى هذه الوراثة ، أنها ليست الا ضربا من الظن الغالب ، ولا سيما الحديث عن البعيدة منها ، عن الأجداد الأعلين — ولا سيما أن طريقها المرويات التى أشرنا — غير مرة — الى ما نشكوه من اختلافها ، مع حرمانها من السند ، الكاشف عن حال ناقليها ؛

ولذلك لا نلم من حديث هذه الوراثة الا باليسير ، لدقته ، مع قلة المروى ، واضطراب الرواية ..

ونبدأ من ذلك بالشعب والقوم :

فرجلنا يمنى قحطانى ، فماذا قال القوم فى خصائص الأقاليم ، ومناقرات الجماعات عن هذه اليمن ؟

لقد قالوا ما يشعر أن فى اليمن ميلا الى حياة العمل والصناعة ، وقد جوبه اليمنيون فى مفاخرات الأولين بأنهم ما بين « حائك برد ، وسائس فرد ، ودابغ جلد » .. واليمن قد عرفت — على ما نعلم — الحياة المستقرة ، فزرعت ، وبنت ، واستوطنت ، وكل ذلك يؤيد فيها الميل للعمل والنزوع الى الجد والكدح —

ولا نتردد فى القول بأن شيئا من هذا الاتجاه العملى قد خالط نفس « مالك » فقال لمن سأله عن طلب العلم : أفريضة هو ؟ نعم ، ولكن يطلب ما ينتفع به ؛ وسنرى فى منهج تفكير « مالك » وأسلوبه العلمى مظاهر لهذه النزعة العملية . وهو بهذه النزعة يمارس شيئا من التجارة والمضاربة سنرى بعض خبره فيما يلى ؛ كما نسمعه ينصح بطلب الرزق استغناءً عن الناس ، ويقول : طلب الرزق فى شبهة أحسن من الحاجة الى الناس .

ومالك قد نماه فى اليمن « ذو أصبح » ، فيما يقال ، ولو كان هذا تلقينا يشاع فى الأسرة لكان له أثر على كل حال ؛ ولهذا النسب الملكى أثره على السمت ، والهيئة ، من توقر ، وقلة كلام ، وندرة ضحك ، وكراهية مزاح ، وأشباه لذلك من ظواهر قد يغرى بها هذا الأصل النسبى ، ولو كان مجرد دعوى مرددة .

وهو ذو هيبة ووقار فى مجلسه العلمى والعادى ؛ وله تصرفات مع الناس ومع الطلبة ؛ وله أخذ فى نظام مجلسه بأشياء تعد من الظواهر الرسمية ، التى ينزع اليها من فى رأسه شىء عن هذه الفكرة فى النسب الى أذواء اليمن ، كاتخاذه سودانا يقومون على رأسه ، ويقيمون من يأمر باقامته من مجلسه ، وما الى ذلك من قوة أخذه حين يعترف له الولاة فى المدينة بحق التصرف فى المسجونين المحاكمين ، كما كان ذلك يقع .

* * *

تلك وراثات بعيدة ، قد تقال ، على وجه من الظن ، فتكون تفسيرا لتصرفات وكشفا عن جوانب من الشخصية، سنرى منها أشياء غير هذه التى ذكرناها .

ومن النظرة العامة ، فى الوراثة ما يقال فى وصف

اليمنيين من : أنهم أهل سمع وطاعة ، ولزوم للجماعة ؛ وهى معان قد تفسر غير قليل من سلوك صاحبنا الاجتماعى والسياسى ، وصلاته بالحكام ، وعمله مع الخلفاء ، بل تفكيره فى هذا السلوك من الناس ، وافتائهم فيه ، ونصحه لهم ؛ فهو — فى جملة أمره — كما سنرى ميال الى الطاعة، والى لزوم الجماعة ، مسالم فى ذلك مسالمة قد نراها مسرفة: حين نزنها فيما بعد .

وهو ، حتى فى الأسلوب العلمى ، ينزع الى هذا السلم ، فاذا قيل له : الرجل عالم بالسنة ، أيجادل عنها قال هو : لا .. ولكن ليخبر بالسنة ، فان قبل منه ، والا سكت..

ولا بعد فى أن تبدو أمثال هذه الظواهر آثارا لوراثة عامة بعيدة جاءته من خصائص قومه الكبرى .

* * *

فاذا كان النظر الى الوراثة القريبة عن أسرته نفسها ، أما وأبا فقد تكون وداعة الأب التى تسببها آفته اذ هو مقعد ، قليل الحركة ، مرجعا لشىء من ميل الى العزلة ، وما يتصل بذلك من انطواء على النفس نرى شيئا غير قليل منه ، فى تصرفات « مالك » ، وسلوكه العملى فى الحياة ؛ وان لم يكن ذلك عن وراثة فانه ليكون عن النشأة فى تلك

البيئة الخاصـــة ، وما يسود فيهـــا من ظواهر وعوائد .
وتصرفات .

وأما الأم فهى التى سمعنا شيئا عنها ، فى حياته ، اذ تعده ، وتدفعه ، وتنصحه ، فنشعر منها بقدر من الحيوية ، فى وجود « مالك » .. وهى — كما سمعنا — غير واضحة الصفة ، فقد قيل : انها مولاة لتيم كأسرة زوجها ، كمـا قيل : انها يمنية ازدية ، من أنفسهم ، فهل نستمع لما يقال عن هؤلاء الأزد ، وأنهم قوم ملاحون حتى يقول فيهـم الشاعر :

اذا أزدية ولدت غـلاما   فبشرها بمـــلاح مجيـــد

وأن هذه المهارة فى الملاحة ، أو النزوع اليها ظل يذكر عنهم بعد الاسلام حتى يقول لهم «قتيبة بن مسلم الباهلى» القائد ، من خطبة غاضبة : يا معشر الأزد تبـــدلتم بقلوس السفن — أى حبالها الضخمة — أعنة الخيل ! ان هذا بدعة فى الاسلام » .

وهذه الملاحة ، فيما يعرف من أمرها ، تورث الأقدام ، بمصارعة البحر ، وقد نمضى مع الظنون ، فنقول : ان شيئا من هذا الاقدام قد دفع حياة مالك الى الأمام ، فكان دءوبا جادا فى طلب العلم ، وكان مقداما فى التقدم الى التدريس

وجلوسه لذلك ، وسط ثلة من العلماء . يؤرخ لهم النشاط في العلم الديني اذ ذاك ؛ وهذا هو ما يفهم من قولهم : انه جلس للتدريس ، اذ لا تزال في الناس حياة .. وهي شجاعة مدنية قد يتطور اليها — مع الزمن — اقدام الملاح . في مغالبة الموج .

على أنا لن ننسى أنه لا ازدية الأم مقـررة الى هـذا الحد ، فنزعم لابنها ما امتازت به الأزد من هـذه الصفة أو تلك ؛ ولا الوراثة البعيدة — في عامة أمرها — يقال فيها بهذا اليسر ، حتى نلمح في « مالك » خصائص اليمن بعامة ومزايا الأزد جملة .. وليس مثل هذا القول هنا الا محاولة لضبط الفكرة عن شخصية المترجم له ، ولفتا الى ما يحتمل أن يكون تفسيرا لشيء من سلوكه أو شمائله ؛ ونحن نقدر ، ونذكر ، بأن مثل هذا من التفسير ليست اليه سبيل معبدة ، ولا طريق ممهدة .. ولا سيما المرويات التي لا ننسى أن نشير دائما الى اختلافها ، وعدم سهولة البت في أمرها ، والتقدير لقيمتها .

والى هذا القدر من الوراثة وما اليها أضاف «مالك» ما أفاد في المرحلة الدراسية من التأثر بشخصيات أساتذته ، وقد حرصنا دائما على أن يكون حديثنا عنهم مزودا بمـا

يمكن من ملامح شخصياتهم العلمية والخلقية والاجتماعية ، التى هى قدوات حيـة ، للطـالب ؛ ولا سيما طالب العلم الدينى ، الذى تسود جوه روح تقدير للسلف وانفعال بهم .

فبهذه الحصيلة التى خرج بها « مالك » فى تلك العشرين سنة ، أو البضعة عشر التى سايرناه طوالها فيما مضى ، يتقدم منفردا ليكتسب بتجاربه سائر مكونات شخصيته بما يفيد من الحياة .. ولذا نحدث فى الفصل التالى عن ميادين ذلك التفـاعل .

الحياة - حول مالك

- سياسة الحجاز
- السياسة العامة
- الحياة العقلية في الحجاز
- تنابز المدينة والعراق
- الحياة العقلية العامة
- الحياة الاعتقادية في العصر
- الحياة الدينية في الحجاز
- الحياة الاجتماعية في العصر
- مستوى الحياة في هذا العهد
- الحياة الاجتماعية في الحجاز

الفصل السابع

الحياة .. حول مالك

وكل كائن يتأثر بما حوله من واقع الحياة ماديا ومعنويا، ذلك التأثر الذى لم يفت القدماء أنفسهم التنبه الى أصله ، حين يتحدثون عن تأثير البقاع على الطباع .. ثم يقول المحدثون ما يقولون ، فى تأثير ما عدا البقاع المادية ، من أحوال الحياة المعنوية : وجدانيا ، وعقليا ، وعمليا ، فيذكرون البيئات المعنوية بعام معناها وأوسعه ، ويعدون الدين وعقائده ، والفن ومشاعره ، والحكم وأساليبه ، والاقتصاد ونظمه ، وكل ما الى ذلك مما يحيط بالكائن الحى وغير الحى فى المجال الذى يتقلب فيه ، يتبينون أثرها فيمن وفيما يقع تحت تأثيرها .

واذ يجرى الحديث الآن ، عن تفاعل « مالك » مع ما حوله من شئون الحياة ، حين يواجهها راشدا كبيرا يتأثر بها ، ويؤثر فيها ، فانا لنشعر أن التأثر بالبيئة الطبيعية ،

وما حول مالك منها ، منذ تهيأ للوجود فى أبسط صورة الى أن مر بما مر به من طفولة وما بعدها انما هو تأثر سابق الوجود على هذا الدور الذى نرقب فيه « مالكا » الرجل ، ولكنما جمعنا القول هنا فى البيئات كلها ، طبيعية ومعنوية لتجتمع الفكرة وتتكامل فى تماسك .

وهذا الذى حول « مالك » من شئون الحياة يرسم دوائر متداخلة ، بعضها يلى بعضا ، ويمتد التأثر بها بعيدة وقريبة ، وواسعة وضيقة بنسب مختلفة ، فالبيئة الطبيعية الضيقة ، من المسكن والبلدة تتصل بما بعدها من دائرة أوسع ، فى الاقليم الواحد ، كما تتصل بدائرة أكثر سعة ، من المنطقة التى تتجاور فيها أقاليم متعددة ؛ ثم تتصل المناطق بعضها ببعض ، على قدر الصلات المشتركة ، والمنافع المتبادلة والمصالح المتواشجة ، ومن هنا يجرى القول فيما حول « مالك » من الحياة ، مبتدئا من أضيق الدوائر الى التى تليها ، فالتى تليها ، ما دامت عوامل التأثر والتأثير موجودة ، يمكن الحكم عليها .

ولقد يستوى الأمر فى البدء بالأوسع فالذى بعده ، حتى أضيق الدوائر ، أو بالأضيق فالذى يليه حتى أوسع الدوائر ؛ وسنتبع الثانى منها فنجد فيما حول « مالك » ،

من ظروف الحياة المادية أنه وجد وعاش ، فى بيئة طبيعية خاصة هى ما سكنه قومه ، وسكنه هو معهم ، فى شمال المدينة المنورة ، أو حولها ، أو فيها ، كذى المروة حيث ولد، والعقيق حيث أقام حينا ، والمدينة نفسها حيث عاش طويلا ، فنرى فى تلك المواضع المتقاربة ظاهرة مشتركة ، من الطبيعة المواتية ، بالعيون ، والمزارع ، فى ذى المروة ، والعقيق أيضا، وفيما حول المدينة نفسها كذلك ، وهو ما لا يهمل أثره ، فى مزاج المقيمين فيه ، واختلافه بذلك عن مزاج من يسكنون الحرار الجدبة ، والصحراء الجافة .

ولا يبعد أن يكون لمثل هذه المواضع بخصوبتها وهدوئها أثر فى السلوك والأخلاق ، اذ نقرأ أن ساكنى ذى المروة ، حيث ولد « مالك » شكوا الى الرسول ، عليه السلام حين نزله ، من أن الناس يقهرونهم عند المياه ، وأن الرسول عليه السلام دعا قوما فأقطعهم ، وأشهد بعضهم على بعض بأنى قد أقطعتهم ، وأمرت ألا يضاموا ، ودعوت لكم ؛ وأمرنى حبيبى « جبريل » أن أعدكم حلفاء ..

فمولد « مالك » كان فى هذا المكان الذى يقهر أهله على المياه ، ويشكون نزول الناس عليهم ، وغلبتهم اياهم ، ويأمر الرسول بألا يضاموا ، ويأمره جبريل بأن يعدهم

حلفاء .. فهل للنشأة فى مثل هذا المكان أثر فى حب السلم ، والميل الى الموادعة ، والهدوء ، مما سنجد له ظواهر فى سلوك مالك ؟ لا مانع من ذلك ، ولا أرى فيه مبالغة .

واذا امتد النظر الى ما بعد المدينة وضـــواحيها من الاقليم الحجازى . الذى لم يبرحه مالك — على الأرجح — وقضى حياته مترددا بين القريتين فيه : مكة والمدينة ، ذكرنا ما وصف الله به هذا الحجاز من أنه واد غير ذى زرع عند بيته المحرم ، فشعرنا أن الحياة فيه قد اختلفت عن الحياة ، فى الشام والعراق مثلا ، وأنه لم يصلح فترة طـــويلة مقرا للدولة الاسلامية له ، وصار يعد نائيا عن مقر الدولتين ، الأموية فى الشام ، والعباسية فى العراق ، ولهذا البعد عن البلاط وما حوله ومن حوله أثر يجب أن يقدر من نواحى كثيرة ، فى سلوك أهله العملى والعلمى .

ثم هذا الحجاز وما فيه من البيت المحرم قديما ، ثم الحرم النبوى معه حديثا قد جعل الأفئدة تهوى اليـــه بعد ما صار ملتقى الحجيج من الشعوب الاسلامية ، من أقصى أنحاء الدنيا شرقا ، فى حدود الصين الى أقصى أنحائها غربا على شاطىء بحر الظلمات ، يلتقى فيه أصحاب الألسنة المختلفة ، والألوان المختلفة . فيعرف أهله من شئون هذه

الجماعات ما لا يعرفه ساكنو اقليم غـيره ، ويتأثرون من ذلك ، تأثرات مختلفة ، نعرف شاهدها ، فى التجربة اللغوية التى هذبت بها العربية مثلا ؛ ولهذه الاعتبارات ، فى الموقع وظروفه ما له أثره على الناشىء ، والعائش فيه ؛ وهو ما قد نرى شيئا منه ، فى تقرير مركز للمدينة ممتـاز ، سنرى شاهده ، فى تفكير « مالك » ، كما سنرى شـيئا من أثر ذلك ، فى درس فقه مالك ونقله ونشره ، مما يؤسس له هذا النظر الى الموقع الطبيعى ، والبيئة المادية ، ومكانتها فيما تحتويه .

* * *

فاذا نظرنا الى الحياة المعنوية : فهناك الحياة السياسية، ومدى الحرية فيها ، ومستوى الحقوق المقررة للمحكومين والحكام ..

وهناك الحيـاة الدينية ، ونظرتها الى الدنيا ، وتدخلها فى تنظيمها ، والمقالات الاعتقادية والمذاهب فى ذلك كله ،

وهنـاك الحيـاة العقلية ، وما تعنى به من المعـارف الدنيوية أو الدينية ، وما تمكن به الانسان . من الانتفاع بما حوله من الكون وقواه ، ومدى انطلاق العقـل ، فى هذه الأجواء ، وقدرته على اقتحامها ..

وهناك كذلك الحياة الاجتماعية بخاص معنـاها ، من ظروف وأوضاع اقتصادية ، وعلاقات بشرية ، ثم مع ذلك الحياة الفنية ، بعام معناها وخاصة من الحس الوجدانى ، والمشاعر النفسية ، وما لكل أولئك من أثر على النظـر الى الحياة ، واختيار أسلوب ممارستها .

واذا كان لهذه المعنويات من شئون الحياة أثرها فى الذين يعيشون تحت تأثيرها فهذا الرجل يمارس الشئون التنظيمية لقومه ، فى صورة قانون يشرع ، وخلق يهذب ، هو — ولا شك — من أشد الناس تأثرا بهذه الجوانب المعنوية ، فى الحياة حوله ، لأنه لا يخضع لها خضوع الفرد العادى ، بل يتمعن فيها تمعن المسئول عن دقائقها ، المكلف بتحديد الموقف فيها ومنها ؛ وأصحاب هذا العلم الدينى كانوا — اذ ذاك — هم وحدهم الذين يضطلعون بهـذه المسئولية ، ويكلفون — دون سواهم وقبل غيرهم — بتحديد الموقف فى هذه الشئون ، ومنها ، تحديدا قانونيا بالمعنى الضيق من الحظر والاباحة ، وخلقيا بالمعنى الواسع من مسئولية الضمير والتدين .. وهذا الذى واجهه «مالك» ومن على شاكلته من الأشياخ فى ذلك الوقت ، اذ الأمر كله منهم واليهم .. وهـو ما يكشف عن وجـه الأهميـة

لتأثير هذه الحيوات المعنوية فى تفكيرهم وتكوين شخصياتهم ، وهو ما ألزمنى بالعناية بذلك كله .

فاذا ما عاش مالك :

سياسة الحجاز : ونصيب المدينة وحدها ، من هذه الحياة السياسية وجدنا كبريات الأحداث فى هذا العهد هى:

— استيلاء « أبى حمزة الخارجى الاباضى » من قبل « عبد الله بن يحيى » المعروف باسم طالب الحق ، فى حضرموت ، على مكة والمدينة ، بعد ما قتل من أهل المدينة خلقا كثيرا ؛ ولم يلبث أن أخرج منها هو وقومه ، فى السنة نفسها — ولا نعرف « لمالك » فى هذه الحركة أثرا ؛ وقد كان هذا الاستيلاء ، فى أواخر حكم الأمويين—سنة ١٢٩ — ١٣٠ هـ — .

— وفى أوائل عهد العباسيين نشط العلويون فى الشغب عليهم بالحجاز وغيره ، ففى سنة ١٤٥ هـ خرج على « المنصور » بالمدينة ، « محمد بن عبد الله الشبه » الملقب بالنفس الزكية ؛ وفى الوقت نفسه خرج بالبصرة « ابراهيم ابن عبد الله » أخو محمد هذا .

وكان لأهل العلم والدين ، الذين منهم «مالك» ، مواقف فى الخرجتين ، فخرج مع ابراهيم بالبصرة كثير من القراء

والعلماء ، منهم « أبو حنيفة » وكان يجاهر فى أمره ، ويحث الناس على الخروج معه ، وقال عمن قتلوا معه : انه كما لو قتلوا يوم بدر. ونسمع مثل هذه الاشادة بذلك الخروج، من « شعبة بن الحجاج » الذى يلقب أمير المؤمنين فى الحديث ، اذ يقول عن موقعة « باخمرا » التى قتل فيها « ابراهيم » : « والله لهى عندى بدر الصغرى » .

وتتردد الأصداء نفسها بين العلماء ، فى المدينة ، اذ خرجوا مع « محمد » فخرج « ابن هرمز » أستاذ «مالك» الذى رأينا شخصيته الاجتماعية القوية ؛ وفيها قال قولته السابقة ، حين قيل له : والله ما فيك شيء ؛ فقال ردا على ذلك : قد علمت ، ولكن يرانى جاهل فيقتدى بى ، فدل بذلك على قيمة القدوة فى عمل العالم ، وشعوره بما يجب أن يقدمه منها للناس — على ما قدمنا —

« ومالك » من بين هؤلاء العلماء كان يحث الناس على الخروج مع « محمد » واستفتاه أهل المدينة فى الخروج معه ، وقالوا : ان فى أعناقنا بيعة « لأبى جعفر » فقال « مالك » : انما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين ، فأسرع الناس إلى « محمد » ، ولزم « مالك » بيته .

وكان موقفه قبل ذلك بعام واحد ، أى سنة ١٤٤ هـ

موقف انحياز الى المنصور ، اذ حج المنصور فى هذه السنة ، وكان قد حبس بنى الحسن ، وأرسل اليهم فى الحبس رسولين ، وكان « مالك » أحد هذين الرسولين اللذين سألا القوم أن يدفعوا الى المنصور « محمدا » و « ابراهيم ابنى عبد الله » ، فرفض والدهما عبد الله أن يرد على الرسولين ، وقال لهما : لا ، والله لا أرد عليكما حرفا ، ان أحب أن يأذن لى فألقاه ، فليفعل .

وكانت سن مالك عند وقوع هذه الأحداث ، من الرسالة ، ثم الخروج . خمسين سنة وأكثر ، وهى سن نضوج علمى وعقلى ، ولكنه وقف فيها هذا الموقف .

— وثالثة من كبريات الأحداث السياسية بالمدينة ، فى حياة « مالك » سنة ١٦٩ هـ هى خروج علوى آخر بالمدينة، هو : « الحسين بن على » قتيل « فخ » . وقد خرج بالمدينة متعجلا ، لظروف طارئة قدمت موعد الحركة ، الذى كان التنظيم أن يكون «بمنى» و «بمكة» فى موسم الحج ، فلم يكن مقامه بالمدينة الا أحد عشر يوما فقط ، ثم خرج منها بعدما قاتله شيعة العباسيين فيها ؛ ولا نعرف لمالك أثرا فى هذه الخرجة القصيرة ، لكبر سنه ، اذ كان يومذاك فوق الخامسة والسبعين .

ويبدو من أخبار هذه الهزات السياسية الكبرى فى المدينة أن النشاط السياسى فيها كان ضعيفا وكانت العناية بنصرة حزب معين ، والثبات معه غير متوافرة ؛ ولذلك لم يحمد سلوكها السياسى واحد من هؤلاء الثلاثة ، الذين كانت لهم فيها جولات « فأبو حمزة الخارجى » يقول لأهل المدينة ، من خطبة خطبها فيهم : يا أهل المدينة ، أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر .. « ومحمد بن عبد الله » الذى بدأ حركته السياسية بهم وفيهم يخطبهم أول خروجه فيقول: يآيها الناس ، والله ما خرجت بين أظهركم ، وأنتم عندى أهل قوة ، ولا شدة ، ولكنى اخترتكم لنفسى » .

و « الحسين » صاحب فخ ، لما غادرهم قال لهم : « يا أهل المدينة ، لا أخلف الله عليكم بخير » ؛ فقالوا له : بل أنت لا أخلف الله عليك ولا ردك .

والمسئولون السياسيون ، فى غير الحجاز يعرفون هذا من أمر أهله فيقول مستشار المنصور له : بشأن خروج محمد فيهم : هلك وأهلك ؛ خرج فى غير عدد ولا رجال .. وهذه الحال من أهل المدينة تزيد وضوح موقف « مالك » مع « محمد بن عبد الله الشبه » وتعطى شيئا من التفسير له .. فاذا ما امتد النظر الى :

السياسة العامة على عهد مالك وجـدنا أنه قد عاصر الدولتين الأموية والعباسية فعاش بضعة وثلاثين سنة من عمره ، فى حكم الأمويين ، وأفنى قرابة نصف قرن فى حكم العباسيين ، وشهد انتقال الدولة ، من هؤلاء الى أولئك ، وما فيه من هزة عنيفة ، رأى منها « داود بن على » عـم السفاح يقتل من ظفر به من بنى أمية ، بمكة والمدينة .. وما خضع الحجاز فى الدولتين ، الا لما خضعت له الأقطار الفسيحة ، من حكم فردى ، أدنى الى الاستبداد المحض ، تحتكم فيه ارادة الفرد المسيطرة ، المسيرة لمن تحت ظله ، الذى هو ظل الله فى الأرض ، فيصرف ما يشاء كما يشاء ، فى مركزية تحمل الى العاصمة فى الشام أو العراق ما يجبى من شرق الامبراطورية الاسلامية وغربها ؛ وتصدر اليها الأوامر ، وتختار الحكام المطلقى اليد كسيدهم الأعلى .

وكانت تتجاذب الحيـاة السياسية ، فى العصر الذى واجه « مالك » فيه الحياة تيارات مختلفة ، تتصل بحياة أهل العلم ، اتصالها بحياة غيرهم ، بل كان أهل هذا العلم الدينى أكثر تأثرا بتلك التيارات ، من غيرهم ، اذ ترتبط السلطة السياسية بالسلطة الدينية فى أى صورة من صورهما ، ارتباطا توثقـه المساندة اللازمة بيـنهما .. وكانت تلك

التيارات المصلحية ، التى تتجاذب حياة الناس ، علماء وجهلاء ، أشبه ما تكون بالأحزاب السياسية لأيامنا ، لولا اختلاف فى الأساليب ، قضت به الملكية المتفردة ، فكان هناك من التيارات أو الأحزاب :

١ — حزب الأسرة الحاكمة : ربطه مساك من العصبية الدموية ، فى تلك الأسرة المملّكة ، بقبيلة من القبائل العربية، نمت بتلك الأسرة ، وتشدها الى عصبية قبلية ، ذات عروق جاهلية راسخة الجذور ، فى الحياة العربية كما كان الشأن فى البيت الأموى وعصبيته للمضرية ، والبيت العباسى وعصبيته لليمنية نوعا مّا .

وقد تربط أفراد هذا الحزب رابطة رأى مصلحى ، يستند الى فكرة اعتقادية ، كما كان شأن الفرس ، فى العباسية ، اذ ربطتهم تلك الفكرة المدعاة دينا ، عن حكم أسرة الرسول عليه السلام ، وحقها الأول فى ذلك ، وهو التشيع .

ويناصر هذا الحزب كل أرباب المصالح ، ورواد المنافع، الذين ينالهم خير الأسرة الحاكمة ؛ ما دام لها خير يرتجى ، وسطوة تتقى ...

وبعد استقرار الحكم الظاهر للعباسيين ، ظل هناك حزب يعمل فى الخفاء هو :

٢ — الحزب العلوى : اذ لم يرضه مصير الحكم لأسرة الرسول عليه السلام ، الى أبناء عمه العباس ، دون أبناء على بن أبى طالب فنازع العلويون العباسيون فى الأمر، مثل منازعتهم اياه الأمويين ، أو أشد .. وكان للحجاز — بخاصة — نصيب غير يسير فى مناصرة هذا الحزب .. ومع هذين الحزبين المتفقين على أن الحكم حق أسرة الرسول عليه السلام فقط ، يوجد حزب ثالث هو :

٣ — الحزب الخارجى : الذى لا يقول بحق أسرة فى الحكم ، بل لا يقول بضرورة نظام الخلافة الذى صار ضربا من الحكم الفردى الاستبدادى لملوك يستندون الى ما يشبه الحق الآلهى المقدس .. ويرمى هذا الحزب الى أهداف وغايات اجتماعية ، تشبه أن تكون اشتراكية أو شيوعية ، تحارب الطبقية ، والظلم الفادح ؛ وكان لهذا الحزب فى الحجاز ، ما سمعناه ، فى سياسة الحجاز ، من استيلاء الخوارج الاباضية ، على مكة والمدينة ، وقتل الكثيرين من أهل المدينة بلد « مالك » .

تلك هى أصول الاتجاهات الرئيسية ، التى كانت تسير الحياة السياسية فى القرن الثانى ، وقد رأينا ظواهرها فى الحجاز نفسه ، وفى المدينة بالذات . وهى اتجاهات لا مفر

« لمالك » من أن يقف منها موقفا معينا ، ويوائم بين تفكيره وتصرفه ، وبين تلك التيــارات المحتكمة المتسلطة ؛ وهو ما سنراه عندما نعرض لتصوير شخصيته ..

فاذا ما أردنا المضى الى تفهم :

الحياة العقلية فى الحجاز : — أدركنا أن هذه البيئة ، وبخاصة مدنها ، كالمدينة ومكة ، انما هى فى ذلك الوقت دار العروبة ، ومقر الرسالة ، موئل الصحابة ، وملتقى الطبقة الخالقة لهم مباشرة ، وهم التابعون باحسان — وذلك كله مع ما سببته لها عزلتها الجغرافية من عدم الاتصال بمناشىء الحضارات القديمة ، ومطالع المدنية ، التى عرفتهــا حق المعرفة أقطار أخرى شرقى الحجاز ، وغربيه ، بل شماليه وجنوبيه أيضا ، ممــا تأثرت به تلك الأقطــار — على ما سنوضحه — تأثرا لا يتهيأ منه شىء كثير ، لبيئة الحجاز هذه .. ومن كل أولئك تبدو فى حياتها العقلية خصائص ، منها : —

١ — أنها لا تتعرض كتعرض غيرها ، للتأثر القــوى باللقاح الجديد ، من الحكمة والفلسفة . التى كان لهــا أثرها ، على الأقطار الاسلامية الأخــرى ، التى هيأ لهــا موقعها ، وماضيها ، وحاضرها التأثر الفعال ، بهذا الجديد

من الاتجاهات الفكرية .. نعم .. ان بيئة الحجاز لا تنجو من امتـداد شيء اليها من هـذا التأثير ، بحكم الجـوار والاتصال المتبادل نوعا ما ، بينها وبين تلك الأقطار المجاورة، من عراق وشام ، تأثرت بالحضارة الاغريقية ، والحضارة الأشورية والكلدانية ، والفارسية مما خلف فى تلك الأقطار آثارا علمية وعملية واضحة فى تفكيرها .

٢ — ان لها فضل عناية بما كانت تعنى به العروبة من المعارف ، وفيها بقية وراثة من هذه المعارف أظهر من سواها، بحكم هذا القرب والاتصال أيضا ؛ فنرى مثـلا أن علم الأنساب فيها متدارس أكثر منه فى غيرها ، ونسمع « مالكا » يقول « ان ابن شهاب الزهرى » شيخه ، لم يكن معـه كتاب ، الا كتاب فيه نسب قومه ؛ وكان « ابن شهاب » هذا من أعلم الناس بالأنساب .

٣ — أن لها فى الدراسة الدينية ما قد تمتـاز به عن غيرها ، بما رددت جوانبها من أصداء الدعوة الاسلامية ، وما حفظت أرضـها من أحداث وأخبـار ، تفهم بها تلك الدعوة ، وتفسر نصوصها ؛ وقد ورثت من ذلك غير قليل ، عنى به رجالها العرب ، وعنى بها معهم مواليهـم ، الذين اجتلبوا ، فى أيام الفتح الأولى ، التى تمت والحجاز مركز

الدولة ، واليه تحمل السبايا والغنائم ؛ فكانت سوق العلم الدينى نافقة ، حافلة بالعرب والموالى من مختلف الأجناس، وكان وجوه العلماء منهم ؛ فالقراء الذين يؤخذ عنهم كتاب الدين كان منهم الفارسى « كابن كثير » ت ١٤٠ هـ — قارىء مكة ؛ ومنهم الرومى « كاسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين » ت ١٧٠ هـ — قارىء مكة أيضا ؛ ومن علمائها من تلاقت فيه الأجناس المختلفة الدماء ، «كسلمة بن دينار» ت ١٣٥ أو ١٤٠ هـ عالم المدينة وزاهدها وواعظها ، الذى قالوا عنه : ثقة لم يكن فى زمانه مثله ؛ فهو فارسى وأمه رومية ؛ وكذلك تجد القضاة والمفتين ، وأوعية العلم ، ونقلة الدين ، بتلك البيئة ، ألوانا وأجناسا .. وقد لمحت شيئا من ذلك فيمن تقدم ذكرهم ، من أساتذة « مالك » وأن بين أجلتهم الموالى من مختلف الدماء .

وجلى أن العناية فى هذه المنطقة ، مع الزمن المبكر ، انما تتجه الى الأصول الأولى ، من القراءات ، والتفسير ، والحديث ، والفتاوى الفقهية ، والأحكام العملية ، وما يتصل بذلك كالمغازى والسير .. وكذلك يتسلسل بالوراثة فى هذه الديار ذلك العلم الدينى ، وينبغ فيها من فقهاء التابعين وجوه مشهورون ، يعد معهم بمكة ستة عشر

فقيها ، وبالمدينة فقهاؤها السبعة المشهورون ، ثم نحو أربعين فقيها آخرين الى عهد « مالك » الذى نلمس توجيه البيئة له ، الى ما تعلم ، وما درس ، وما ألف ، كما سنرى .

ومثل هذا الرواج الواضح ، والميزة الظاهرة للمدينة معقل العلم الدينى الأقدم جدير بأن يسبب ظهور البحث الفقهى ، عن أثر امتيازها هـذا على الأقطار الاسـلامية الأخرى ، وتركز ذلك فى مسألتين أصوليتين متصلتين ، هما:

١ — أن اجماع أهل المدينة وحدهم يكون حجة على من خالفهم ، فى حالة انعقاد اجماعهم ، فاذا أجمعوا لم يعتد بخلاف غيرهم .

٢ — أن خبر الواحد من نقلهم ، اذا عارضه خبر آخر من نقل غيرهم من الآفاق ، كان ما نقلوه مرجحا — على رأى — بزيادة مزية مشاهدتهم قرائن الأحوال ، وتقصدهم لنقل آثار الرسول عليه السلام — ومن أقرب ما يفهم من تقدير أثر البيئة ما يتصدى له « مالك » من تقرير : أن اجماع أهل المدينة عن طريق النقل والحكاية ، الذى تأثره الكافة عن الكافة ، ويعمل به عمـل لا يخفى ، وينقـله الجمهور عن الجمهور من زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، يكون حجة ، ويلزم المصير إليه ، وترك ما خالفه من خبر أو قياس .

وهو عند المالكيـة امتياز للمدينـة ، لا يشـاركها فيه غيرها ، حتى مكة ، لأن نقل أهل مكة لا يكون كنقل أهل المدينة ، اذ كان فى المدينة آخر الفعلين ، من الرسول عليه السلام ، والذى مات عليه بالمدينة .

ويبدو أن هذه الفكرة عن المدينة كانت موجودة — فى جملتها — بين علمائها ، قبل « مالك » نفسه على ما ترويه آثار قديمة التاريخ عن « مالك » .. لكن مالكا ومدرسته هم الذين أعلنوا المبدأ ، وواجهوا به المخالفين ، حتى قيل : ان جميـع أرباب المذاهب ، من الفقهـاء ، والمتكلمين ، وأصحاب الأثر والنظـر الب واحـد فيها على المالكية ، مخطئون لهم فيها بزعمهم ، محتجون عليهم ، وحتى تجاوز بعضهم حد التعصب والتشنيع الى الطعن فى المدينة وعد مثالبها ..

وككل ما يتسـع فيـه الخـلاف الى هـذا الحد ، اختلف القول والنقل فى تحديد موضع النزاع ، وقيل فيه الكثير ، ولعل هذه الصورة القريبة التى هنا تمثل جوهر الفكرة ، لمن لا يعنى بها عناية متخصص ، فنكتفى بذلك تتمة لبيان الحياة العقلية فى المدينة ، من حيث الدراسـة الدينية ، التى كانت أروج دراساتها ، وهيأت لها ظروفها

الموقعية والتاريخية أن تظفر بالكثير الجم من مواد هـذا العلم الديني الذي كانت موئله الأول .

* * *

ويحسن هنا ، والترجمة يسودها الاتجاه الى تجارب الحياة أن تقف وقفة يسيرة عند هذا التفاضل الاقليمى ، الذى خلف للتاريخ كثيرا من الآثار ، فى تفضـيل بعض الأقاليم الاسلامية على بعض ، وتنقص بعضـها لبعض ، ولا سيما بين المدينة والعراق مركزى المدرستين الفقهيتين الكبيرتين « المالكية والحنفية » .

* * *

تنابز المدينة والعراق — وهو ما يذكرنا بالتفاضل بين البلاد ، ذلك التفاضل الذى يفرد بمؤلفات فى فضل البـلاد والأقاليم ، تقوم على أسـاطير ، وأقاصيص ، ومرويات لا تثبت على نقد ، وخرافات عن المستقبل ، بعد أوهام عن الماضى ، مما لا يوقف عند شىء منه ، الا عند دراسة التطور البشرى ، فى مجالات مختلفة .

وتنـابز البـلاد قد يكون صدى لتنابز الأجنـاس البشرية العليـا ، حين تنسب الى آباء أولين ، من أبنـاء نوح ، وأشباه ذلك ، يذهب كل ابن بصفة أو صفـات ،

محامد ، أو رذائل ، تبقى فى بنيـــه من بعـــده ؛ ثم لا يزال هـــذا التنابز والتفاضل يمتد الى ما بين سكان البـــلاد فى الأقاليم ، وما بين الشعوب والأمم ، فالقبائل والأسر ، حتى لنجد من ذلك ما يقسم المزايا أو ينثر المعايب ، منـــذ ظهرت الحياة على الأرض ، الى اليوم الحاضر ، ويرسل فى ذلك من القول ما يحير ويربك ؛وهل ترى هذه الآرية التى جنـــد لها علماء ، وسخرت لها قوى ، ومجدتهـــا دعايات ، وتدخلت فى حاضر أقطار وشعوب ، وأحدثت فى ذلك آثارا بعيدة الغور.. وهل ترى هذه الآرية اليوم الا ضربا من ذلك التنابز والتفاضل ، فى حياة الدنيا ، لم تجن منـــه خيرا ... فهى ظاهرة من آفات الحياة ، التى لم يكد ينجو منها قديم ، ولا حديث ، ولا وسيط ، ولم تسلم من خسارتها العقول ، والنفوس ، والقلوب ، حتى لتجافى أمل الأخاء الانسانى ، الذى تستشرف له العناصر الخيرة ، فى الجنس الآدمى ، كما تعوق اليوم دعوة السلام المرموقة التى تتمناها العناصر الكريمة ، فى الكيان البشرى .. وها هم أؤلا وأولئك فى المحافل السياسية الجامعة يصارعون وهم التنابز والتفاضل ، وينازلون التفرقة العنصرية ، التى تثيرها ضراوة سياسية ، وفى عرض مواكب الحياة ، على الزمن نظل نجد آثارا من

هذه العصبية الحمقاء ، فى صور مختلفة ، وأفكار متنوعة ، وأسماء متعددة ، والأصل واحد ، مهما يختلف الشكل ، والمظهر ، والتعبير ..

واذا ما كانت هـذه البشرية بعد بضعـة عشر قرنا من العصر الذى تؤرخه ، لا تزال تتعثر فى أوهام هذا التفاضل والتنابز ، فأخلق بها أن تكون يومذاك أكثر تعثرا ، وأشـد تورطا ، وأحق بالرثاء لها ، والاشفاق عليها ، اذ أن مستواها العقلى والنفسى ، ومدى تقدمها الحضارى لا يؤهلها لأكثر مما تورطت فيه ، مما هو بالنسبة لهذا المستوى أيسر ممـا تتورط فيه هذه الانسانية اليوم ،على رغم الذى يبدو أنها قد بلغته من تقدم عقلى ومادى ، لم يكن من أحـلام تلك العهود ، التى نرقب فيها هذا التنابز بين المدينـة والعراق ، ذلك التنابز المسيىء ، الذى كرهت للقارىء أن يسمع شيئا منه ، قبل أن يتذكر شيوع هذه الآفة ، وقدمها ، واستمرار التورط فيها ، بل الخوف منها على المستقبل .

وقد اشتركت فى هذا التنابز القوى المعروفة فى التركيز والترويج ، فعيب العـراق كمـا عيبت المدينة ، ومجدت المدينة كما مجد العراق ، واشتركت فى تسجيل ذلك القوى الغيبية ، تحدث عن شيء من ذلك ، فى أثر يروى ، أو يسمى

حديثا ، كما اشتركت فيهـا القوى الوجـدانية ، بالشعر ورنينه ، والنثر وسجعه ؛ والتعليم وتركيزه ، وامتد الأثر — طبعـا — من الأرض الى النـاس ، ومن الآدميين الى التفكير ، ومن العقل الى النقل، فكان مروى هؤلاء مدخولا عنـد أولئك ؛ ومروى أولئك سـليما مقبولا ببدلهم — والقوم قد ورثوا العصبية داء فاتكا ، فكيف اذا كان التنابز والتفاضل ، الذى عرفته الدنيا عند كثيرين غيرهم ..

كل أولئك أدوربه حول الموضوع ، لأرده الى مثيراته وعوامله ، دون أن أخوض فى شىء من مكارهه ومقاذفه ، وأنا أرجو بذلك أن يهب القارىء ما قد يقع عليه من ذلك لهذه الآفة العامة ، والوهنة الشائعة فى بناء أولاد آدم ؛ ولو كان المتحدث بهذا — على روايتهم — اماما مجتهـدا ، وسيدا مرجوا « كمالك بن أنس » وغيره أيضا من وجوه السابقين واللاحقين .

ولقـد أرد هـذا التهاجى الحـاد الى أسـباب ، فى حياة أهله اذ ذاك ، من السياسة والانفراد بالدولة ، أو من الدنيا والاستئثار بالمادة ؛ مع حب المحمدة ، وعدم عصمـة الأنفس من مخاطرها ، لكننى آثرت أخيرا أن أترك من ذلك ما أورد ، وفسّر ، وعلل فى الترجمة المحررة لمالك — ص

١٥٩ الى ١٦٨ — وحسبك من شر سماعه ، وفهم ما يراد منه عندما يقضى الأمر بذكره ، ولقد شكا منه الشاكون منذ القرن الثانى الهجرى نفسه ، ولا نزال نجد فى هذه الشكوى مواساة ، يغنى ترديدها عن سماع ما نكره ، من أمر هذا التفاضل والتنابز ، الذى شمل الناس ، والأشياء ، والبلاد ، والثقافات والمرويات .. الخ حتى قيل فيه مثل قول « أبى العتاهية » — ت ٢١١ هـ — :

بكى شجوه الاسلام من علمائه
فما اكترثوا مما رأوا من بكائه
فأكثرهم مستقبح لصواب من
يخالفه ، مستحسن لخطائه
فأيّهم المرجو فينا لدينه ؟
وأيهمو الموثوق فينا برائه

ويرحم الله من أجمل القول فى وصف هذه المهاترات ، التى جرت بين من جرت بينهم من السلف ، علماء وغيرهم بأنها « مما لا يلزم المقول فيه ما قاله القائل فيه » . ونحن كنا مضطرون الى الخوض فى هذا لمعان هامة ، من فهم التاريخ ، وادراك الواقع ، وتقرير الحقيقة ، بل لفهم ما يقال وينقل ، من فكرة ومذهب ، متقين الانخداع ، بقريب

الاتهام ، أو متسرع الجرح ، الذى لم تتورع عنه تلك الفئات فى هذه الأوقات .

* * *

ونمضى من الحديث عن الحياة العقلية فى الحجاز الى ما تكتمل به الصورة من وصف : —

الحياة العقلية العامة : فنرى أن هذه الحياة الدينية القوية ، التى كانت تحياها الجماعات الاسلامية ، فى القرن الثانى الهجرى ، قد احتاجت الى علوم لخدمتها ، فكانت أبها تلك الدراسات النقلية ، الدائرة حول القرآن ، وحول ما خلف الرسول عليه السلام ، من آثار ، فى بيانه وتطبيقه ؛ وكانت تلك العلوم ، وما يتبعها من الدراسات اللسانية ، اللازمة فى دور التكوين والنماء الأول ، خلال القرنين الأول والثانى من الهجرة ، وكان لهذه الدراسات منهجها النقلى الخاص .

ثم نرى أن هذا الملك الفسيح ، وارث الأمم ذوات الحضارات قد دفع الأمة الاسلامية الى الصنف الآخر من الدراسات العقلية ، وهى العلوم الحكمية والفلسفية ، ذات المنهج العقلى . والتمس القوم من تلك العلوم ما عند الناس قبلهم ، ولا سيما الذين ملكوا أرضهم ، وجاسوا

خلال ديارهم ؛ ولعل حركة النقل والترجمة الظاهرة تساير حياة « مالك » أو تكاد .

وقد تبعت العناية بهذه العلوم الحكمية التقدم المدنى فى الحواضر ، قواعد الملك ، ونمت فى كنف الحاكمين بالشام طورا ، والعراق تارة . وهكذا كان اللقاح الجديد يسرى فى كيان الجماعة الاسلامية ، ويتفاعل المنهجـان : العقلى والنقلى رويدا رويدا ، ويظهر آثر هذا التفاعل فى بطء ... وقد أصابت طريقة الدراسات الدينية من : العقائد ، والفقه ، والأصـول ، وعلوم الحديث وغـيرها ، حظها من ذلك التفاعل ... واختلف نصيبها باختلاف البيئات والمناطق ، على ما يبين فى الدراسة الخاصة بذلك ، وهذا الفرق الثانى فى جملته ، هو بدء هذا النشاط وطليعة ظهوره .

وأما الدراسات الدينية النقلية ، التى سبقت الاشـارة اليها فقد كان النشاط فيها يشمل أنحاء العالم الاسـلامى المختلفة ، فبينما نرى فى الحجاز ، ولا سيما المدينة ، ذلك النشاط الذى تحدثنا عنه اذا بنا نرى نظائر لهذا النشـاط — على اختلاف فى النسبة — فى سائر المواطن ، ففى تلك الفترة التى ظهر فيها مالك لمعت أسماء شهيرة لأعلام فى تلك الدراسات القرآنية والحديثية ؛ بفضل هجرة الصحابة قبل

اليوم ، وانتقال التابعين كذلك ، يستوطنون البلاد الحديثة الاسلام ، أو يوفدهم اليها الخلفاء يعلمون أهلها القرآن ، ويروون لهم الحديث ، ولنأخذ مصر مثلا ، فنرى أنها لهذا العهد قد نزلها « ابن هرمز » — ت ١١٧ هـ — ، كما نزلها « أبو يونس » مولى أبى هريرة ، ت ١٢٣ هـ وكان فيها من المحدثين مثل « على بن رباح » أحد علماء زمانه ، ت ١١٤ أو ١١٧ هـ — و « موسى بن وردان المصرى » ت ١١٧ هـ و « يونس بن يزيد الأبلى » أوثق أصحاب الزهرى — ت ١٥٢ هـ — ، وعمرو بن الحارث الفقيه الحافظ الذى كان أحفظ الناس فى زمانه — ت ١٤٨ هـ — ومحدثها الشهير « أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة المصرى » ت ١٧٤ .. وغير هؤلاء من القارئين والحافظين .

كما كان بها الفقهاء والمفتون «كبكر بن سواده» الآخذ عن ابن عمر — ت ١١٨ هـ ؛ و « أبى رجاء بن حبيب » فقيه مصر ، وشيخها ومفتيها ت ١٢٨ هـ و « الليث بن سعد » الفقيه الجليل ، الذى يعنيه «مالك» حين يقول : و «أخبرنى من أرضى من أهل العلم ت ١٧٥ هـ ؛ وفهم من يقول : هو أفقه من « مالك » بل آثره الشافعى عند الموازنة بينهما ؛ وهو يرقد غير بعيد من الشافعى ، فى جنوبى القاهرة ، وهما الامامان ، فى اطلاق الناس الآن .

وفى كل اقليم كفاؤه ، من أصحاب هذا العلم الدينى ؛ فان دنوت الى العراق الذى تنابزه المدينـة وينابزها جاءك بوجـوه مـن المحـدثين ، كـ « الشعبى » ت ١٠٤ هـ ؛ و « العزرمى » ت ١٤٥ هـ — و « الأعمش » ت ١٤٨ هـ ؛ و « ابن عون » ت ١٥١ هـ ، وكثير غيرهم ، يظاهرهم أعيان من الفقهاء ، كالقضاة المشهورين : « اياس بن معـاوية » ت ١٢٢ ؛ و « ابن شبرمة » القـاضى الشاعر ، ت ١٤٤ ؛ و « ابن أبى ليلى » الذى قيل فيه : انه أفقه أهل الدنيـا — ١٤٨ هـ — والامام الأعظم « أبو حنيفـة » ت ١٥٠ هـ وكبار أصحابه : و « سفيان الثورى » الامام صـاحب المذهب — ١٦١ هـ — والحمادين : « حماد بن سـلمة » ت ١٦٧ هـ — ؛ و « حمـاد بن زيد » ت ١٧٩ هـ ، الذى يقاسم مالكا الامامة فى عصره .

وأنت واجد مثل هؤلاء فى اليمن ؛ ثم للمغرب نصيبه ، وللمشرق حظه ، مما يؤكد ما أشرنا اليـه من ان البيئـة الاسلامية كان يسودها نشاط جم فى الدراسات الدينية ؛ كما كانت — فى الوقت نفسه — تتلقى تأثيرا جـديدا من النقل والترجمة ، والتمثل للعلوم العقلية والفلسفية .

وهل اكتظاظ البيئة بهذا النشاط لا يجعـل الظهـور

والاشتهار محتاجا الى تفوق خاص لا يحتاج الى مثله من يظهر فى بيئة خالية يصول فيها وحده ويجول ؟ أحسب أن ظهور « مالك » فى هذه البيئة الحافلة بالعلماء الدينيين ، والدارسين لعلم الدين يكون شهادة له بقدر من هذا التفوق هيأ له الظهور بين كل أولئك ...

واكمالا لصورة الحياة التى يواجهها « مالك » بعد ما جلس للتعليم تتحدث عن :

الحياة الاعتقادية فى العصر : فانا نقدر أن الأصول الاعتقادية توجه النظرة القانونية الفقهية التى تريد تدبير الحياة ، ووضع أحكام لسلوكها ؛ كما نعرف أن المنزع الاعتقادى يؤثر على الأفق العقلى ومداه ، ضيقا وسعة ؛ والاعتقاد بطبيعته يثير التعصب له ، والميل القوى للشركاء فيه ، مما هو بعيد الأثر على كل عمل علمى للمعتقد ، سواء أكان قانونا فقهيا ، أم كان غيره .. وقديما بحث السالفون فى البدع والأهواء ،وأثرها على العدالة بقدر ما تثير من تعصب وميل ، تقديرا منهم لنواحى التأثير التى أشرنا اليها ، وهذا ما يجعل البحث عن الحياة الاعتقادية فى بيئة من تترجم له عملا واضح الأهمية ، بعيد الأثر فى الكشف عن موجهات تصرفه ، ودوافع سلوكه : عقلا ، وعملا ، وقلبا .. اذ المقالة

الدينية ، فى جوهرها ، ليست الا توافقا بين الشخص ، وبين ما حوله من الحياة ؛ وهو توافق يصور فى الوقت نفسه قوى الشخص المختلفة ، من وجدان ، وعقل ، وارادة ، توافقا يدل على درجة انحطاط هذه القوى فى الفرد ، أو رقيها فيه .

ومن هنا تكون الآراء الدينية عاملا جوهريا ، فى تمثل شخصية الانسان ، وفهم العوامل الكبرى ، المؤثرة فى حياته ، والصانعة لتاريخه ، كما أن لها هذه الأهمية الكبرى المؤثرة فى حضارة أمة من الأمم ، أو عصر من العصور بجميع ألوانها ، وكافة مظاهرها ، من فنية ، وعلمية وعملية ، لأنها — كما قلنا — ليست الا المظهر الوجدانى لتلك الأمة أو العصر ، وصدى فكر تلك الأمة أو العصر ، وأثر انفعال ارادة تلك الأمة والعصر .. وحسبك ذلك ملونا للحضارة ، وموجها للنشاط .

* * *

وهذا الفقه الذى يعد « مالك » أحد أئمته انما هو مظهر ذلك النشاط كله ، لأنه ينتظم أنواع القوانين المختلفة، التى تضبط العلاقات بين الجماعات والأفراد ، وتصور بأحكامها وموادهامدى تلك الأعمال والمعاملات بين

الجماعات والأفراد ؛ فلقد كان هذا الفقه يشمل القـــانون الأساسى النظامى . وأوضاع الحكم . ويشمل القـــانون الدولى بنوعيه : العام والخاص ، وعلاقات الجماعات بعضها ببعض ، كما يشمل أنواع القوانين المختلفة المنظمة لتصرفات الجماعة ، من قانون مدنى ، على اختلاف أبوابه ، وقانون جنائى كذلك ؛ وكل أولئك التصرفات والنظم تتصل بهـــا مبادىء المقالات الدينية ، والفرق الاعتقـــادية ، لأن تلك المقالات الاعتقـــادية انمـــا تدور على شيئين : الامامة ، والأصول ... والخلاف على الامامة يمس أسس الحـــكم ونظم الحكومة ؛ والخلاف على الأصول الاعتقادية الكبرى يمس حرية العمل ؛ وحرية العقل ؛ وبكل أولئك يكون الفقه — فى أى صورة من صوره — متصلا قهرا بهذه المقالات ، ومصطدما بها ، سواء أكانت لصاحبه مقالة معروفة ، ونحلة مشهورة ، ينشط لنصرتها ، أم لم تكن له تلك الصفـــة البارزة فى الميدان الكلامى ؛ اذ لا بد أن يخوض مع أصحاب تلك المقالات خلافا يدفعه ، أو وفاقا يؤيده ، وينتهى فى ذلك الوفاق أو الخلاف الى حكم يقرره ، ومسئولية يحددها . فصلة الفقه والفقهاء — كمـــا نرى — بالمقالات والمذاهب الاعتقادية صلة وثيقـــة ، بل عميقـــة وفى الوقت نفســـه

دقيقة ، يجب أن يقدرها مؤرخ الفقه ، والمترجم لأحد من أولئك الفقهاء .

ومن أجل ذلك نقول فنطيل نوعا ما ، فى وصف الحياة الاعتقادية فى العصر ، لأنها محور الحياة التى يواجهها « مالك » : انسانا ، وعالما ، ويتخذ فيها سبيله ، متصرفا ، ومعلما ، ومجتهدا اماما .

وقبل أن يرى « مالك » النور بأعوام طوال ، كانت قد ظهرت فى الحياة الاسلامية تلك الألوان المختلفة من المقالات الدينية المعروفة فى تاريخ الحياة الاسلامية ؛ فكانت هناك مدارس دينية ، وجماعات مذهبية ، من الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة .. ثم فى حياته كانت تجلجل أصوات المختلفين ، بصنوف من الدعاوى الغريبة ، والمذاهب الجريئة ، فحين كان المعتزلة يتحدثون فى الايمان والتوبة ، والاله وصفاته ، والعقل وحريته ؛ كانت آراء عن الحلول والألوهية تذاع فى جرأة عنيفة ، و « المقنع الخراسانى » سنة ١٦١ هـ — يدعى الربوبية بمرو ، ويقول لأشياعه : ان الله تعالى تحول الى صورة « آدم » ؛ ثم تحول من آدم الى « نوح » ثم الى صورة واحد فواحد ، من الأنبياء والحكماء حتى حصل فى صورة « أبى مسلم

الخراسانى » ؛ ثم انتقل منه اليه هو ... ويقبل قوم دعواه ، ويعبدونه ، ويقاتلون دونه ... كما كانت الشيعة الغالية تذهب الى آراء ، من صميم ما قالت الهند فى التناسخ والحلول ، ومذاهب اليهود والنصارى فى التشبيه .

وفى هذا الجو المائج الهائج تظهر الزندقة ، التى تكون تحللا من قيود التدين ، يغرى بها التحضر والرفاهية ، التى غمرت الجو ، أثرا لرواج اقتصادى واضح ، فيندفع الناس مع ذلك الى التحلل من قيود الدين ، اما تظرفا وتخففا ؛ واما مجونا وانتهابا للذات ؛ واما شكا وضجرا بالعقائد الغيبية ؛ ويظهر أن البلوى بذلك كانت قد عمت حتى أنشئت ادارة خاصة لتعقب الزنادقة ، كادارات المخابرات الآن ، فى عهد الخليفة المهدى ، فولاها الرجل بعد الرجل ، جدّا فى طلب الزنادقة ، والبحث عنهم ؛ ومن تتبع أسماء من ذكر ضبطهم فى هذا العهد ، نرى مع الشعراء وأصحاب الفنون القريبين بجوهم الى هذا التظرف والتهاون ، أشخاصا من رجال الدولة وأبنائهم ، فيؤخذ بالزندقة رجل كان كاتب المنصور ، ويؤخذ بها ابن حاكم البصرة ، فيرسل الى أبيه ، ويؤمر أبوه بتأديبه . بل نرى فى المأخوذين بالزندقة رجالا من الأسرة الحاكمة ، ونسمع اسم أكثر من واحد منهم ، يؤخذ أيام

الخليفة المهدى أيضا ؛ وهذا أحدهم قد استحل المحارم ، ووجدت ابنته بعد موته تقر بأنها حبلى من أبيها ، بعد ما أقرت هى وأمها على نفسيهما بالزندقة ؛ ويحتاج الأمر الى رحلة الخليفة «المهدى» ليجوز الفرات ويجمع الزنادقة ويقتلهم ، ويقطع كتبهم بالسكاكين .

وفى هذه الضجة الشاملة نرقب الفقهاء والمحدثين ، بخاصة ، لأنهم موضع عنايتنا الأولى هنا ، فنرى أسماء لامعة ، وشخصيات بارزة ، قد لصقت بها أوصاف مذهبية، وسمات طائفية ؛ « فأبو حنيفة » مرجىء تارة ، وشيعى زيدى تارة ، وقائل بمقالة من مقالات المعتزلة طورا ؛ وموصوف بالجهمية حينا . ثم كبار أصحابه كذلك مرجئة .. و « الحسن البصرى » قدرى ؛ و « مكحول » الشامى قدرى ؛ و « محمد بن اسحق » صاحب المغازى كذلك ؛ و « سعيد بن أبى عروبة » يقول بالقدر سرا ؛ وهو أول من دوّن الحديث بالبصرة ؛ و « ابن أبى ذئب » من القائلين بالقدر ، وقد يكذب عنه ذلك ؛ .. و « النخعى »و «طاوس» و « الأعمش » و « شعبة بن الحجاج » و «سفيان الثورى» صاحب المذهب ، والقاضى «شريك» و «وكيع بن الجراح» و « يحيى بن سعيد القطان » كانوا شيعة ؛ وغيرهم وغيرهم من أصحاب المقالات ..

وتلك هى الحياة الدينية ، والفقهاء والمفتون ، والقضاة، والمحدثون ، يمسون عقدها ، ويخوضون مشكلاتها ... ولا بد لمعرفة « مالك » من معرفة موقفه بين هؤلاء .

* * *

ثم هنالك من نواحى الحياة الدينية التصوف والمتصوفة، فى ميدانهم من الزهد ، والورع ، بمسلك خاص يختلف عن مسلك الفقهاء وأمثالهم من أهل الشريعة ؛ وهؤلاء الأتقياء المتعففون الآخذون بطرائق الصوفية يشاركون فى الحياة العلمية أو يحكمون على أصحابها الفقهاء وغيرهم ، ويعدون مسلك الفقهاء موضع انتقاد منهم حتى لقد يقولون بأن الاشتغال بالفقه والحديث مثلا مخل بالمروءة .

وفى القرن الثانى حين يواجه « مالك » الحياة نجد كثرة وافرة ، من رجال المتصوفين ونسائهم أيضا ؛ من وجوههم : « مالك بن دينار » ت ١٢٧ ؛ و « ابراهيم ابن أدهم » ت ١٦٢ ؛ و « داود بن نصير الطائى » ت ١٦٢ ، و « عبد الله بن المبارك » ت ١٨١ و « الفضيل بن عياض » ت١٨٧ ؛ . ومن السيدات «رابعة العدوية» ت١٣٥ أو ١٨٥؟، و « عائشة بنت جعفر الصادق » ت ١٤٥ ، وغيرهن وغيرهم ، نسمع أقوالهم عن الفقه والحديث وأهلهما فاذا « ابراهيم

ابن أدهم » قد بلغ رتبة الاجتهاد ، ولكنه لم يتكلم فى العلوم، فترك الفقه بعد هذا الجهد فى دراسته ؛ و «داود بن نصير» يبرع فى الفقه ثم يعتزل الحيـاة .. و « أبو سـلمة مسعر بن كدام » يسمى المصحف لاتقانه ، ويدعى الميزان لنقـده وتحرير لسانه ، وقد نقل عنه أنه كان يقول : من أبغضنى فجعله الله محدثا ...

وهؤلاء المتصوفة يكرهون الاتصال بالحكام ، وملابسة السلاطين ، ويتشددون فى ذلك حتى نرى «وهيب بن الورد» الصالح المحدث — ت ١٥٣ — لا يأكل مما فى الحجـاز ، تورعا عما اصطفاه الولاة ، لأنفسهم ومواشيهم .

وهذا المعنى من مجافاة الحكام ، وكراهية العلم الذى يؤدى الى الاتصال بهم ، هو معنى قد يتشدد فيه أكثر من الصوفية ، بعضُ المتطرفين من أصحاب المقالات الدينية ، فهذا « عيسى بن صبيح » المسمى راهب المعتزلة : يكفّر من لابَسَ السلطان ، ويزعم انه لا يرث ولا يورث .

ومهما يكن هذا التشدد من المتصوفة وغيرهم تشددا متطرفا ، فانه ينبغى أن نقدره حين نعرض لتصرفات «مالك» وأصحابه الفقهاء ، فى معـاملة حكام عصرهم ، وملابستهم اياهم ، وافتائهم لهم .

ويزيد الأمر بيانا بعد الذى قدمنا من وصف الحياة العقلية فى العصر بعامة أن ننظر نظرة خاصة الى :

الحياة الدينية فى الحجاز : فنجد أن نصيب البيئة المدنية من المقالات المذهبية الدينية ليس قليلا .. وأضع أمام القارىء محاولة أساسها الاحصاء لمعرفة حظ كل قطر من الأقطار الاسلامية ، فى هذا العهد ، من انتشار المذاهب الاعتقادية ؛ هى محاولة لا يعيبها إلا ما يعيب الاحصاء دائما ، من أنه تقريبى ..

وهذه المحاولة انما هى نظرة فيمن سمى من أرباب المقالات فى القرن الثانى ، على قدر ما وصلت اليه اليد من مصادر التراجم ، فجمعتُ من تلك الأسماء ما استطعت، ممن عرفتُ موطنه ، وتاريخ وفاته ، فكانت النتيجة كما يأتى :

اجتمع لى من الشيعة (٣٤) أربعة وثلاثون ، كان منهم واحد وثلاثون عراقيا ، أى بنسبة ١/٦ ٩١ ٪ تقريبا ، ومنهم حجازيان اثنان أى بنسبة ٦ ٪ تقريبا .

واجتمع لى من المرجئة فى هذه الفترة نحو ثلاثة عشر رجلا ، منهم عشرة عراقيون ، أى بنسبة ٧٧ ٪ تقريبا واثنان فقط حجازيان ، أى بنسبة ٣/٥ ١٥ ٪ ؛ وواحد شامى فقط أى بنسبة ٩/١٣ ٧ ٪ تقريبا .

ووجدت من القدرية اذ ذاك نحو ثلاثة وثلاثين رجـلا منهم سبعة عشر عراقيا ، أى بنسـبة ½ ١٥ ٪ ووجدت بينهم عشرة حجازيين أى بنسـبة ½ ٣٠ ٪ تقريبا ؛ ومنهم ٦ ستة شاميون ، أى بنسبة ⅕ ١٨ تقريبا ، فيكون نصيب العراق ، من المرجئة والقدرية والشيعة جميعـا ، أكثر من نصيب الحجاز كثيرا ؛ وان كانت نسبة القدرية فى الحجاز لهذا العهد لا تتفق مع ما ينقل عن « ابن تيمية » من : أن أكثر الخوض فى القدر كان بالبصرة والشـام ، وبعضه فى المدينة ، لأننا رأينا أن ما بالمدينة على هذه النسبة يقـارب ضعف مابالشام من ذلك وان تكن هذه النسبة اعتبارية .. على أن هذا الاختلاف ربما كان بعد القرن الثانى ، الذى يدور الكلام عليه وحده هنا .

وعلى كل حال فللمدينة فى هذا العهد تلك النسبة المئوية الواضحة من القدرية ، التى تدل على تفشى هذه المقالة بها ، حتى ان ادارة المخابرات المذهبية — التى أشرنا الى انشائها فى عهد الخليفة المهدى — قد تنبهت الى ذلك ، فأخذ أهـل القدر بالمدينة وضربوا ونفوا ، وحين كتب الخليفة المهدى ، الى عامله بالمدينة أن يحمل اليه جماعة اتهموا بالقدر حمل اليه منهم رجالا ، تسمى رواية « ابن جرير الطبرى » منهم

أربعة ، بينهم من اسمه « عبد الله » وجد أبيه هو الصحابى « عمــار بن ياسر » وقد انبرى عبــد الله هــذا من بين المقبوض عليهم ، « للمهدى » وناقشه مناقشة لها دلالتهـا على التمسك بهذا القول ، وعلى انتشــاره مع ذلك ، فى الأسرة الحاكمة نفسها ، ولذا ننقل هذه المناقشة كما وردت :

عبد الله (للمهدى) : هذا دين أبيك ورأيه

المهدى : لا .. ذاك عمى داود

عبد الله : لا .. الا أبوك ، على هذا فارقنا ، وبه كان يدين .

والى هنا أفحم المهدى ، وأطلق سراح المقبوض عليهم .. واذا كان الأمر على ما قال ابن حفيد « عمار بن ياسر » ففيم الأخذ والنفى اذن !! ثم فيم يؤلف « مالك » نفسه بعد ذلك فى الرد على القدرية بخاصة ؟!

واذا ما كانت المدينة بمثل هذه الروايات قد تفشت فيها القدرية ، فانا نجد كذلك من الروايات المنقولة ، ما يجعل المدينة مصدر القول بالارجاء ، اذ أول من قال بالارجاء هو : « الحسين بن محمد بن على بن أبى طالب » المدنى ، وكان يكتب فى الارجاء الكتب ويرسلها الى الأمصــار .. واذا ما رووا بعد ذلك أن «الحسين» هذا قد ندم على تصنيف

كتابه الذى صنفه فى الأرجاء ، فان هذا الندم لا ينفى أولية «الحسين» هذا فى القول بالارجاء ، وأن المدينة مصدر هذا القول ، ومحور الدعوة اليه بمنشورات مكتوبة ، ثم بما رأينا من انتشار المقالة ، والدفاع عنها بين السيف والنطع ، واقناع الخليفة نفسه بها .

والقدرية ، هى الصورة الأولى للاعتزال ، تلقاها المعتزلة عن القدرية فى أولى صورها ثم دُعوا معتزلة ، فاذا كانت للمدينة صلة بالقدرية ، وللقدرية انتشار فيها ، فمعنى ذلك القريب : أن للمدينة صلة بنشأة الاعتزال ، الذى هو فى حساب التاريخ صورة الحرية العقلية ، وأصل القول بالمسئولية ، لكن الاعتزال بعد ما تطور لم يكن مقره المدينة ، بل صار مركزه الأكبر بغداد .

والمعنى الذى أشير اليه هنا فى الفقرة السابقة ، من أن القدرية أصل الاعتزال ، وان الاعتزال أصل القول بالمسئولية ، هو معنى نقف عنده ، وان لم نجد المجال لشرح المذاهب الكلامية تفصيلا هنا .. فالقدرية تحمل العامل مسئولية عمله ، لترفض وتقاوم فعل الملوك حين يسفكون الدماء ، ويأخذون الأموال ثم يقولون : انما تجرى أعمالنا على قدر الله .. فيجعلون الأفعال لله ، لينالوا من الناس بذلك

ما يشاءون ؛ والقدريون أصحاب المذهب يجعلون الأفعال للناس ليحملوا الملوك مسئولية أعمالهم ...

ومما ينبغى أن يلحظ فى صلة ما بين السياسة وهـــذا القول فى أفعال العباد مظهران :

أولهما : ان العادلين من الخلفاء كانوا يقولون بالقدر كالخليفة « يزيد بن الوليد » الأموى الذى عرفت له نوايا دينية حسنة حتى انه قتل سلفه لالحاده ؛ هذا الخليفة الذى يعد صنو « عمر بن عبد العزيز » فى العدل ، قيل انه كان قدريا ، وكان للقدرية عليه تأثير فى تصرفاته .

وثانى المظهرين : هو صلة المذاهب الاعتقادية بالسياسة، اذ ترى الى جانب ما سبق من قدرية العادلين ، أن القدريين من العلماء كانوا دعاة للسياسيين القدريين ، فهذا « عمرو ابن عبيد » شيخ المعتزلة الكبير ، والزاهد المعروف ، كان داعية من دعاة يزيد الخليفة الســـابق ذكره ، فهذا يؤيد ما سبق من ان للقدريين تأثيرا على تصرفات الخليفة «يزيد» بما يقرب بينه وبينهم ، من المذهب المشترك .

وبكل أولئك تبين أن « المدينة » لا تستطيع أن تقول بجرأة عن العراق تلك الأقوال العنيفة مثل : أن من العراق خرجت الخوارج ؛ وفيها أعتزلت المعتزلة ، وظهرت القدرية،

وقامت الجهمية ، وبها كان «المختار بن أبى عبيد الكذاب» الخ مما تتنابز به العراق والمدينة ؛ لأنا قد وجدنا أن للمدينة حظها من الفرق الدينية والمقالات المذهبية ، مما لا يسعفها على تأييد دعوى التميز على العراق ، فى الحديث وروايته ، .. على رغم ما قد يكون من أن العراق كان عشا للتشيع ، ومستقرا للاعتزال ، وحظه من المرجئة ، أكثر من حظ الحجاز ، فيما تدل عليه الفترة الاحصائية السابقة .

ولكن ينبغى حين نقرر هذا أن نذكر أن قيام الدولة فى العراق الى جانب ظروف البيئة الطبيعية ، ان كان جديرا بشىء من نشاط مذهبى خاص ، فانه كذلك قد جعل العراق بمركزه السياسى هدفا لتهم اعتقادية وأعمال سهل التسليم بها مع عدم صحتها ، لأن الخلفاء فيه ، بطبيعة مركزهم ، موضع للسخط والاتهام بالحق وبالباطل ، ولا سيما حين يخرج عليهم المخالفون لينتزعوا السلطة من أيديهم ، فيتهمونهم بما شاءوا من الانحراف عن الدين ..

ومع أنى لا أجد الفرصة لتحقيق تاريخى خاص ببعض هذه الاتهامات الموجهة للعراق ، فانى أجمل الاشارة الى تهمة من هذه التهم شديدة الخطر ، وقد

تورط فيها مؤرخون أجلة كالطبرى وابن الأثير ، فأوردوها فى نص خطبة «لمحمد : النفس الزكية» الذى سمعنا خروجه على المنصور ، ونقلها عنهم محدثون فينا ، مع بطلان أساس هذه التهمة بالنقد المادى للنصوص المتضاربة المتعارضة . من كلام هؤلاء المؤرخين القدامى أنفسهم ، وتلك التهمة هى أن المنصور سعى الى تصغير أمر العرب، واعظام أمر الفرس، ومن جملة مساعيه فى ذلك ، تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين، فبنى بناء سماه القبة الخضراء جعله حجا للناس — والنقد التفصيلى لهذه التهمة وارد فى كتاب«مالك بن أنس : ترجمة محررة » ص ١٨٨ — ١٩٦ — وفى توجيه مثل هذه التهمة ووجودها فى الكتب القديمة دون فحص ولا ادراك لتناقض النصوص ، ما يدلنا على ما كانت تتجه اليه النفوس من التفريق بين الحجاز والعراق ، لأسباب سياسية عند الحجازيين ، وأسباب اجتماعية عند العراقيين ، فالحجازيون ينفسون على العراق مكانته السياسية ، والعراقيون ينفسون على الحجاز مكانته الدينية ، وقد عمل العباسيون على نقل أجلة العلماء من الحجاز الى العراق ، وكانت لهم محاولات مع « مالك » نفسه ؛ ومثل هذه المنافسة مما يجب تقديره

عند سماع تهم هؤلاء لأولئك ، وأولئك لهؤلاء ، وحساب أثرها فى التزيد والقذف بالباطل ..

* * *

ومن الخطوط الكبرى فى صورة الحياة التى نتحدث عن مواجهة « مالك » لها :

الحياة الاجتماعية فى العصر : بأوسع معانيها ، فتشمل المركز السياسى والنظام الاجتماعى والمستوى الحضـارى للحياة ، والمجال الاقتصادى . الخ ، وهـو ما نعرض من وصفه صورة مصغرة الملامح ، مع وضوحها وضوحا كافيا .

فأما المركز السياسى : فالأمة الاسلامية ، عصر «مالك» كانت تتمتع بمركز عالمى ممتاز ، فحين ولد « مالك » فى أصيل القرن الأول الهجرى ، كانت نسائم المحيط الأطلنطى تداعب الأعلام الاسلامية الخافقة على شـواطئه بالأندلس غربا ، وذلك حين كانت كتـائب المسـلمين قد ساورت القسطنطينية ، هامة الشرق ، مرارا ؛ ثم فكر فاتح الأندلس أن يمضى من أقصى الغرب مشرقا ، حتى يصـل أسـوار القسطنطينية ... على أن ذلك المطمح وان تأجل فقد تم جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسـلامية ، وتوغل الدعاة فى البارز من شواطئه نحو الجنوب ، فاستقروا فى صقليـة ،

واقتحموا جنوب ايطاليا ، حتى عرف منها المحدث القلورى — من كلابريا — وفى الوقت نفسه كان التيار يخترق أقصى المشرق ممعنا فى حدود الصين ، وختَن أبناء ملوكها ، وحملوا الى الفاتحين ترابها لتدوسه القدم الاسلامية ، تحلة يمين أقسموه .

* * *

وفى حياة « مالك » أيضا تقسمت امبراطورية الاسلام الفسيحة دولتان : الأموية الهاربة من الشرق تستقر بالأندلس فى أقصى الغرب ، والعباسية تتوطد فى الشرق ، والعداء بين الدولتين مستحكم بطبيعة الموقف ، وقد يئست العباسية ، من القضاء على دولة الأمويين الفتية فى الغرب ، فلم يبق الا المصير الى توازن سياسى بين شرق العالم وغربه ، يضلع فيه الشرقى المسلم وهو الخليفة العباسى ، مع الغربى المسيحى ، الذى يناوىء جاره المسلم ويناوئه المسلم فى الأندلس ومنها ، وهو رأس الدولة الرومانية المقدسة.ويضلع فيه الغربى المسلم وهو الخليفة الأموى مع الشرقى المسيحى، الذى يناوىء جاره المسلم ويناوئه المسلم فى بغداد ، وهو رأس الامبراطورية الرومانية الشرقية بالقسطنطينية، وهكذا جرى هذا التوازن فى تقابل يهدى فيه الرشيد الى شارلمان

ويصله ، وتهدى فيه الأموية الى القسطنطينية وتصلها — ومع هذا الانقسام الاسلامى ، والتقّوى بالأجنبى ، فان قب الميزان السياسى للعالم كان فى اليد الاسـلامية ؛ والقوى السياسية فى العالم تلوذ من السيطرة الاسـلامية بملاذ من الشرق والغرب .. ومثل ذلك خليق بلا مراء بأن يشعر المفكر المسلم — ولا سيما فى القانون العام والخاص — بالعزة التى يدير عليها معاملته للناس ويؤدى معها واجبه نحوهم .

* * *

وندع المركز السياسى الى البيان الاجتماعى ، لننظر فى : كيان المجتمع الاسلامى : فى الحال التى كان عليها فى القرن الثـانى الهجـرى ، بعد استبحار الملك ، واستيساق السلطة ، وغلبة الكلمة ؛ وقد جاء هذا المجتمع من أموال الدنيا ما نزحته تلك الفتوح من خزائن المغلوبين ؛ وما حمل الى هذا المجتمع من أصنـاف السرارى ، والرجال ممن يساقون أسرى أرقاء ، يأخذون مكانهم فى هـذا المجتمـع موالى للسادة العرب فيه .

والعرب قد خرجوا الى الدنيا هذه الخرجة الفاتحة ، وريح العصبية تملأ معاطسهم ، والاسلام يشعر بهـذا من أمرهم ، فيصدع فيهم بالرأى جاهرا : ليس منا من دعا الى

عصبية .. ولكن المثال وما ينبغى ، شىء ؛ والواقع الصارخ شىء آخر ، فقد مضى هؤلاء يمارسون سلطة الفاتحين ، بعقلية تقسم أنها رأت أعناق العرب ، وأعناق الموالى تضرب على وهدة من الأرض فاذا دم العربى يمتاز عن دم المولى ، حتى يرى بياض الأرض من بينهما ، واذا كان هجينا قام فوقه ، ولم يعتزل عنه ..

وكانت هذه العصبية المسرفة المتطرفة خليقة بأن تحدث رد الفعل العنيف بظهور الشعوبية ، وحدة مقاومتها لغطرسة العصبية ، على ما نعرف فى التاريخ الاجتماعى والأدبى فى هذه الحقبة ، التى تؤرخ فيها حياة الرجل الفقيه ..

وكان هذا الشد والجذب العنيف ، كافيا وحده لزعزعة الكيان الاجتماعى لتلك الجماعة الاسلامية ، المؤلفة من عناصر شديدة الاختلاف فى الدماء والأصول البشرية ؛ لكن السياسة تضيف الى ذلك عوامل أشد هزا وزعزعة لهذا الكيان ؛ اذ نرى خلاصة العرب ، من الهاشميين ، يريدون أن يصلوا الى السلطان ، وينتزعوا الحكم من منافسيهم الأمويين ، فيستنصرون بالفرس مواليهم ، ولا بأس عندهم بأن يبيدوا العنصر العربى نفسه من منطقة النفوذ ، التى يدبرون فيها لتكوين قوة الوثوب ، فنرى عند اكتمال

شباب مالك أن « ابراهيم » الامام وهو عباسى قرشى ، يوصى « أبا مسلم الخراسانى » الفارسى الحاقد على العرب الذين أزالوا دولة قومه ، واتخذ هو الدين والمذهب الشيعى وسيلة للتغلغل فى دولتهم .. يوصيه سنة ١٢٨ هـ فيكون من وصيته ما نصه : « وان استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل »

وترسخ مكانة الفرس ، بل سواهم من الموالى أيضا فلا يمضى نصف قرن على حديث هذه الوصية حتى يجأر العرب بالشكوى الى الخليفة المهدى العباسى ، الذى تأسست دولته على قوى فارسية ، فيقول العرب فى شكواهم : « يا أمير المؤمنين ، انا أهل بيت ، قد أشربت قلوبنا حب موالينا وتقديمهم ، وانك قد صنعت من ذلك ما أفرطت فيه : قد وليتهم أمورك كلها ، وخصصتهم فى ليلك ونهارك ؛ ولا نأمن تغيير قلوب جندك وقوادك من أهل خراسان » . فيقول المهدى : « ان الموالى يستحقون ذلك . » ويبين وجه استحقاقهم هذا الايثار ، وهو استحقاق آصل وأقدم مما يبينه « المهدى » فى قوله هذا ، اذ كان هؤلاء الموالى هم صانعو هذه الدولة وخالقوها ، الذين قال لهم أجداده : اقتلوا كل عربى فى خراسان .

فمثل هذه العوامل التى كان يغلى بها المجتمع الاسلامى فى عصر حديثنا هذا ، تكشف عن اضطراب فى كيـان هذا المجتمع ، تذكيه السياسة ، التى لا دين لهـا ، ولا قلب .. فيتجسم للناظر فى هذا المجتمع أنه مجتمع غير متجانس . دما ، أو شعورا ، أو أملا ، أو ماضيا وتاريخا .. هو مجتمع يتألف من آريين فى الشرق ، وساميين فى الغرب يكونان الجناحين الكبيرين لبغداد ، العاصمة ، التى تقوم مقـام القلب ؛ وفى ثنايا الجانبين توزعت شماطيط مختلفة ، كمـا تتنازع الألوان ريش الجناح الواحد ، فمن بيضـاء ، الى صفراء وسوداء الى غير ذلك من العناصر المختلفة : ترك .. وتتر .. وسودان وحبش — وهكذا لم يكتمـل تجانس المجتمع الاسلامى اذ ذاك فى كبرى صوره ، كما لم يكتمل تجانسه فى نواته وصغرى صوره ؛ فدور الدرب الواحـد تتألف كذلك من عناصر مختلفة ؛ قد يقوم فى كل دار منها عنصر ، بل تقوم فى الدار الواحدة والأسرة الواحدة عناصر متعددة ؛ فيها العربى السيد رب الأسرة ، والزوجة العربية حينا ؛ ثم الجوارى التركيات والروميات ، والصقليات .. و .. و .. من سائر أجناس الناس شرقا وغربا .

والأمر كذلك فى حلقـة الدرس ... وفى دار الصنعة ،

وفى كل خلية من خلايا هذا المجتمع ؛ بل الأمر هـكذا فى الفرد الواحد ، تنزعه عروق مختلفة ، فهو عربى وفارسى ؛ أو فارسى ورومى ؛ أو تركى وهندى ؛ ذلك أبوه وتلك أمه ، ووراء ذلك مؤثرات مختلفة من جنس حاضنته ، ومثقفته ، وخادمته معاشرته .

و « مالك » هذا الذى نقول ذلك كله لفهم الحياة التى يواجهها ، تتبلور فى كيانه تلك المشكلة من عدم التجانس ، ووضوح الاختلاط ، فلو تناسينا أن آباءه من الموالى ، ورجحنا عربيته ، ويمنيته ، وأصبحيته ، بقيت أمه ، التى هى مولاة فى رواية ، والتى لم يتيسر القطع بشىء حتى عن اسمها ، وهى فيما شهدنا قوية التأثير عليه ، واضحة التوجيه له ؛ ومن يدرى من أى أصناف الناس كانت هذه المولاة ؟!

وعدم التجانس بهذه الدرجة عنيف الأثر على كل شىء : على العقيدة ؛ وعلى العمل والسلوك ؛ وعلى الفن والوجدان ، وعلى .. وعلى .. من كل نشاط الحياة ؛ وهو أبين من أن يوقف عنده أو يضيع وقت بيانه .

والبوتقة الاسلامية مهما تجمع هذه العناصر كلها وتسلط عليها مؤثرات الأصول الاسلامية الكبرى ، فلن

يكون انضاج الكيان الموحد يسيرا قريب التناول . تكفيه عشرات السنين ، أو تكمله عدة أجيال ؟ وكيف وهــــذه السياسة الفاجرة تدفع العرب الى الفتك بالعرب ، وتأييد الفرس فى ولاية الأمور كلها ، والاختصاص بالسلطان ليله ونهاره !!

والى ما لعدم التجانس من أثر فى هذا المجتمع ، وعدم تماسكه ، تزعزع كيــانه غير المتماسك حقيقــة" اجتماعية قاسية تشطره شطرين ، وتصدعه فرقين :

سيد مستعل ؛ ومسود مستذل ، وتلك الحقيقة هى : الرق .. والرق ان يكن مرحلة اقتضاها نظــام الحيــاة فى حين ما ، فقد بالغ فيه المجتمع الاسلامى ، واستكثر منــه شرعيا وغير شرعى ، فكانت مشكلة الموالى التى لا نبالغ اذا عددناها محور التاريخ الاسلامى الاجتماعى والسياسى .. فقد تميزت حقوق السادة وواجباتهم عن حقوق العبيــد وواجباتهم ، وتباعدت الهــوة بينهما ، وتأصلت الوجيعــة النفسية فى قلوب الذين يعدون أشياء وأمتعة تباع وتشرى .

وتتتبع ذلك فى حياة العلمــاء والفقهــاء الذين نعيش الآن فى جوهم : فهــذا « أبو حنيفة » يروى أن المنصور عرض عليــه القضــاء فقــال له : « لا أصلح لذلك لأنى

مولى ، ولا يقضى بين الناس الا ذو شرف فى قومه » ، فمهما يقصد « أبو حنيفة » الى التهرب من تولى القضاء فلن يهون على نفسه ، هذا التعليل ، وان يهن عليه أمام « المنصور » فلن يهون عليه أبدا أن يقول له رجل من بنى تيم : أنت مولاى ، فيرد عليه « أبو حنيفة » ردا صادق الترجمة عن شعوره اذ يقول له : أنا والله أشرف لك ، منك لى .

ثم هذا الفقيه المحدث الثرى « الليث بن سعد » يقول له « أبو جعفر » أيضا : تلى لى مصر ؟ ، فيقول له : « لا يا أمير المؤمنين انى أضعف من ذلك ، انى رجل من الموالى » .

وأكثر من ذلك فى وصمة الرق ، أن يشيع بينهم وصل العقل بالشرف ، واختصاص الأشراف بقوة التعقل ، فيكون من قولهم السائر : ان ذوى الشرف أتم عقولا من غيرهم .

والى جانب ذلك مانراه من اعتزاز الأحرار بحريتهم ، وغضبهم أشد الغضب اذا قذفوا بالولاء .. وهذا « مالك » قد كان بينه وبين « ابن اسحق » ما كان من مباغضة لأن « ابن اسحق » قال : ان « مالكا » وأباه ، وجده ، وأعمامه موال لبنى تيم بن مرة ، فكان ذلك سببا لأزمة حادة بينهما ، نعرضها فى مكانها بعد ، وكل ذلك لأنه دمغه بالولاء .

ولو سمعت « اسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة » حفيد الامام ، الذى عاش الى أوائل القرن الثالث الهجرى — ت ٢١٢ هـ — حين يقول : أنا اسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان من أبناء فارس الأحرار ؛ والله ما وقع علينا رق قط .. وهى عبارات تجسم حروفها نبرات من ألم الدمغ بالرق ؛ وتصرخ بما تأوه به جده « أبو حنيفة » حين قال : للعربى التيمى الذى عده مولى له : أنا والله أشرف لك منك لى .. !!

واذا كان هذا شعور أهل العلم ، بل العلم الدينى ، الذين قد يكونون أقل عصبية ، وأدنى الى فهم روح الاسلام ، وأفهم لمعنى الكرامة العلمية ، وأنها أفضل من كرامة النسب ؛ فكيف يكون شعور غيرهم ممن لا يلطف وقعَ الرق عليهم شىء من هذه المعانى الدينية والعلمية ؟ .

وهذه الشواهد التى تنفث السخط قد كانت حوالى منتصف القرن الثانى وأواخره، أيام كانت العصبية قد فترت نوعا ما بقيام الدولة العباسية ، التى قتلت العرب ، وقدمت الفرس الى حد مسرف .. و «مالك» قد عاش قبل ذلك نحو نصف قرن من الزمان فى حكم الأمويين ، والعصبية أكثر عنفا والتهابا ؛ كان الجمهور معه يغضب حين يؤم الناس ،

أو يقضى بينهم غير عربى ، فيضج أهل الكوفة ، على بعدها عن البيئة العربية ، لأن «سعيد بن جبير» على جلالة قدره ، يولّى القضاءَ بينهم .

* * *

ويكمل الصورة عن هذا المجتمع ما كان يخضع له من :

نظام الحكم : وهو — كما نعرف — نظام حكم فردى تيوقراطى ، يتخذ فيه الحاكم ، خليفة أو سلطانا ، ما يستطيع من صفة دينية . ولو تجاوزنا عن هذه التيوقراطية لأن الاسلام لا يمكن منها كثيرا لبقيت الفردية الاستبدادية طابع هذا الحكم وميزته ، فهو حكم فرد ، فى يده سلطة مطلقة — يصرفها هو ومن حوله من أعوان يختارهم — وبهذا الوضع يزيد تصدع المجتمع ، الذى أسس له عدم التجانس ، وثبته الرق ، وزاد شره الحكم ، فالحاكم وأسرته وأعوانه طبقة ممتازة ؛ وتليها طبقة أخرى هى : الأجناد والأعوان والخدم ، لهم نفوذ من نفوذ سادتهم ، يعزون بعزهم ، ويذلون بذلهم ؛ والشعب بعد ذلك من زراع وصناع هم الطبقة الثالثة ؛ سواء فى ذلك علماؤهم ، وفنانوهم ، وأصحاب الأعمال كلها ...

فالطبقة الأولى بفسادها الخلقى ، أو اعتدالها الشخصى ،

هي وأعوانها من الأمراء والوزراء وذوى الجاه ، هم الذين يصنعون التاريخ السياسى ، ويوقعون تأثيرهم على غير ذلك من مظاهر اجتماعية ، تضل وتختفى فى خبايا التاريخ المدون ، الذين لا يسجل الا شئون هذه الطبقة ، أو هى والطبقة التالية من الأجناد — وقد يدنى هؤلاء منهم من يثبت به سلطانهم ، كالعلماء والفنانين ليغنى الأولون الجماهير ، ويؤثر الآخرون عليها .. وأما الطبقة الثالثة فهم الذين يستغلون ويجبون ويسخرون .. الخ .

على أن هذا النظام الفردى الاستبدادى لم يستطع الشعب السكوت عليه ، دون البحث عما يعدله ، وربما أنه نظام يحاول الاستعانة والتأييد ، بالدين وأهل الدين ، فان فى الصالحين منهم قوة مذخورة للحد من هذه الفردية المستبدة . وبخاصة مع ما يتقرر دينيا ، من واجب اجتماعى، من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

ومن هنا ظهرت فى التفكير ، وفى العمل جميعا ، قوة تحمى النظام ، وتوقف الطغيان ، وهى : أن علماء الدين هم ورثة الأنبياء ، فى حماية الشريعة . ورأينا من أقوى ما يرسخ هذه الفكرة ويؤصلها ، مثل قول « مالك » : « بلغنى أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء » وتنوقلت

فى هذا المعنى مرويات كثيرة ، ترقى الى مرتبة الحديث ، أو تكون آثارا ... واستقرت الفكرة النظرية فى أن علماء الدين يمثلون سلطة الشعب فى هذا النظـــام ، وينطقون بصوته فى المعارضة لما يقع من ظلم .

اما من الوجهة العملية الواقعية فقـد يوفى العلمـــاء بواجبهم هذا ، بل يؤدونه ببطولة ، تدفعهم الى أن يقذفوا الظلم برءوسهم ، وكثر ما يجهر الشجعان منهم بالانتقاد ، والنهى عن المنكر ، أولا أقل من وعظ الخلفاء على قسوتهم . وكذلك نجد فى الحياة الاسلامية مواقف موفورة تصارعت فيها السلطتان : سلطة الحاكم المطلق ، وسلطة الشعب ممثلة فى أحد علماء الدين .. ومثل هذا الوضع المرهون بشخصية عالم الدين ، دون ضمانة أخرى ، يقع فيه — غير قليل — تقصير ممثل سلطة الشعب ، وخســـارة الشعب بذلك خسارات كبرى ، وهو جذب ودفع حبذا استقصاء تاريخه .

ونذكر أن هذا المركز الذى وضعت فيه سلطة الشعب أمانة فى عنق عالم الدين ، الذى هــو أشـد الناس معرفة بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هذا المركز قد جرّ الى الحديث عن مخالطة السلطان وخطرها على هــذا الواجب فى تمثيل سلطة الشعب ، فوردت الآثار فى تحذير

العلماء من مداخلة السلطان ، وتوسعوا فى ذلك حتى ورد :
« اذا أتى الرجل مجلس القاضى ثلاثة أيام بلا حاجة ، فينبغى ألا تقبل شهادته » .

وقد سمعنا قبل ، أن التطرف فى هذه الفكرة ، حماية لسلطة الشعب ، وضمانا لصوته ، قد أدى الى تكفير ملابس السلطان — أى مخالطه — وأنه لا يرث ولا يورث ؛ والمعتدلون يكتفون بأن يقرروا : ألا يؤتى السلطان الجائر ، أما العدل منهم فمداخلته ، ورؤيته وعونه على الصلاح ، من أفضل أعمال البر ...

وسنعرض الى ما وقع من ذلك عملا ، فى مكانه من وصف شخصية « مالك » فى جوانبها المختلفة .

***

والآن نتحدث عن :

مستوى الحياة فى هذا العهد : — أو الحياة الاقتصادية للعصر ، وما يكون لها من أثر على الأخلاق العامة ، وأسلوب ممارسة المعيشة ... وفى هذا العصر — أواخر القرن الأول وأكثر القرن الثانى — كانت حركة الفتح الاسلامى قد فترت ، وجنح المسلمون الى جنى ثمار انتصاراتهم السابقة ، فأمسوا كما قال ابن خلدون : « لما

جاءهم الترف ، وغلب عليهم الرفه ، مما حصل لهم من غنائم الأمم ، صاروا الى نضـــارة العيش ، ورقة الحـــاشية ، واستحـــلاء الفـــراغ » فبدا ذلك فى كل شىء ، من ظواهر حياتهم : سمقت المبانى الضخمة ، تزينها النقوش المتفننة ، نموه بالذهب ، وما اليه ، وتجتلب لها النفائس ، من الأعمدة والتماثيل ، وتؤثث بالفرش الوثيرة الفخمـــة ، والرياش الفـــاخر ، والجوهر النفيس ؛ وتأنقوا فى الطعـــام وألوانه المتنوعة ، يعدها طهاة مهرة ، ويدبرها أطباء قد سهروا على حياة كبار الرجال ، وتمد لهـــا الموائد من ثمين المعادن ، وطريف الأوانى ، وجعلوا للشراب ملابسه،وأماكنه ، وأداته، مع التلطف لصنوفه وأنواعه ، وكذلك وضح الميـــل الى اتخاذ اللباس الأنيق ، من رقيق النسيج ، وباهر الألوان ، تحليه كرائم الأحجار ، وكان الأمر على مثل هذا فى المركب ، مما لو تكلفنا سوق شىء من أمثلته لطال القـــول ؛ وخرج الى بعيد عن غرضنا ، وفى آثارهم المكتوبة والمرئية ما يمثل ذلك كله . وأسلمتهم هذه المتع كلها ، الى الشهوة المسرفة ، ولا سيما فى الشئون الجنسية ؛ ولا تسأل عن مصـــابهم بالشذوذ الجنسى فى الغلمان ، مع العبث المسرف ، والمجون المتطرف ، الذى يفيض به الأدب المنحل .. وحسبك هنا من

شر سماعه ، لتدرك أن حياتهم حفلت ، بما يزرى بحيـــاة النوادى ، والبارات ، والكباريهات ، فى مدن الخلاعة ودور الدعارة السرية والعلنية ، وكان لهذا من الخفى والمعلن ، أثره المفسد للأخلاق .

على أن النظرة الدقيقة لا ترى من هذه الحياة جانبـــا واحدا ، كما لا توصف مدينة بأحياء الفجور فيها ، دون تقدير لأحياء العلم ، ودوره ، ومعاهده ، وهيئاته ؛ فكذلك كانت تلك الحياة ، يجتمع فيها الفجور البشـــع ، ويحدث رد فعله بالدعوة الى الزهد ، والأخذ بالتقشف ، والدعوة الى تحقير الدنيا ، والتذكير بفنائها وما يتصل بذلك .. لكن الشر لجاجة ، والخير عادة ، والنفس أمارة بالسوء ؛ ومهما تفعل تلك الدعوات المضـــادة فلن تزيد على تخفيف بعض الاندفاع ، ويظل ما عدا ذلك مؤبدا بهوى الانســـان ، وغريزة الشهوة ، تمدها ثروة وفرت ، ونعمة فاضت .. وفى الحياة عندنا وحولنا مثل واضح لذلك كله ، فالناس ناس ، والزمان زمان .

* * *

والفقهاء والمحدثون فى هذه الحياة بعض أهلها ، ولا بد لدارس حياتهم ، من تقدير ما حولهم ، من شباك الفتنـــة

ومصايد النعمة ، وما يصلهم من هبات الملوك ، ووسائل اغرائهم لهم ، فوصلت النعمة بيوتهم ، وبدا فى حياتهم لذلك أثر أى أثر ؛ وحسبك أن رجلا « كالاوزاعى » عفيفا ورعا ، قد وصل اليه — فيما روى — من الأمويين والعباسيين نحو سبعة آلاف دينار ، أى مقدار خمسة وثلاثين ألفا من الجنيهات الحالية ، بقيمتها الشرائية الحقيقية ، التى يشترى منها الدرهمان راتب لحم مثلا ؛ وكان له مع ذلك فى بيت المال من الخلفاء اقطاع ؛ كما كانت جوائز السلطان أكثر كسب « ابن شهاب » شيخ « مالك » وغيره .

وسنرى فى حياة « مالك » الشخصية ظواهر هذه النعمة الرافهة .

***

وتمام هذا القول فى الحياة الاجتماعية الوقوف لحظة عند :

الحياة الاجتماعية فى الحجاز — من جوانبها المختلفة التى عرضنا لها فى وصف مجتمع العصر ؛ والحجاز يشرك المجتمع العام فى تلك الظواهر الكبرى ، ثم يتميز بعد ذلك بأشياء :

ففى المركز السياسى : كان الحجاز جزءا من هذا

الكل ، الذى عرفنا مركزه العالمى ، فيما وصفنا منه ، لكن الحجاز يتميز فى الموقف المزدوج الذى رأيناه فى قيام الأموية بالغرب ، والعباسية بالشرق ، والعمل على التوازن السياسى، بممالأة الأمويين للشرق الرومانى . وممالأة العباسيين للغرب الأوروبى، بأنه كان هو قبلة الدولتين جميعا ، ومهوى أفئدة الجمعين : يؤمه المغاربة والأندلسيون حاجّين ، كما يؤمه العراقيون والخراسانيون ، فله صفة من الحياد — ان أمكن هذا التعبير — ولذلك الحياد أثره فى تفاعل الحجـاز مع الطرفين جميعا ، وقد ظهـر أثر ذلك ، فى سلوك « مالك » السياسى ، كما ظهر فى تقديره العلمى ، فمن الناحيةالسياسية كانت تحمل الى «مالك» أخبار الأندلس وحكومتها ، فيعلن رضاه عنها اعلانا يؤيد به نقده للعباسيين ، أو نفوره حينا من ممالأتهم ؛ فقد روى أن « مالكا » سأل عن سيرة « عبد الرحمن بن معاوية » الداخل الى الأندلس والمتملك بجزيرته، فقيل له : انه يأكل خبز الشعير ، ويلبس الصوف ، ويجاهد فى سبيل الله ، وعـّددت له مناقبه فقال « مالك » : ليت أن الله يزين حرمنا بمثله . وبلغ هذا «عبد الرحمن» فسر به ؛ حين نقم العباسيون ذلك .

وهكذا تقف بيئة الحجاز ، بفضـل بسطة الملك ، بين

الدولتين ، ذلك الموقف الذى قلنـا : انه يمكن أن يسمى حيادا ، بسبب ما للحجاز ، من التقدير المشترك عند الطرفين، بما هو قبلتهما جميعا ، ومحجهما على السواء . وكان لهذا الاعتبار أثره فى علم « مالك » كذلك ، وحمل أهل المغرب والأندلس له الى بلادهم ، وانتشاره فى تلك الأقطار النائية، وغلبته بها على ما كان قد دخلها قبله ، من علم غيره ، على ماسنبينه بعد من أسباب ذلك .

ومن حيث « كيان المجتمع » كان الحجاز مجتمعا قـد يبدو فيـه عدم الانسجـام ، بين أفراد تتوزعهم دمـاء مختلفة ، وألوان متعددة ، لأن الحجاز كان كما أشرنا مقر ما يرد من سبايا الفتح الأول أيام نشاطه الأكبر ، فى عهـد الراشدين ، والمدينة عاصمة دولتهم ، وكذلك كان من أبناء وجوه الصحـابة من ولدتهم بنات الأكاسرة على ما هـو معروف ، اذ وزعت بينهم تلك السبايا عند وصولها .

ويتبع ذلك ما يكون من أثر الرق : وتصديعه للمجتمع ، وجعله طبقتين : سادة ومسودين ، فالحجاز بما بينا مجـال لذلك أوسع من غيره وأرحب ، ومجتمعه قـد يكون أوفر حظا ، من سواه من الأقطار ، ومشكلة الموالى فيه ليست أقل تجسما منها فى غيره ، وقد رأينا وجوه علمائه من أسـاتذة

« مالك » وسواهم ، من الموالى . وسنرى فيما يلى أن أثر الرق على الحياة الفنية والخلقية فى الحجاز أظهر فيه وأبرز ، فانا لنجد وثوب السودان فيه ، غضبا من معاملة الجند للناس ، بل ان سودان الحجاز هؤلاء قدطمعوا فى أن يكون الأمر اليهم ، وقد عهد رئيسهم الى أربعة من بنى هاشم ، وأربعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، وأربعة من الموالى، يكون الأمر شورى بينهم ، وقد دعوا له أن يرزقهم الله عدله ان ولاه شيئا من الأمر ، فقال : قد والله ولا نيه الله ...

ومن حيث نظام الحكم يتلقى الحجاز أثر هذا الحكم الفردى الاستبدادى المطلق ، فى تقسيم المجتمع الى طبقة حاكمة ، من الولاة وحاشيتهم ، وطبقتين أخريين من الجند ، والعامة ، وليس فى الحجاز ما يغير أمره فى هذا عما سواه الأقطار ، فهو اقليم يتحكم من العاصمة بالأسلوب الذى تحكم به سائر الأقاليم .

ومن حيث مستوى الحياة ، وتأثره بالرخاء ، فان للمدينة فيه مزايا أحفل من سواها ، فاليها كانت تحمل ثمار الفتح الكبير ، وقد كثر فيها المال لهذا السبب وغيره من أسباب سياسية أخرى معروفة ، وكان لهذا أثره من النعمة والتحلل أيضا ، فمنذ عهد باكر وقع المغنون من الفرس

والروم الى الحجاز ، وصاروا موالى القوم ، من الصحابة ، وغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، فكان أصل الغناء بالمدينة .. وفيها منذ عهد الرسول عليه السلام نفر من المخنثين كان قد نهى صلى الله عليه وسلم أن يدخلوا على النساء ، وكان هؤلاء المخنثون بالمدينة أئمة الغناء والحذاق فيه .. وهؤلاء المخنثون فوق كونهم أئمة الغناء والحذاق كانوا يضفون على جوها ضربا من العبث والمجون : تحكى منه نوادر شديدة الاضحاك عن « الدلال » المخنث وأضرابه ؛ وكان أهل المدينة اذا ذكروا « الدلال » ونكاته طوّلوا رقابهم وفخروا به .

ولا بأس بأن نطيل شيئا ما هنا فى الحديث عن الحياة فى المدينة التى هى دار « مالك » ومقام فقهه ، فقد استحكم الفن الغنائى ، وآثاره الخلقية والاجتماعية ، حتى لا يستغرب معه أن نرى مثل « عروة بن أذينة » الفقيه الشاعر الملحن الذي ذكرنا أستاذيته « لمالك » ثم نرى مفتى المدينة ، الآخذ عن « مالك » وهو « عبد الملك الماجشون » ت ٢١٢هـ مولعا بالغناء ، حتى اذا سافر كان معه من يغنيه ؛ وأوضح من ذلك بيانا أن الجادين من أهل هذه البيئة كانوا على ما سنرى يجمعون بين العلم والدين والعبادة والغناء ، على

ما سنشير اليه عند الكلام عن حياة « مالك » الخاصة وتقديره للفنون .

***

واذ بينا ما كانت عليه الحياة الاجتماعية فى ظواهرها المختلفة ، فانا لننظر فى شىء من الموازنة بين :

المدينة والعراق اجتماعيا — فان القوم لا يتركون الموازنة بين المدينة والعراق اجتماعيا ، على نحو ما أشرنا اليه من الحاحهم فى الموازنة بينهما اعتقاديا وعلميا ؛ وهم كما تفعل العصبية دائما يقذفون العراق بأنه منشأ الفتنة ، اذ ثارت منه قتلة «عثمان» ، وهى أول فتنة وقعت فى هذه الأمة .. وأنه أتعب الخلفاء والولاة فى تدبيره ، فأهله لا يرضون بوال ، ولا يرضى عنهم وال .. وينتبهون الى أن المدينة قد كان فيها نفسها قتل «عثمان» فيقولون فى ذلك : ولا يرد علينا ما وقع بالمدينة من قتل عثمان ، ولا من سرف « مسلم بن عقبة » يوم الحرة ، لأن ذلك لم يكن من أهل المدينة ، ولا فيما بينهم ، ولا دام فيهم ، ولا فرق جمعهم ، وانما كان بغيا عليهم .. وقد يؤيدون هذا بمروى يعزونه الى الرسول عليه السلام كان انذارا بحال العراق السيئة ،

وانه أشار الى المشرق . وقال : ها ان الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان .

ولا نعرض لشيء من هذه الموازنة بين المدينة والعراق الا لأن المتحيزين يقصدون من ذلك الى تفضيل فقه «مالك» ومذهبه ، عن طريق تفضيل المدينة ، وهو ما لا نعنى بشيء منه الآن ، ولا يحركنا نحوه شيء من هذا التعصب ، ولا هو فى المنهج الصحيح طريقــة للموازنة بين علمين أو فقهين ، وانما يكون ذلك بغير هذا من تقدير الحقـــائق ، وتقويم الأفكار .

وفى غير تحيز نقول : ان الضعف الخلقى قد ساد بيئة «المدينة» على ما أشرنا كما ساد العراق ، مهماتختلف نسبته فيهما ؛ كما أن بيئة المدينة فى رأى الحكام والولاة لم تكن أحسن من بيئة العراق كثيرا ، وقد سمعنا — قبل الآن — حكم السياسيين الذين تعاملوا مع المدينة حربا وســلما .

على ان القصد الى تعييب العراق دون غيره ، انما يلفتنا الى روح مشادّة خاصة بين فقه الحجاز وفقه العراق ، أو بين الحنفية والمالكية ، أكثر مما بين الحنفية وغير المالكية ؛ وهى روح يحسن تقدير أثرها عندما تسمع كلام كل فئة من الطرفين

مالك في حياته الخاصة

- حياته المادية
- تكوين أسرته
- حياته البيتية
- عاداته

الفصل الثامن

« مالك في حياته الخاصة »

شاب أتم دراسته الى أن جلس للتدريس ؛ فدخل الحياة المستقلة ، وواجهها فى صورها التى رأيناها من جوانبها المختلفة ، فكيف شق طريقه فيها ؟ وكيف مارس حياته الخاصة فى نواحيها المتعددة ؟ هذا هو ما نعرضه فى فقرات خاصة بكل ناحية من نواحى حياة هذا الانسان الذى تتتبع تجاربه فى الحياة ، وتجارب الحياة فيه ، تتبعا تاريخيا ، اجتماعيا ، فنتحدث عن :

حياته المادية ، ومورد رزقه ما هو اذ ذاك ؟ وهل بسطته الحياة أو قدرته ؟ وسنجد فى اخباره — على اختلافها — أن له شيئا راتبا من بيت المال ، كانوا يسمونه فرضا ؛ ومهما يكن خبر هذا الفرض موضع نقد ، من حيث زمانه أو أشخاصه — مما لا نعرض له هنا ، وندعه لمكانه من الترجمة المحررة — فان لهذا الخبر دلالته على وجود نظام الفرض فى بيت المال لمثل صاحبنا ، وقد فرض له فعلا ،

عندما بلغ الحلم ؛ وان لم نعرف كذلك مقدار ما فرض له ، ولا نقف لنبحث عن مقدار هذا الفرض فى بيت المال مكتفين بأن هذا الفرض ربما كان فى جملة أمره مئات من الدراهم تكفى اذ ذاك لاقامة الأود ، ومن هذا الفرض كان « لمالك » مورد مالى ثابت ، يكفى حياته العادية ، اذا لم يأته شيء آخر غيره،وان لم نعرف مقداره ولا مدته بالضبط . واذا ظفر بالكفاف من هذا المورد الثابت فان الروايات التاريخية تحدث عن نشاط تجارى له وراء ذلك كان يأتيه منه شيء من الربح ، اذ يروى أن قوام عيشه كان من أربعمائة درهم يتجر له بها .. وهذا الاتجار له ، معناه أنه كان يعطيها لشخص يعمل له فيها ، ويقاسمه ربحها ، وهو ما يسمى فى الفقه الاسلامى مضاربة .. ولا تشجع جملة الاخبار على ظن ان « مالكا » كان يمارس بنفسه شيئا من التجارة ، لعدم ورود شيء من تفاريق أخباره يشعر بذلك ، ولورود ما يجعل هذا الفرض ليس يسيرا قريبا ، وذلك ما ينقل عنه من كراهية تعرض العالم لمثل هذه التصرفات ، بل كراهته حتى ان يقضى العالم حاجاته من السوق بنفسه .. وسنرى فى وصف حياته المنزلية وتصرفاته السلوكية ، نوعا من التصون والبعد عن المخالطة ، الى حد الانطواء على النفس ، وكل ذلك لا يقرب

معه أن يكون « مالك » قد مارس شيئا من محاولة الكسب من رأس ماله هذا ، الأربعمائة الدرهم ، التى لا نعرف بالضبط من أين جاءته .. ؟

على أن الشاب حينما يمضى فى الحياة قدما ، ويأخذ مكانه بين أولئك الفقهاء المفتين ، سنجد من طبيعة الحكم لعهده — على ما شرحناها — ما يعقد صلة لا بد منها ، بين هؤلاء الفقهاء ، وبين أرباب السلطة والحكم ، اذ هم المتحدثون فى هذه النظم والمتصلون بجماهير الشعب ، يعلمونهم ، ويصورون لهم فى كثير من الظروف شخصية الحاكم ، وحسن تصرفه أو سوءه ، على ما رأينا من تمثيل هؤلاء العلماء لسلطة الشعب بعامته ، فى هذا النظام ؛ واضطرار أولئك الحكام المتفردين الى أن يسترضوهم ليظفروا منهم بهذا التصوير الشعبى أو الدعاية لهم ؛ وليظفروا منهم بما هو أهم من ذلك ، فى علاقتهم بالشعب ، وهو اعطاء الفتاوى التى تسوغ تصرفاتهم التى يريدون المضى فيها ، لظروف سياسية عامة ، أو خاصة ، ولتحقيق رغبات يتطلبها هذا الجاه العريض ، والسلطان المتفرد ، والغنى المستمتع .. ولكل أولئك تجىء اليهم جوائز الملوك ، وصلات الأمراء تترى فى كل مناسبة ، أو لغير مناسبة

أحيانا ؛ وكانت تلك الجوائز والصـــلات موردا خصبـا لأصحاب العلوم والفنون والصناعات .. وصفة العلماء التى أشرنا اليها هنا ، وشرحنا ظروفها فى سـير الحيـاة قبل الآن — ص ١٨٣ وما بعدها — تعرضهم للتحرج من قبول هذه الصلات والجوائز من يد الحكام ، وفى هذا يختلف سلوكهم من حيث مخالطة الحكام ، وبالتالى بل بالأولى،من حيث تقبل جوائزهم ، و «مالك» فى جملة أمره من الصنّف الذى تقبّل هذه الجوائز بصفة عامة ، وتذكر الروايات مرارا أخذ فيها كل مرة جائزة تبلغ بضعة آلاف من الدنانير ، لو تيسر ضبطها لبدا أنها مقادير تصلح قواما للعيش أعواما غير قصـيرة ، بشهادة جملة الأخبار عما وصل بعض العلماء « كالاوزاعى » الذى ذكرنا ، استنادا الى تلك الروايات ، مقدار ما وصله من الجوائز — ص ١٨٧ — وهو مقدار يكفى مصدرا لراتب شهرى طوال سنى حياته الاثنتين والسبعين ، منـذ ولد ، مقداره أكثر من أربعين جنيها شهريا فى حياة رخية رخيصة الأسعار ، للنقد فيها قدرة شرائية عالية .

ثم شيء ثالث يتصل بموارده المادية هو الهدايا والصلات الفردية من غير الملوك ، بل من الأصدقاء والاخوان ، وتارة من الوجوه والأغنياء ، وهو مورد لا نستطيع له تحديدا

ولا تقريبا ، الا انا نجد من الصلات الاخوانية من علماء زملاء ، ما يجعل لهذا المورد قيمته الواضحة ، بل الكبرى فى الحياة ، اذ يروى أن « الليث بن سعد » الفقيه ، صديق «مالك» ونديده كان يصل مالكا ، كل سنة بمائة دينار ، وهى — على ما يرجح — أضعاف ما يمكن أن تربحه مئاته الأربعة من الدراهم ، حين يضارب له بها ، على ما سمعنا ، فان هذه الأربعمائة تساوى عشرين دينارا ، لو ربحت خمسة أمثالها أى مائة دينار ، لأخذ شريكه المضارب منها أى قدر ، فتكون أقل من صلة الليث السنوية ، التى تكفى وحدها لحاجات « مالك » الضرورية بل التى فيها شىء من الرفاهية؛ اذا ما قدرنا أن طبيعة الحياة تساعد على تقديم صلات أخرى غير صلة « الليث » هذه ..

ومن جملة هذا كله ، من فرض فى بيت المال ، ومضاربة تجارة ، وجوائز خلفاء ، وصلات أصدقاء وغيرهم ، ضمن لصاحبنا المورد المادى منعمة الى حدّ ما .

***

ومع هذه الظروف من تيسر المورد ، والمشاركة العملية فى الحياة ، يفكر الشاب فى :

تكوين أسرته : وهو قوى الشعور بحياة البيت ، يعده الجنة فى غير تجوز ولا مبالغة ، اذ يفسر الجنة فى الآية القرآنية « ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله » بأنها البيت ، ولذا كان اذا دخل بيته قال : ما شاء الله لا قوة الا بالله . ولما سئل عن ذلك أجاب بأن البيت هو الجنة .. وهو شعور كريم بحياة الأسرة واتجاه نفسى صحيح اليها ؛ لأنها هى دعامة البيت .. لكن هذا الذى فسّر الجنة بالبيت وعد البيت جنة يقول عند دخولها : ما شاء الله لا قوة الا بالله ، لم يرد لنا شىء عن ميله للاصهار الى أسرة كريمة من سروات المدينة يتخذها زوجة تدعم جنته ؟ بل ورد عنه ما يفيد كراهة زواج الحرة ، اذ يقول — فيما يروى — : من أهوال الدنيا ، كذا ، وكذا ؛ وتزوج حرة . ومما عادل به زواج الحرة فى الهول : ركوب البحر ، وركوب الفرس العربى .. واذا كان زواج الحرة عدل ركوب البحر ، فليس من المستغرب ألا نعثر بشىء من الأخبار يعين الزوجة التى تزوجها ، وبنت من هى ؟ وماذا كان من شأنها فى حياتها الزوجية ؟ ولكل أولئك نستطيع الاطمئنان الى أن صاحبنا لم يتزوج حرة،وانما وجد مندوحة عن ذلك بما كان منتشرا ، قريب المنال جدا ، وهو التسرى ؛

والحياة — على ما عرفنا — حافلة بالرقيق فى سوق المسلمين من مختلف الألوان والأجنـــاس ، والأمر فى الجوارى سهل على حبل الذراع .

ولا نقف فى تسرى « مالك » عند الاستنتاج ، من كراهية زواج الحرة ، بل نجد فى المرويات ما يرجح أن هذا هو الذى كان فعلا ، اذ ينقل أن أم ولده محمـــد كانت رقيقة صارت له « أم ولد » ، وكان على ما يفهم من رواية الخبر يحبهـــا ، حتى أنها كانت سببا فى تغيير رأيه الفقهى ، اذ كان يقول أولا : اذا استحقت أم الولد ، أى ثبتت ملكية شخص غير سيدها لها ، فانها تدفع له ، هى وقيمة أولادها ؛ فكان أن استحقت أم ولده هذه — أى أم ابنه محمد — فاستفتى فى الأمر لعدم وجود غيره فى المدينة ممن يستفتى فى ذلك ، فوجد عنـــد استحقاق أم ولده أمرا شديدا — كما يقول هو بعبارة الرواية — : يعمد الى أم ولد الرجل ، فتستخرج من تحته ، وقد اشتريت من ســـــوق المسلمين ، فتحمل الى من تحمل اليه !! ولهذا عرض فى هذه الحادثة أن يفدى أم ولده — التى ثبتت ملكيتها لشخص آخر — بجميع ماله ، وما ظلم من دفعت اليه القيمة .. فما سُر أهل المدينة سرورهم بهذه الفتوى .. وكذلك نعرف

من هذا الخبر : أن مالكا لم يتزوج امرأة حرة — على ما يرجح — بل كان بيته عامرا بالجوارى .

ومتى تكونت الأسرة ؟ أو متى كان البيت بمن فيه من الجوارى يأخذ صفة الأسرة ؟ ولعل هذا لا يكون الا حينما تمسى احدى الجوارى أم ولد . فيكون لها مايشبه صورة الزوجة ، ويكون أبو هـذا الطفل رب أسرة .. ولا تسعفنا الأخبار — فيما وصلنا — على بيان شىء من هـذا كله ، فليس أمامنا الا الاستنباط من نثير ما يذكر عن ابن أو أبناء « لمالك » ، أو عن شىء يتصل من بعيد أو قريب ، بحيـاة أسرة تتألف من أب وبنين ، وأم أو أمهات ، سـواء أكن حرائر أم كن اماء ، صرن أمهات أولاد ..

ومما نستخبره عن ذلك خبر يقول : ان « مالكا » قد وصى عند الوفاة بولدين من أولاده ، الى رجل من أهـل المدينة اسمه « ابراهيم بن حبيب » وهذان الولدان همـا محمد وحماد ، أو حمادة — على اختلاف قراءة الخط — ؛ أو معنى هذا أن هذين الولدين كانا قاصرين أى دون سن البلوغ ، . أما غيرهما فكان مالكا لنفسه ، كما نصت هذه الرواية نفسها .. والشيخ قد عمر الى ما بعد الثمانين ، أى الى ٨٢ سنة ، على آخر رواية فى مولده — أى سنة ٩٧ —

أو الى ٨٦ سنة على المشهور من تاريخ مولده — أى سنة ٩٣ هـ — ، فلو فرضنا أبعد الفروض ، وهو أن سن البلوغ هو ١٨ سنة ، فيكون عمر أحد هذين القاصرين ، عند وفاة « مالك » هو على أكثر ما يمكن ١٧ سنة أى أن أكبرهما ولد وسن الأب ٦٩ سنة ، على أقل ما يمكن ؛ فهل ولادة أولاد فى هذه السن كانت أثرا لتأخر تكون الأسرة ، أو كانت أثرا لغير ذلك من الأسباب ؟ لا ندرى ، ولكنا ندرى أن « مالكا » ظل حتى الوفاة يمارس حياة الأبوة لأطفال دون سن البلوغ ؛ وما عدا ذلك من الأخبار قد يعطى أنه كان له أولاد كبار ، أو على الأقل بنت هى « فاطمة » التى كانت تحفظ الموطأ ، وتراقب قراءته من وراء الباب ، فاذا أخطأ القارىء نقرت الباب .. وقد يمكن الاطمئنان الى أن « فاطمة » هذه — على أرجح الروايات فى اسمها — كانت أكبر أبنائه .. ولا يسعف اختلاف الروايات ، على معرفة عدد هؤلاء الأولاد ؛ ولعل الأرجح أنهم أربعة ، والروايات كعادتها فى الاختلاف — لا تسعف على تحديد الذكور منهم والاناث ، وان كان القريب أن الأناث فيهم أقل من الذكور .

***

ولم يرزق التوفيق لأولاده فى طلب العلم ، كما يدل على ذلك ما رووا من حال ابنه الذى كان يدخــل عليه ويخرج وهو يلعب بالباشق ، ولا يجلس ليتعلم شيئا ؛ كما تدل على ذلك عبارته الشاكية ، فيما يروى عنه من انه كان يقول : انما الأدب أدب الله ، هذا ابنى ، وهذه ابنتى !! كما يقول حين يرى ابنه اللاعب : مما يهوّن علىّ أن هذا الشــأن لا يورث ، وأن أحــدا لم يخلف أبــاه فى مجلســه ، الا « عبد الرحمن بن القاسم » .. وربما لا نوافق صاحبنا تمام الموافقة على أن المسألة فى نجاح الأولاد غير قابلة للضبط والتفسير ، ولا أن هذا الشأن الأصل فيه ألا يورث ؛ ولعل فى ظروف حياة « مالك » والأسرة ما قد يفسر هذا الذى كان من لعب ابنه ، ولكننا لا نجد المجال الواسع هنا لمثل هذا من التوسع .

***

ويظهر أن أخت « مالك » كانت تعيش معه ، اذ تعرض الرواية لخدمتها له ، بما قد نشير الى شىء منه فى موضــع المناســبة .

وقد زوج ابنته — ولعلها « فاطمة » — لابن أخته «اسماعيل بن أبى أويس» ت سنة ٢٢٠ هـ ، الذى كان له كذلك

من الصلة بخاله ما يرد به ذكره فى أخبار « مالك » ؛ ولو ان هذا الولد لم يجىء لخاله ، كما نقول اليـــوم ، فهو فى تقدير أصحاب الرجال ضعيف العقل ، مخلط ليس بشىء ؛ وأهون ما يقولون فى تقديره : أنه لا بأس به .. فاذا اكتفينا بهذا القدر تحدثنا عن :

حياته البيتية — وأول ذلك البيت الذى كانت تقيم فيه الأسرة .. والروايات كذلك تختلف ، فهو يسكن بكراء الى أن مات ؛ أو هو صاحب بيت أضر به الفقر فى طلب العلم حتى نقض سقف بيته فباع خشبه ، فهل ملك بيتا ، وهو طالب ؟ مع أنه أتم الطلب وهو صغير !! أو هى المنقبية تقول ما يحسن أن يقال ولو لم يكن صحيح ما يقال ؟!

ولقد يعتذرون عن اختلاف الروايات بأنه نتيجة اختلاف الحال سعة وضيقا ، فمن قال لا يملك رآه وهو فى ضائقة ، ومن قال يملك رآه فى سعة ، ولكن هذا التوفيق الاحتمالى الصرف لا يقال فى كل اختلاف ، ولا يدفع كل تناقض ، فان القول بأنه لم يملك بيتا ، وســـكن بكراء الى أن مات ، لا يحتمل معه أن يكون قد ملك فى فترة سعة ، لأن الرواية تنص على أنه سكن بكراء طول الحياة ..

وليس الأمر بذى بال حتى يطول فيه الكلام ، وانما هو

اللفت الى صعوبة التناول ، مع هذه المتقابلات المتدافعات من المرويات .. وربما كانت هى المنقبية دائما ، تريد لتقول : انه أضر به الفقر فى طلب العلم ، فتثبت ذلك ببعيد مؤثر هو نقض سقف البيت وبيعه ، لا بيع منقولات أو ما يشابهها .

وسـواء أكان البيت بيت كراء ، أم بيت ملك ، فانهم يروون أنه كان يسكن فى دار الصحابى المعروف « عبد الله ابن مسعود » ، وفى رواية انه كانت فى هذا البيت صورة و « مالك » هو الذى يقول : لا ينبغى أن تكون الصورة فى البيت ، ولذا قال له عراقى : يا أبا عبد الله ، هو ذا فى بيتك صورة ، فقال : «أنا ساكن فيه منذ كذا ما رأيته ؛ قم فحكّها» فقام الرجل فحكها ..

وكان البيت — على ما سمعنا من بعض أخباره — على شيء من السعة ، حتى يستطيع أن يدعو طلبته فيه ويهيىء لهم المرافق .

وأما أثاث البيت — فيكثر حديثهم ، عن ظهـور أثر النعمة فيه ، فهو يجلس فيه على ضجاع ، يضطجع عليها ولمارق — وسائد صغيرة — مطرحة يمنة ويسرة ، فى جوانب البيت ، وفيه بسـط ، ومخاد محشـوة بريش ، ومنصات ، وما يسمونه برادع ؟؛ ويدل على كثرتها وفخامتها

ما يقولون من أنه يوم مات بيع ما فى منزله فنيّف ثمن مثل هذه الأشياء التى تقدم ذكرها على خمسمائة دينار .

ويظهر ان أهل عصره قد شعروا بهذه النعمة فى أثاث البيت ، وأحسوا بأن مثل هذا قد يكون ترفا مستحدثا ، فسألوه عن الوسائد : أشيء أحدثته أم وجدتَ الناس عليه ؟ فقال : وجدتُ الناس عليه .

وقد وجهت اليه هذه الملاحظة — فى غير رواية — عن ثيابه كذلك ، وكانت اجابته أن هذا مما أحل الله لعباده . وتلا الآية : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » .

وفى بعض المنقول أنه قد وعد بألا يفعل ، أو استغفر مما فعل .. لكن الذى يبدو من جملة المرويات أن الأمر أعمق من أن يكون موضع تراجع ، لأنه فى الواقع لون من رقة المزاج ، ورقة الحس ، يبدو فى أشياء كثيرة وأساليب متعددة فى ممارسة الحياة ، سنرى فيها شواهد فى مطعمه ومشربه ، وأناقة تناوله ، مما يدل على مستوى احساسى خاص ، يخالف ما قد يشيع فى بيئة العلم الدينى أحيانا ، وقد ظل صاحب العلم الدينى يردد الى فترة قريبة ، عبارة

تعوزها النظافة وهى : العلم زبّال .. وما هى الا أوهام يقضى عليها سلوك الامام ، الذى يزيده بيانا وتقوية ، ما نعرض له بعد ذلك ، عند الكلام على شخصيته الفنية وهى ملاحظ متكاملة سنراها تصدر عن أصـل عام فى تنـاول الامام وأسلوبه فى الحياة ؛ ويتصل بذلك ما نرى فى :

ملبسه وزينته : وبين يدى هذا الحديث عن اللبـاس والزينة نقدم كلمات له تحدث عما أشرنا اليـه من دستوره العام الواضح فى تناول الحياة ، مثل قوله : ما أحب لأحد أنعم الله عليه الا أن يُرى أثر نعمته عليه ، وخصوصا أهل العلم ينبغى لهم أن يظهروا مروءاتهم فى ثيابهم اجلالا للعلم.. وقوله : التواضـع فى التقى والدين ، لا فى اللبـاس — انا كنا نتواضع فى التقى والدين ، لا فى اللباس ... بل هو فى أقواله ينتهى الى أن يعدّ هـذه المروءات الظاهرة من الدين نفسه بل من سمات النبوة نفسـها ، فيقول — فيما يروى — : « نقاء الثوب ، وحسن العمة ، واظهار المروءة جزء من بضع وأربعين جزءا من النبوة » .

ومثل هذا الاتجاه جدير بأن يذكرنا بماسبقت الاشارة اليه ، من وجود الزهد فى هذا المجتمع المرفه ، وامكان أن يكون الاسراف فى التزهد من رد الفعل — ص ١٨٦ — وقد

حفظ لنا من تصرفات أولئك الصوفية أشياء من أفق ما سمعنا من « أن العلم زبال » وأشباه ذلك .. وهذا مما يحسن معه معرفة رأى « مالك » صاحب هذا الدستور الحيوى .

فاذا كنا قد سمعنا هؤلاء المتزهدة يرون أن الفقه والتحديث يخل بالزهد ويعتبر من طلب الدنيا ، فانا نرى « مالكا » يلقاهم بالرأى المقابل ، فيقرر أن الزهد والصلاح والانقطاع قد يضر بسلامة المنهج النقلى ودقة الرواية ، لأن هؤلاء الصالحين يخدعون ، ولا يتثبتون ، أو يلحقهم شيء من غفلة ؛ ولذلك كان يفرق بين التقى والورع ، وبين العلم والفهم ، والصيانة والاتقان ، ويقول : أدركت بهذه البلدة أقواما لو استسقوا بهم القطر لسقوا ، قد سمعوا العلم والحديث كثيرا ، ما حدثت عن أحدهم شيئا ، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد ؛ وهذا الشأن — يعنى الحديث والفتيا — يحتاج الى رجل معه تقى وورع ، وصيانة واتقان وعلم وفهم ، فيعلم ما يخرج من رأسه ، وما يصل اليه غدا ؛ فأما رجل بلا اتقان ولا معرفة فلا ينتفع به ، ولا هو حجة ، ولا يؤخذ عنه ..

ومن تمام رأيه فى ذلك ما يدفع به قولهم : ان هذا الزهد والانقطاع هو الخير الأكبر والفضل الأعظم ، وهجوم

الصـــوفية ، على أصحاب الفقه والشريعة ، واعتبـــارهم الاشتغال بذلك صرفا عن الله على ما سمعنا هنا ، وفيما تقدم ، من دعوة الصوفى على من يبغضه بأن يجعله الله محدثا وأشباه ذلك ، فاذا « مالك » يرى الاشتغال بالعلم ليس أقل مما يشتغل به هؤلاء القوم ؛ ويرى الحياة محتاجة الى علمها احتياجها الى خلقها ، وكل قبيل يعمل فى مجال ، اذا ما كان عمل هؤلاء صحيح الاتجاه ، غير مسرف ولا متطرف .. وهكذا يكتب اليه أحدهم يحضه على الانفراد والعمل ، فيكتب اليه « مالك » : « ان الله قسم الأعمال ، كما قسم الأرزاق فرب رجل فتح له فى الصلاة ، ولم يفتح له فى الصوم ، وآخر فتح له فى الصدقة . ولم يفتح له فى الصوم ، وآخر فتح له فى الجهاد .. ونشر العلم من أفضل الأعمال ، وقد رضيت ما فتح لى فيه ، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه ، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر » ..

وفى قوله : ان الله قسم الأعمال ، وقوله : وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر ، فى هاتين العبارتين مع ما حولهما من رسالته هذه ، تصحيح لتفكير المخطئين الذين لا نزال نراهم فى حياتنا اليوم يريدون أن يروا الخير شيئا واحدا ، فهم يفاضلون ويفضلون على هذا الأساس الخاطىء ، بين

العلم والفن مثلا ، كما فاضـــل هؤلاء الزهاد بين العبادة والعلم ، ونسى هؤلاء وأولئك أن الحيـاة تحتـاج الى العلم والعبادة ، ولابد لها ممن يقوم بكل واحـد منهما ؛ فالعبادة تحمل على الفضيلة والاستقامة ليكون المستقيمون الفاضلون أقدر على الاستفادة من العلم والافادة فيـه .. وكذلك تحتاج الحياة الى العلم ولابد من أن تسد حاجتها منه بمن يحسن الافادة فيه ؛ ثم الحيـاة تحتـاج الى الفن ولابد أن تجد من يفى بما تريد منه ، والأعمال مقسمة ، وكلا المختلفين على خير وبر ؛ ولا يطلبان فيـــه مفاضلة متفردة ، ولا تفضيلا يبخس ما عداه — وليرض كل منهم بما فتح له فيه ..

فبهذا الأسلوب الواضح ، فى فهم الحياة وتجربتها ، يرد « مالك » على المسرفين فى الحرمان والزهد بأن أهل العلم ينبغى أن يظهروا مروءاتهم فى ثيابهم اجلالا للعلم . كما أن أهل العبادة حينما يرون العلم شاغلا عن الدين ، يقرر هو أن كلا الطرفين يرجّى أن يكون على خير وبر ، وأن نشر العلم من أفضل الأعمال .. ويتسق تفكيره فى المجالين ، ويسلم له دستوره الذى ارتضاه ، فى ممارسة الحيـاة ، ممارسة لا تحرم زينة الله وما أخرج لعبـاده من طيبات

الرزق ..ويبدو موقفه متسق التقابل مع أهل الزهد ، فى العلم وضرورة الاشتغال به ، وفى الحياة وحق التمتع بزينتها وطيبات أرزاقها .. واذا ما سلم له هذا الدستور القويم استطعنا أن نفهم اتساق شخصيته ، فى لباسه وزينته ، وأثاث بيته ، وأناقة تناوله ، مما نعرض لبيانه على أساس واضح ، من الرأى الصريح فى منهج « مالك » الحيوى .

* * *

يتفق رأى « مالك » الذى بيناه ، مع واقع تصرفه ، فهو فى لباسه ، كما رأيناه فى أثاث بيته ، وكما سنراه فى سائر ظواهر حياته الخاصة ، آخذ بدستوره السابق . فيُرى وعليه طيلسان يساوى خمسمائة ، قد رفع جناحاه ، على عينيه ، أشبه شيء بالملوك ، كما رئى عليه رداء عدنى ، اشتراه بخمسماية درهم ؛ وهو يلبس ثيابا مروية جيادا ؛ ويلبس الثياب الخراسانية الجياد ، والمصرية المترفعة ، والعدنية الرقاق ؛ وحين يلبس هذه الثياب الرقيقة يقول فى لباس الصوف الغليظ : لا خير فى لبسه الا فى سفر ، كما لبسه النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه شهرة ، وانه لقبيح بالرجل أن يُعرف دينه بلباسه .

وكما لبس الرقاق قد لبس الملونات ، فلبس ريطة — أى

ملاءة — من قطعة واحدة ، عدنية مصبوغة بمشق — وهو المغرة الحمـــراء — خفيف ؛ وقال : انه صِبغ يحبه ، وفى روايتهم انه اشتهى كساء قرمزيا ، فما هو الا أن صار عنده منها سبعة بعثت اليه .. وهو يكتب الى صديقه « الليث بن سعد » فى قليل عصفر يصبغ به ثياب صبيانهم ، فيرسل اليه « الليث » ما صبغ به ثياب صبيانهم ، وثياب جيرانهم ، وباعوا الفاضل منه بألف دينار !!

وعلى ذكر الألوان والصبغ يمكن أن يقال اجمـــالا انه كان يؤثر اللون الأبيض ، ويكره اختلاف اللبوس ، ويرى نقى الثوب ، حتى أن ابن أخته ، وزوج ابنته — ابن أبى أويس — يروى أنه لم ير فى ثوب مالك حبرا قط .

***

والحديث عن زينته يتصل اتصـــالا قويا بالحديث عن لباسه ، ويتفق مع ماسميناه دستوره فى الحيـــاة ؛ ومهما تختلف الروايات عن تنظفه وتزينه ، فانها تكرر أنه كان اذا أراد التحديث دخل مغتسله ، فاغتسل وتطيب ، ولبس ثيابا جددا ؛ وقد يذكر فى هذه الحالة أنه يتكحل أيضـــا ، وان كان يرد هذه الزيادة رواية انه كان يكره الاكتحال الا لعلة ،

واذا اكتحل جلس فى بيته .. وهو بهذه الأناقة حين يتطيب يستعمل الطيب الجيد مسكا وغيره .

وعلى ذكر العطور ، نورد ما يروى من أنه كان اذا جلس للحديث يوضع عود فلا يزال يتبخر حتى يفرغ ، وقد يذكر اختضابه على اختلاف الروايات ، فى أنه كان يكرهه ، ولم يغير شيبته حين شاب . فكان أبيض الرأس واللحية !!

وهو يتختم بالفضة ، وقد مات وفى يده خاتم منها فصه حجر أسود نقشه سطران هما :حسبى الله ونعم الوكيل . وكان يجعله فى يساره ، فاذا توضأ حوله الى يمينه .

وهو — كما يتسق اتجاهه الحيوى — أنيق التناول ، محتفظ بالنظافة حتى فى نعله ، يحدث رأوية أنه رآه على بغلة سرية ، بسرج سرى عليها ، وعليه ثياب سرية ، وغلام يمشى خلفه ، حتى يأتى الباب ، ويدخل منزله راكبا فينزل ويقعد ، ويأخذ غلام منديلا ، فيمسح خفه ، وينزعه .. وان كان هذا الوصف للركوب والركب يضعفه ما اشتهر من رفضه الركوب فى المدينة مطلقا ، لأن فى تربتها جسد الرسول عليه السلام ، فكره أن يركب دابة تطأ هذا التراب !

وهو — برفاهيته — يرفه عن تلاميذه ، ومن حضر

مجلس تحديثه ، فاذا ما خرج للدرس دعا بالمراوح ، فأعطى كل انسان مروحة .

***

ونمضى فى وصف الحياة الخاصة ، فنتحدث عن :

مطعمه ومشربه : وهـو فى ذلك عنـد دستوره الذى حررناه ، وعرفنا وجهة نظره فيه ، وبماذا يلقى أهل الزهد والتصوف ، ويناقشهم فى ذلك ، بما يمكن أن يصحح اليوم به تفكير نفر غير قليلين ، يلغطون بمثـل هـذه الأشياء ، ويصرفون عن مسايرة الدنيا حولنا .

فهو — على مبدئه — يصيب الطيب من الطعـام والشراب ، ويحرص كذلك على أكل اللحم ، وله — على ما قالوا — وظيفة يومية فيه ، قدرها درهمان ، لابد له منها ؛ وهنا تظهر المبالغة ، حتى ليتبعون هذا بأنه ، لو لم يجد كل يوم هذا القدر الا أن يبيع فى ذلك بعض متاعه ، لفعل .

وكان فى بيته طباخ يظهر انه قد طال مقامه فيه واستمر ، حتى سمّته الرواية فهو « سلمة » .. على أنا لا نستطيع ترك المطبخ دون تذكر ما تثيره المنقبيـات أو يثيره اختـلاف المرويات ، فى هذا المطبخ وراتبه اليومى من اللحم ، بل زيادة هذا الراتب كل أسبوع مرة ، كل يوم جمعـة ، اذ يأمر

طاهيه بأن يعمل له ، ولعياله فى ذلك اليوم طعاما كثيرا — لقمة زايده كما يقال اليوم — فمع كل هذا ومع ما سمعنا من تأكيد الحصول على اللحم بأى شكل ، ولو ببيع شىء من متاعه ، مع ذلك كله ، ومع غيره مما يؤيده ، ترد رواية أخرى عن « محمد بن مالك » وهى : أن أخت مالك كانت فى منزله ، تهيىء له فطره خبزا وزيتا .. وقد فهم بعض الأقدمين أنفسهم من هذه الرواية أنه كان يأكل الزيت ، ولا يلتزم بوظيفة فى اللحم ، ولذلك راحوا يلتمسون التوفيق بين الروايتين ، بأنه كان لاختلاف حاله فقرا وغنى .. وهذا التوفيق من حيث المبدأ مردود ، لأن امكان أن يكون الأمر كذا ، لا يقتضى ان الأمر كان فعلا كذا ، ووقع هكذا .. والأمر فى هذه المخالفة قد يمكن التخلص منه بشىء قريب ويسير ، هو أن فطره كانت تديره الأخت لأن الطاهى ربما لا يسهل عليه الحضور المبكر ، فتحضر له أخته طعام الافطار ، زيتا ، أو ملحا ، أو أى شىء لأن ناسا كثيرين لا يفطرون ، وان أكلوا فى الغداء أو العشاء ما شاء الله أن يأكلوا ، فالافطار بالزيت لا يمنع الغداء باللحم ، أو باللحم وغيره من لحوم الطير والحيوان كافة .. لعل المسألة لو تلقيت هذا التلقى لأغنت نفسها وأغنتنا معها

عن ملاحظة هذا الاضطراب ، على أنه اضطراب وتناقض قد ضاع معه طريق الوصول الى توفيـــق ؛ مع أن الأمر على الوجه الأخير الذى شرحناه لا اضطراب فيه ولا تناقض .

و « مالك » مع كل هــــذا راو فى الموطأ عن عمــر ابن الخطاب أنه لقى « جابر بن عبــد الله » وقد اشترى بدرهم لحما ، فقال له : أما يريد أحدكم أن يطوى بطنه عن جاره ، أو ابن عمه !! أين تذهب عنكم هذه الآية « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ومالك شـــديد التشبه بعمر ، يفتل مثله سبلة شاربه ، ويحتج بأن عمر كان يفعل ذلك ، ويتخــذ مجلســه بالمسجد النبوى ، فى مكان عمر ، ويلتزم الجلوس فيه ، وقد يرى بعض الناس فى هذا كله ما يهز رواية حرصه على أكل اللحم ووظيفته منه يوميا.. لكن هذه المآكل والمشارب فى عامــة أمرها شئون جبلية لا يلزم فيها الدين بشىء ، ولا حاجة بمتدين أن يتحــرى أكل كذا أو شرب كذا ، لأن أحدا كان يأكله أو يشربه ، الا أن يكون ذلك رغبة من المقلد فى تذكر المقلد .. لا أكثر ، فلا غرابة فى أن يحب « مالك » عمر ؛ ويحب اللحم أيضا !

* * *

ومشرب الشيخ مثل مطعمه ، من مصفّى ما تعرف الحياة

حوله ، من حل طهور : يشرب فى الصيف السكر . ويشرب فى الشتاء العسل ، واذا كنا انما نعرض لهذه الأعمال الجبلية ، من طعام وشراب ، لما فيها من الأدلة على ذوق ومزاج ، وأسلوب تناول ، فان خبرا من المروى يكشف عن ذلك الجانب كشفا طيبا ، وذلك هو ما يروونه من حب « مالك » الموز ، ثم بيانه لسبب ايثاره هذه الفاكهة ، اذ يقول فى ذلك : انك لا تطلبه فى شتاء ولا صيف الا وجدته، فليس شىء أشبه بثمر الجنة منه ، قال تعالى : « أكلها دائم وظلها » وأبرع ما فى هذا البيان دلالته على المزاج والذوق بقوله عن هذا الموز : انه لم يمسه ذباب . ولا يد أسود . فهى — كما ترى — أناقة تناول دقيقة ، تكفى وحدها لتعطى الفكرة عن مستوى الحياة الذى كان « مالك » يعيشه ، وتعبر عن نظرته للحياة ، وتحقيقه صورة منها تعارض تلك الصورة التى تخلط فى التقوى والزهد بين النفسيات الدالة ، والمظهريات السطحية ، أو التى تحسب أن الكيان العقلى العلمى الجاد لا يتكامل مع الكيان الفنى الذوقى ، وتحسب التقوى والورع لا تكون الا مع ذوق مكبوت ، وحس مقلوب ، وتشيع مثل تلك القولة الجافية ، عن العلم الزبال ، أو القولة الأبشع ، التى سمعناها ، فى

الصبى وصدر الطلب يرددها خلفاء هذا السلف ، المتخصص فى علم الدين ، اذ يقولون : من لا يَجرّب لا يفتح الله عليه .
وهى بقايا أخطاء من أفـكار الذين أخطئوا الطـريق من الصوفية ، واتخذوا من فكرة اذلال النفس بالرياضـة التصوفية مجال أوهام تحسب هذا الترويض لا يكون الا عن أخذ بما يضاد الذوق ويحقر الجمال ، وينكس الطبيعة ، ويكره النعمة ؛ وامتد هذا الخطأ المستحكم ، من الماديات الى المعنويات الخلقية فقبلوا الضعة على أنهـا تواضع ، واعتبروا الذل حلما ، الى أشباه لهذا كثيرة ، دخل عليهم الفساد فيها ، من ظنهم أن ذلك من الرياضـة ، التى تحطم اغراء النفس الأمارة — وكان ذلك المنزع عقبة فى أخـذنا بأسباب الحياة الكريمة الراقية ، كما كان هو السبب الأبعد فى محاربة الفنون ، وتحريم ما حرم منها ، حتى دخل ذلك بالضيم الأكبر على كياننا الوجدانى ، وطموحنا النفسى ؛ ولا تزال فى حياتنا عقبات صعبـة فى الأنفس والأعمـال تصدع وحدتنا الاجتماعية بهذا الفهم الخاطىء : فاذا الدولة تنفق ، وتشجع ، وتجيز الفنون المختلفة وأهلها ، وأولئك الواهمون يحرمون ، ويخذلون ، ويؤخرون !!

ومن خير ما يلتفت اليه فى تجارب حياة « مالك » أنها

حياة يتكامل فيها من صواب هذه المعانى ما يدفع عنها أخطار تلك الأخطاء ، فدستوره فى الحياة على ما سمعنا ورأينا هو ذلك الدستور الذى يقرر حق الانسان فى زينة الحيـاة ، ونعيم الدنيا ، ويمارس هذا الحق وفق قولة لعمر بن الخطاب رواها « مالك » نفسه فى « الموطأ » وهى قوله : اذا أوسع الله عليكم فأوسعوا ..

ومع هـذا ، موقف صاحب ذلك الدستور من الزهد والتصوف المتطرف بل المنحـرف ، على ما سمعناه من أنه لا يعد التقوى فى اللباس ، ولا يحسب العزلة هى الطاعة ، ولا الورع يمنح ثقة علمية واتقانا ..

ثم يتوج تلك الاتجاهات بمزاج ذواقة ، يقدر الفن ، ويعرفه ، ويكبر الجمال ، ويدركه ، على ما سنزيده بيـانا ونزداد به استفادة فى عرض شخصيته من جوانبها المختلفة.

عاداته : وهى مظاهر سلوك مستقر ، تحدث عن شئون النفس ، وتدل على أحـوال أثبت ممـا عداها ، اذ تسبب العادة صدور الأفعال عن صاحبها فى سهولة ويسر ، ومع قليل انتباه ، فتكون دلالتها على اتجاهاته أقوى وأوضح .

والعادات بذلك يمكن أن تكون فى فهم صاحبها مرحلة بين ظواهر أحواله ، وخفاياها . ومن هنا أخرنا الكلام عنها

عن الكلام على الشئون الظـاهرة ، من ملبس ، وزينـة ، ومطعم ومشرب ، لننتقل منها الى الشخصية وعناصرها انتقالا أقرب وأدل . وسنلتمس عاداته الدالة على معنويته النفسية، المفسرة لسلوكه ، أكثر من غيرها من مألوفه المادى الخارجى الذى قدمناه من قبل .

والمروى عن هذا الصنف من العادات ذات الدلالة المعنوية غير كثير ، لكنا سنحاول تفهمه فى أناة تهدينا الى شيء مما نبتغيه من تلك النفسيات التى ننشدها .

فمن ذلك ما حدثوا به عن اظهاره التجمل بعامة ، وأنه — على سبيل المثل — كان اذا أصبح لبس ثيابه وتعمم ، ولا يراه أحد من أهله ولا من أصدقائه الا متعمما ، لابسا ثيابه ، وما رآه أحد أكل أو شرب حيث يراه الناس .. هذا مع أن مألوف الناس عادة أن يتخففوا فى بيوتهم ويكتفوا بمباذلهم .

وحدثوا كذلك عن ايثاره السكون ، وقلة الحركة ، حتى بالمشى : وهو كما سمعنا يعد أهوال الدنيا ثلاثة ، منهـا ركوب الفرس العربى ، وركوب البحر — كما سبق — فهو امعان فى قلة الحركة، وان كان دارسه يتذكر فى هـذه المناسبة ما قيل عن خصائص اليمنيين ، وحبهم للعمل ؛ كما

يتذكر كذلك ما قيل عن الأزد ، الذين يظن أن أمه منهم ، فكل أولئك بعيد عن كراهية « مالك » للحركة الى هـذا الحد — لكنا لا نملك من هذه الوراثة البعيدة الا الظن ، واحتمال التخلف لعامل ما ، وفى حياة الرجل بعد الهجرة من اليمن والنزول بذى المروة ، واستضعاف الناس لأهله ، مجال لتعويق هذه الوراثة البعيدة ، بفعل هـذا السبب أو ذاك .

وربما كانت كراهية الحركة راجعة الى شىء أعمق منها نفسيا ، وهو الميل الى العزلة ، وكراهية مخالطة النـاس ، حتى ليذكرنا ما قالوه عنها فى هـذا المعنى بحال نفسية مسببة لذلك ، نشير اليها فيما يلى من حديث عن شخصيته وجوانبها .

ومن أوضح ظواهر ميله الى البعد عن الناس قوله : « ينبغى للعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه ، وان كان يقـع عليه فى ذلك نقص فى ماله ، فان العـامة لا يعرفون قدره ! » وله أيضا مع ذلك أقوال تعـد تعبيرا واضحا عن رغبات له ، كقوله : « حق على طالب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة » .. وقوله : « من علم أن قوله من عمله قل كلامه »

وبعض هذه العادات قد يكون تأثره بهـــا عن طريق أساتذته مثـلا ؛ وقد يكون لأثر المزاج الخاص ، وتلك المسارب الخفية هى التى تحاول تكشفها بمعرفة صحيحـة لما نحاوله .

فالآن .. نستطيع أن تقدم على هـذا العرض الكاشف لشخصية «مالك» من نواحيها المختلفة ، بعد أن راقبنا فى دقة أدوار حياته : جنينا ، ووليدا ، وغلاما ، وفتى ، ورجلا ؛ وعرفنا من ذلك بماذا جاء الحياة ، وكيف أعد لها ، وكيف كانت حوله ، وكيف أتم كيانه فيها ، حتى صار الطفل جدا ، والغلام اماما ، والفتى شيخا يدب على العصا .. وتبينا من عوامل ذلك ما أكنته وراثة ، وما أبدته بيئته ، وأشرنا الى أمهات معاركه فى الحياة ، ومعالم تصرفاته ؛ كما لفتنـا الى أصـول واجبه الاجتماعى ، والانسانى ، فمهّد ذلك كله لجلاء الشخصية التى تم لنا كل ذلك فى معرفتها .

مالك الإنسان

١ ـ الشخصيّة العامّة
٢ ـ الشخصية الفنيّة
٣ ـ مالك والفنّ
٤ ـ الشخصية الخلقيّة
٥ ـ الشخصية الاجتماعية

الفصل التاسع

مالك .. الانسان

ما دلالة هـــذا الذى مضى كله ، من خبر وغيره على شخصية الانسان «مالك» ؟ لقد عرفنا ما استطعنا معرفته من ظواهر مرئية لهذا الانسان ، ونريد لنعرف ما بطن من أمره ، فاذا عرفنا سماته وسمته ، وأسلوب حياته العملى ، فما دلالة هـــذا على مزاجه ، وخلقـــه ، وما الى ذلك من مقومات شخصيته ؟

لا نقف فى ذلك عند المروى فى وصف جوانب شخصية هذا الانسان لأشياء : أهمها أن تقويمهم لتلك الشخصية منقبى ، يحدث عن شمائل وفضائل ، لا عن دقة وصف ، ولا ميل الى شىء من تحليل أو ما يشبه ؛ ومن أسباب عدم الوقوف عند تلك المرويات أنها لا تعمد الى العبارة الدقيقة المؤدية لما نريده نحن الآن حين نحدث عن عناصر الشخصية ، وألوان القوى الانسانية .

وعلى ذكر المناقب والشمائل ، ومع ما قدمناه بين يدى

هذه الترجمة ، من أننا لا ننظر الى هؤلاء الرجال الا على أنهم بشر مثلنا ، نكرر هنـا تأكيد هـذا المعنى ، بين يدى الحديث عن الشخصية الانسانية للمترجم له ، لأننا سنواجه — مضطرين — القول فى الملكات والأخلاق ، والمزاج ، وفى هذا ومثله يجب أن يكون التناول عـلى مستوى واضح صريح من البشرية ، وجو الآدمية ، التى نعرف من شئونها وطبائعها ما نعرف فى الناس كافة ، فلا يرتفع أحد على قوانينها ، ولا يخرج أحد على سننها ، ولا ينجو أحد من نواحى ضعفها ؛ كما لا نعصم أحدا من أن يوزن ويقدر ، لأنه امام ، أو لأنه كذا أو كيت ، من تقديس لا نعرف له ظلا فى هذا الاسلام ، ولو عرف فيه شىء من وهم لوجب أن نتخلص منه الآن ونقاومه ؛ ولن نكون فى هـذه المقاومة الا امتدادا متصلا لحرية فكر وانطلاق عقل ، عرفناها عند بعض الأسلاف منذ أجيال متطاولة ، ولا نكاد نطمع فى أبعد منها ، ولا نحرص على شىء أكثر من أن نكون خلفا صالحا لسلف كان فيهم الراشد الذى لا يحظر على أحد السؤال ، ولا يحد منطقة المعرفة ، بل يقول : « ان السؤال اذا حقق بلفظ يفهم السائل منه مراد نفسه ، ويفهم المسئول عنه فهو سؤال صحيح والجواب عنه واجب » . كما كان

يعطى هذا الحق الكامل فى المعرفة من يجعلون الدين هو الحقيقة والبرهان ويقول : « ان كل ما صح ببرهان أى شىء كان ، فهو فى القرآن وكلام النبى صلى الله عليه وسلم منصوص مسطور يعلمه كلام الله سبحانه وتعالى وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم كل من أحكم النظر وأيده الله بفهم .. ومعاذ الله أن يأتى كلام الله سبحانه وتعالى وكلام نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، بما يبطله عيان أو برهان ، انما ينسب هذا الى القرآن والسنة من لا يؤمن بهما ويسعى فى ابطالهما » .

واذا كان ذلك هو حقنا فى المعرفة ، ومقام القرآن أمام البرهان ، فما بنا قط أن نرفع أحدا عن موضع الدرس ، أو نجله عن أن يكون مجال بحث .. بل اننا بهذا الفهم « لمالك » وغيره فى مستوى البشرية ، وجو الآدمية ، سنكبر هذه الانسانية حين تسمو وتتعالى ، ونعطف عليها حين تتعثر وتهتز خطاها ... وستكون فضائلها مثلا صالحة ، نشعر ويشعر بنونا أننا نستطيعها بطبيعتنا لأنها فى طاقتنا حين نرقى وتترفع ، كما سيكون غير هذا من عمل تلك الشخصيات موقيا لنا من التعثر حين نبصّر بضعف الآدمية وتهافتها ، فيكون هذا الدرس لأولئك الأسلاف عملا عقليا ، نحترم به تفكيرنا ، ونقوم به سلوكنا .

وفى ظلال هـــذه الحرية المخلصة نتحدث عن جوانب شخصية « مالك » بما يهدى اليه البحث الأمين ..

* * *

الشخصية العــامة : أى الشخصية المجربة للحيـــاة بمجموع قوى صاحبها ، ومدى خبرته بشئون الدنيــا ، وأقول انها الشخصية العملية ، التى هى المعنى الجـــامع لكيان المرء ، من حيث صلاحيته لممارسة النشاط العملى .. والفقيه المتشرع يعرض لما يجرى فى حياة قومه الخاصــة ، وحياتهم العامة ، فيما يضطرب حولهم وما يتصلون به من آفاق العالم ، التى لهم بهــا نوع من الصـــلة يتأثر به وجودهم .

ولا نحب أن نقول فى ذلك بما توحيه أخباره ، وحديث المترجمين له ، بل نؤثر أن نستمع فى ذلك لما شعر به معاشرو صاحبنا ومناقشوه من مخالفين أو موافقين ، وفى هذا المجال نقرأ حديثهم عما تدل عليه الفراســة بعــد وصفهم للملامحه الجسمية ، التى أشرنا اليها فى وصفه وهــو وليد صغير ، فقالوا : انه لما ذكرت صفته لأبى العباسى بن سريج القاضى قال : « هذه صفة عاقل » أو قال : « الفراسة تدل على أن من هذه صفته يكون عاقلا » ويدل السياق على ان العقل فى

هـذا التعبير عقل عملى ، وقدرة فى ممارسة الحياة ، لا مجرد الذكاء .. لكنا مع ذلك نجد بعض مترجميه المتأخرين يعقد فى كتابه المخطوط عن تلك الترجمة فصلا : « فى تغفله ، وقلة حذقه فى أمور الدنيا » وينتهى فى هذا الفصل الى وصفه بما عنون به من التغفل وقلة الحذق للأمور الدنيوية ؛ وسلامة الصدر وقلة الحرص ، وعدم الاعتناء بشئون الحياة . وذلك عند هذا المؤلف هو شأن العلماء .. وهم حذاق شئون الآخرة !!

ويتصل بذلك القول فى شخصية « مالك » العامة ما يروى فى كتب المناقب نفسها ، وينتهى الى مثل ما يقوله صاحب هذا الوصف له بالتغفل ؛ ومن تلك المرويات : أنه فى حضرة الخليفة ، أو أمير مكة ؛ ومع « أبى يوسف » صاحب « أبى حنيفة » ، أو مع شخص آخر يعرف «بسندل» قد قيل عنه ، فى روايات متعددة : ان « أبا عبد الله » مرة يخطىء ومرة لا يصيب . فقال « مالك » : كذا الناس . فقيل له : لكن هكذا أنت !! فلما فكر فى ذلك غضب غضبا شديدا ، وقال قولة المغضب بما لا نورده هنا .

ومن تلك المرويات أيضا ، أنه سئل عمن كسر ثنية ظبى ، فأفتى فى ذلك بكذا وكذا .. فقيل له : أو هل للظبى ثنية ؟ ..

وان كنا لا نغفل أن نشير الى أن قصة ثنية الظبى وكسرها كانت — على ما يظهر — أحجية قد رويت مع غير «مالك» ، وبتغيير فى الرواية ، فقيل مثلا : ان « أبا حنيفة » سئل عنها ، وسكت فقيل له : انك تتغافل لأنك تعرف أن ليس للظبى ثنية .. وسواء أكانت فتوى ثنية الظبى قد وقعت فعلا من « مالك » أو كانت بما هى أحجية قد أريد بها وصف مالك بالتغفل وقلة الحذق فى أمور الدنيا ، فانا لا نسلم مع القدماء بأن هذا التغفل وقلة الحذق فى أمور الدنيا هى صفة العلماء ؛ ولا أن العلماء يكونون حذاقا فى شئون الآخـرة فقط . ولسنا بهذا الانكار متأثرين بنظرتنا اليوم ، ورغبتنا فى أن يكون علماؤنا مشاركين مشاركة صحيحة فى شئون الدنيا ؛ بل انا نقول فى ذلك برأى « مالك » نفسه ونذكر فى هـذا ما سبق أن أوردناه من رأيه فى الزهد ، وعدم كفاية التقوى والصلاح للاتقان والضبط ، وهو الذى قد نقلنا عنهم من خبره قوله : « أدركت بهذه البلدة — يعنى المدينـة — أقواما لو استقوا بهم القطر لسقوا ، قد سمعوا العلم والحديث كثيرا ، ما حدثت عن أحدهم شـيئا ، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد ؛ وهـذا الشـأن يحتاج الى رجل معه تقى وورع ، وصيانة واتقـان ، وعلم

وفهم ، فيعلم ما يخرج من رأسه ، وما يصل اليه غدا ، فأما رجل بلا اتقان ولا معرفة فلا ينتفع به » ..

« فمالك » بهذه القولة الجهيرة لا يرى رأى مترجمه المتأخر فى أن العلماء حذاق فى شئون الآخرة فقط ، بل هو كما يؤكد فى اسهاب لا يأخذ العلم عن قوم ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد ، مع سماعهم العلم والحـديث كثيرا ، ولا يحدث عن أحد هؤلاء شيئا ، لأن العلم عنده يحتاج مع التقوى والورع الى صيانة واتقان وفهم .. فهو يقول قبلنا بكثير من الزمن ، وبوضوح أكيد فى العبارة : ان العلماء لا يكونون حذاقا فى شئون الآخرة فقط .. ولا اخاله يرضى بأن يعقد فى ترجمته فصل عن تغفله ، لأنه رفض بقوة ، الأخذ عمن لا يعلم ما يخرج من رأسه وما يصـل اليه غـدا . ولا نحسب أن ما عرفنا عن حياة « مالك » يسهل معه وصفه بالتغفل ، فنقول عن شخصيته العامة الحيوية انها شخصية ضعيفة ، لا تعرف شئون الدنيا .. ولسنا نرفض مع هـذا مروياتهم عن العبارات اللفظية الموهمة مثل : مرة يخطىء ، ومرة لا يصيب ، ولا ثنية الظبى وكسرها ، بل نترك هذه المرويات كما جاءت ، ولا نسلم مع وجودها بأن هذا مظهر تغفل وقلة حذق فى أمور الدنيا ، بل هو شىء يكون مع

الأذكياء الواعين . يكون لهم من وضوح الشخصية وقوتها ما يكفى ، ولكنهم لا يتجهون الى الانتباه لمثل هذه « الفوازير » ، وتفوتهم فيها المبادهة ، وان اهتم بمثل هذه الأشياء واتجه الى جمعها والعناية بها أشخاص لا نصيب لهم من قوة الشخصية الا أشباه هذه البسائط ، ومثل ذلك تراه أيضا فى النكتة والفكاهة ، عندما تبنى على المشاكلة اللفظية ، فلا يكون لناس من الأذكياء عناية بمثل هذه المشاكلات أو المفارقات اللفظية ، وان سارع الى ادراكها من هم أقل منهم ذكاء بكثير . — واذا ما لحظنا هذه الظواهر فى حياة الناس أمكننا أن تقول لهؤلاء الراوين لتلك المفارقات أو « الفوازير » انها مع التسليم بوقوعها لا تدل على شىء من الغفلة ، وانما هى انصراف عن مثل هذه الأشياء .. ١

على أنا نعرف من حياة « مالك » ما قد يفسر هذه الظاهرة ، وهو قلة مخالطته الناس ، وميله الى العزلة ، فهذا كاف للدلالة على عدم الانتباه الى مثل هذه البسائط التى وردت فى رواياتهم .. وعلى ذكر ما أشرنا اليه من الفكاهة والنادرة والانتباه اليها من المعنيين بهذا ، وعدم الانتباه اليها ممن هم أذكى ، ولكن لا اتجاه لهم الى ذلك ، نقول : ان

« مالكا » كذلك فيما يبدو كان قليل الضحك فضلا عن أن يكون صاحب دعابة ، ولو كان له اتجاه الى شيء من هذا لاسترعى انتباهه مثل هـذه العبارات المتفارقة .. وأذكر بهذه المناسبة تجربة لى تؤيد ما شعرت به من عدم دلالة مثل « يخطىء ولا يصيب » على شيء من الغفلة ونحوها ، وتلك التجربة مع أصغر أبنائى الذى لم يبلغ العاشرة بعد ، فان له ولعا بمثل هذه العبارات ، يسمعها أو يوفقها ، ثم يبدهنا بها فلا ننتبه اليها انتباهه ، ويضحك منا ساخرا ؛ وليس مثل المرويات عن « مالك » الا مثل صنيع هـذا الصغير ، فى ضحكه ممن لا يعدون ذوى تغفل ..

و « مالك » فقيه مجتهد ، لا بد له من البصر بشئون الحياة ، كما قالوا فى تعريف العالم بأنه العاكف على دينه ، العارف بحال قومه .. وما نقول مع القائل : ان شأن العلماء — ولا حتى علماء الدين — أن يكونوا حذاقا فى شئون الآخرة فقط .. وعلماء العلم العملى فى أمم مختلفـة يروى عنهم من الاستغراق فى تفكيرهم ما يشتهرون معه بالنسيان الشنيع ، ولا ينتبهون معه الى مثل هذه التعابير ؛ وليس ذلك علامة ما على ضعف الشخصية العامة أو العملية

* * *

الشخصية الفنية — ونريد فيها الحديث عن الحياة الوجدانية « لمالك » عناية بأمر هذا الجانب من النشاط الانسانى ، وتفاعله مع جوانب النشاط الأخرى ؛ ونذكر ما سبقت الاشارة اليه من قول بأن الغلام «مالكا» بدأ أولا يتبع المغنين ، قبل صرفه الى الفقه ، ثم ما يروى من صلة له بهذا الغناء وهو كبير ؛ ويقع ذلك كله ، مع المعروف عن المدينة وأئمة المفتين بها .. كل أولئك هو الذى جعل عنوان هذا الفصل هو الشخصية الفنية ، وهو حديث عن مزاج الامام وما يكون لكيانه المزاجى من أثر فى تصرفاته ، فنية وغير فنية .

وفى هذا المقام تحضرنا قولة الأولين السائرة « غزل يمانٍ ودَلّ حجازى » وحديثهم عن « عمر بن أبى ربيعة » وأن أمه من « حمير » ومن هناك أتاه الغزل .

والدل هو الهيئة والمنظر والشمائل ؛ و « مالك » يمانى ليس ببعيد عهد باليمن ، فالمهاجر منها جده الأول ، ومولده بالحجاز ومرباه ؛ فله به من الصلة ما يكفى .. واذا كانت الرقة النفسية والمظهرية ، نصيب اليمن والحجاز ، فقد حق لصاحبنا أن يظفر بشىء منهما ، ولابد .

والى جانب ذلك ما قدمنا من شأن الحياة حول «مالك»

وما كانت فيه من ترف ، له أثره الذى أوردنا فيه القديم والحديث من القول ، ومثل ذلك خليق بأن يدفع الأمزجة الى شىء من الرقة ، واذا كانت البيئة العامة والخاصة على ما وصفنا ، فالبيئة الأخص ، ودنيا العلماء والأشياخ قد نالها من ذلك طرف ، وكان « ربيعة » شيخه يلبس الأقمصة الرقيقة ، و « ابن أذينة » أحد أساتذته المساعدين — على ما قلنا — فقيه شاعر ملحن . فالرقة المزاجية من كل هذه الأنحاء تحيط بمالك ، وهو حرى بأن ينفعل بكل ذلك ، فيروى عن تصرفاته ما يوائم الحال التى وصفناها ، من حياته الخاصة : منزلا ، ومطعما ، ومشربا ، وملبسا ، وما له من دستور فى التمتع بزينة الله وما أحل من الطيبات ، وكل ذلك تمهيد أى تمهيد لما يروى ، من بسائط فى الأناقة تؤكد هذا المتوقع ، كأن يضع « مالك » فى كمه منديلا مطويا على أربع طاقات ، فاذا سجد سجد عليه ، فاذا قيل له فى ذلك ، قال : أجعله لئلا يؤثر الحصى بجبهتى فيظن الناس أنى أقوم الليل — وهو تعليل لصنيعه الأنيق لا يمنع من دلالة الأمر ، على الرقة ولطف الحس — والناس معه يسجدون على الحصى ، فى المسجد النبوى ، فهل اتقوا ظن الناس أنهم يقومون الليل !! أو تراه هو بخاصة من الرقة بحيث يؤثر

الحصى فى جبهته ما لا يؤثر فى جباه الناس ! ولو لم يصح ذلك الخبر عن حمل المنديل ، فقد مرت بهذه الترجمة أخبار كثيرة تشهد بالكثير من رقة المزاج ، كما أشرنا قريبا ، وفى المنديل بالذات وكان يحمل التابع وراءه منديلا ينفض به الغبـار عن حذائه ثم يخلعه . « فمالك » رقيق الحس ، رقيق المزاج ، بكثرة من الشواهد على هذه الرقة .

وأحسب أن رقة المزاج وقوة الحس تدنو بصاحبها الى شيء من حدة المزاج أو سرعة الغضب ، لدقة الحس نفسها وليس ذلك بالبعيد فى وصف « مالك » فالقدامى يتحدثون، عن شدة «مالك» فى اقامة حدود الله سبحانه ، ويروون أقضية وتصرفات تؤيد هذه الشدة التى وصفـوه بها ، لا أطيـل بايرادها هنا ، وبحسبى هـذه الحـدة فى معاملة زواره ، وجلسائه وطلابه ؛ فهو مثلا يحدث الجالسين فى مجلسـه قدرا من الأحاديث ، ثم يقول : أخرجـوهم ، فتأخـذهم المقارع .. ويسأل سائل عن مسألة ، ثم أخرى ، فلا يجيبه ، فيقول له : ولم ؟ فيقول « مالك » : يا غلام خذ بيده فاذهب به الى السجن ؛ فيقول السائل : انى قاضى أمير المؤمنين ، فيقول مالك : ذلك أهون لك ؛ فيقول القاضى : انى لا أعود ؛ وبذلك يأمر « مالك » الغلام أن يخلى سبيله .. ويقوم رجل

ليعرض عليه ما روى عنه ، فيقول : أحدثكم « ابن شهاب » عن « سالم » فيقول « مالك » : أنت ثقيل ، يقوم غير هذا.. وهذا الاستثقال وحده كاف للتعريف بمزاج صاحبه .

وتصرفه مع العلماء أشباه هـذا القاضى الذى أمر به الى السجن يكون أشد قسوة حين يناظرونه ، أو يطلبون مناظرتهم مثلا ، فحين قال له الرشيد ، فى الحجاز ، ناظر « أبا يوسف » قال : ليس هو عنـدى من أهـل العلم فأناظره .. ويسأله « أبو يوسف » فى مجلس الرشـيد عن مسألة فلا يجيبه ، ويقول له الرشـيد : أجبه ، فيقول « مالك » وهو معرض عنه : اذا رأيتنا جلسنا لأهل الباطل فتعال حتى أجيبك .

ومهما يكن الرأى فى هذه المرويات فانها دخان يدل على نار ، ويشعر — على أى حال — بأن فى مزاج « مالك » شيئا من الحدة ، وما أوردته هنا من تلك الأخبـار ، بل ما ورد فى الترجمة المحررة ، ليس كل ما ورد فى هذا الشأن ؛ ولهذه الكثرة دلالتها ..

ويبين هذه الدلالة على مزاجـه ما يذكر من صفـات أخرى ، لها دلالة واضحة على المزاج ، فهو يؤثر الصمت ، لقول الروايات عنه : كان صامتا لا يتكلم ، ولا يلتفت يمينا

ولا شمالا ، الا يكلمه أحد فيسمع منـه ، ثم يجيبه بشيء يسير ، ويكره كثرة الكلام .. ومن قوله فى ذلك : كثرة الكلام تمج العالم ، وتذله ، وتنقصه .. ويذكرون مع قلة الكلام قلة الضحك ، حتى يبالغ أصحاب المناقب فى ذلك — كدأبهم — ويقولون : انه فى خمسين سـنة عدت له ضحكة أو ضحكتان أو نحو ذلك ، مع أن احصاء الضحك فى خمسين سنة يتطلب ملازمة طول نصف القرن هذا ، لا تتيسر لأى أحد فى الدنيا !! لأنه لابد أن يفارقه فى الخمسين سـنة لحظات قد يضحك فيها مرة فتزيد نسبة الاحصاء النصف أو أكثر !! ويتصل بكراهية الضحك كراهية المزاج أيضا ، ومهما يكن تعليل هـذه الظواهر فانها مظاهر انقباض واضح ، يسوغ معه القول بأن فى مزاجه شيئا من حدة ، ولا سيما عند تقدير أن له تصرفات مسرفة فى الشدة ، يلفت القليل منها النظر الى ما فيها من غرابة ؛ فقد رووا أن السائل الذى سأله عن حديث وهو واقف قد ضربه عشرين سوطا ، ثم أشفق فحدثه عشرين حديثا ؛ وهو يحبس قاضيا يسأله عن حديث وهو قائم ، فيقال له : انه قاض ، فيقول : القاضى أحق من أدب .. ويروى ابن أخته — اسماعيل بن أبى أويس — انه : ما كان يتهيأ لأحـد

بالمدينة أن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا حبسه « مالك » فى الحبس ، فاذا سئل فيه قال : يصحح ما قال ثم يخرج .. ولو كان كل ما روى فى هذه المعاملة الشديدة قد رواه أشخاص ليسوا أقوياء ولا موثوقين ، كابن أخته هذا ، فانه يبقى بعد ذلك كله ما لكثرتها وشهرتها من دلالة ، بل يبقى ما حفظه الشعر المستشهَد به فى وصف مجلسه وهو :

يأبى الجواب ، فلا يراجع هيبـــة
والســـائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار ، وعز سـلطان التقى
فهـو المهيب وليس ذا ســلطان

ليدل هذا القول على أصل ما تنشره تلك الروايات ، وهو اباء الجواب ، وعدم امكان المراجعة ، والهيبة وليس ذا سلطان .. على أن المتحدث عن مزاج « مالك » لا يغفل التنبيه الى مرويات أخرى ، عن حسن معاملته لتلامذته ، وخلطه اياهم بنفسه ، واستضافتهم فى بيته ، وتهيئة المرافق لهم ؛ لكن ذلك لا يدفع أن يعاملهم ويعامل الأنداد معاملة فيها هذه الحدة ..

ولعل مما يوقف عنده كذلك ، فى تقرير حدة المزاج ، شيء

أدق من ذلك كله ، وهو تقديره للفنون ولا سيما الغناء مثلا — على ما سنقف عنده قريبا — فان هذه الشخصية التى لها هذا الحس ربما يستغرب أحد منها تلك الشدة .. لكن ينبغى مع ذلك أن نقدر أن بين الحس الدقيق وتلك الحدة صلة قريبة ، وأن هذه الحدة التى نشـهد العنف فى بعض آثارها ربما لا تكون الا أثرا لرفاهية الاحساس ، رفاهية كتلك التى تمثلهـا حكاية متداولة عن ذى ذوق وضعوا له ورقة على كرسيه ، فقال حين جلس عليـه : هل ارتفعت الأرض أو انخفضت السـماء ، فهـذه الحـكاية الأشبه بالأسطورة تمثل دقة الحس التى تجعل حجم الورقة فرقا فى مسافة ما بين السماء والأرض .. فلو قال قائل ان حدة مزاج « مالك » يمكن أن تكون مؤيدة — الى حد ما — لمـا يختلف فيه من أمر عنـايته بالموسيقى ، وأن له صنعة فى الغناء ، وأنه أدى صوتا غنائيا فعلا ، لو قال قائل هذا ، لم يبعد . وهنا نرى الفرصة مهيأة للحديث عن :

مالك والفن : وفيما آثرنا العنونة له بالشخصية الفنية..

وفى الذى تقدم من تفاريق القول عن الحيـاة الاجتماعية ، اشارات الى خصوبة الحياة الفنية ، ولا سيما الموسيقية ، أثرا للترف الذى فاض فى عصر « مالك » — كما وقعت

اشارات الى وقع هــذا كله على أصحاب العلم الدينى ، أو ما جاء فى عرض شخصيات الأساتذة الذين تلقى عنهم « مالك » عن صــلة هؤلاء العلماء أنفســهم بالموسيقى ومشاركتهم فيها ، مع مشاركتهم كذلك فى الفنون الأخرى كالشعر ، وفى « ابن أذينة » مثل لذلك كما كررنا — وكل أولئك اضاءة كافية لما يمكن أن يقال عن : مالك والفن ، ففى هذه البيئة كان التداخل بين صور الحياة العلمية والفنية قويا نفاذا ، وقد يظن ان الحياة العلمية فى طابعها الدينى تنفر من هذه الفنون ، ولا سيما الموسيقى والغناء ، وقد قيل فى تحريمهما وتحليلهما ما قيــل وانتشر فى المجــال الدينى ، مهما يكن ذلك قد ظهر فى عصور متقهقرة .. ولكنا يجب أن تتمثل الفرق بين العصور التى قيل فيها ما قيل عن الموسيقى والغناء ، وبين العصر الذى عاش فيه « مالك » : فان المداخلة بين الفن والتدين لم تكن مقدرة محسوبة فى ميدان العلم الدينى فقط ، بل جاءت الأخبار بقوتها فى ميــدان العبادة الصالحة ، والتقوى الزاهدة أيضا ، كالذى يروى عن « أبى السائب المخزومى » من أهل هذا القرن الثانى الهجرى ، فقد كان عابدا يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة !! وقــد

رأى « معبدا » المغنى فخفف فى صلاته وقال : ما معك من مبكيات ابن سريج فقال له : قوله :

ولهن بالبيت العتيــق لبانة   والبيت يعرفهن لو يتكلم

الى آخر أربعة أبيات مذكورة فى الخبر ؛ فقال : غنه ، فغناه ؛ ثم قام يصلى فأطال ، ثم خفف ، وقال له : ما معك من مطرباته ومشجياته ، فقال له : قوله :

لسنا نبــالى حين تدرك حاجة

ما بات أو ظل المطى معقــلا

فقال له : غنه ، فغناه ، ثم صلى وتخفف ، وقال ما معك من مرقصاته ، فقال له :

فلم أر كالتجمير منظــر ناظر

ولا كليالى الحج أفتن ذا هوى

فقال له العابد : كما أنت حتى أتحرم لهذا بركعتين ؛ وهى مداخلة قوية — كما نرى — بين العبادة والسماع تذكرنا بما عرفت الصوفية ، فى مختلف العصور ، من هذه الصلة الوثقى بين الفن والعبادة — وقد يكون لهذه المداخلة ما يكون من فعل على الحياة الدينية ، طبعــا ، وهو قدر لا يمكن انكاره ، لكنا لا نجد هذا التأثير — مهما يكن —

مانعا من سلامة الحياتين ، كما هو حادث فى حيـــاة الأمم الراقية اليوم .

على أن أحدا قد يرى أن المداخلة بين الفن والدين علما وعملا الى هذا الحد الذى تمثله شخصية أبى الســـائب القرشى انما هى زعم المصادر الغنائية ، التى لا يتوافر لهــا دائما من سلامة الرواية ما يكفى ، ككتاب الأغانى « لأبى الفرج الاصبهانى » وهنا يحسن الالتفات الى ما قد تتكرر الاشارة اليه من الدلالة الاجتماعية لهذه المرويات ، مهما يكن أمرها من الضعف ، أو حتى من الوضع ، لأن الذين وضعوها من أهل هذا العصر ، أو من هم أقرب الناس الى هذا العصر ، انما يعبرون بهذا الوضع عن صورة الحيــاة فيه عندهم ، وكما يتمثلونها ، لمعنى استقر فى أنفسهم بجملة عن هذه الحياة ، وتقبلها الناس عنهم .. ولو لم يكن هــذا التفصيل بنفسه هو الواقع ..

وبلفتة صغيرة الى ما فى خبر أبى السائب نفسه ، تجد المثل بل الشاهد على هذا المعنى من الدلالة الاجتماعية جملة ، دون ثبوت التفاصيل ، ذلك أن هــذا الخبر يقول : ان أبا السائب كان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة ، ولو فرضنا لكل ركعة دقيقة ونصف دقيقة لتكون صلاة مع أقل

ما يجب من الاطمئنان ، لاحتاج الرجل الى خمس وعشرين ساعة لصلاة ألف ركعة ، دون وقت للوضـــوء وما قبله أو للطعام والشراب ، فأين يجد ساعة أزيد من اليوم والليلة !! ومتى عرف مبكيات « ابن سريج » ومطرباته ، ومرقصاته !! على فرض أنه ساهر لا ينام أبدا ، وشبعان لا يجوع أبدا ، وليس له فى الحياة حاجة .. ان اطلاق كلمة « الألف ركعة » متوسع كأساليب المبالغة التى نستعملها فى الحياة العادية ، فهو عدد لا مفهوم له ، كما يقول أصحاب أصول الفقه ..

* * *

ولو تركنا كل ما روى عن الموسيقى والغناء لدنيا الفن ، ولم نسمع منه ما يحدث عن أصحاب العبادة ، مثل « أبى السائب » لبقى الواقع الاجتماعى يقرر أن الغناء كان بهذا الرواج ، والموسيقى كانت بهذه الأهمية ، والفقــه والدين بجوارهما ، على صعيد واحد ، فى بلد واحد ، فمثل هــذا الوضع يكفى وحده لتقرير أن صلة ما ، قوية ، قد كانت بين الفن والدين ، سواء أكانت بالصورة التى تحكى عن « أبى السائب » فى تفاصيلها أم كانت بغير هذه التفصيلات ، ومع غير « أبى السائب » .

وعلى هــذا القــدر المسلم من صلة ما بين الفن الرائج

الذائع المحبوب ، وبين الدين والعبادة ، تنظر فيما يروى من صلة خاصة لمالك بهذا الغناء ، تماما للقول فى شخصيته الفنية .. فقد سمعنا أنه تبع المغنين قبل أن يتبع الفقهاء .. ولو فرضنا هذا الخبر بتفصيلاته ، وما كان بينه وبين أمه فى هذا الشأن ليس موثوق الرواية ، فانه ليبقى بعد ذلك المعنى الاجتماعى فى بيئة هذا شأنها ، وقرب أن يتجه الأولاد فى طفولتهم الى الولوع بشىء له فيها هذه المنزلة وهذه السعة فى الانتشار .. وهذا القدر يكفى وحده لتقرير تأثر «مالك» الغلام بهذا الجو الفنى تأثرا لافتا ، يحسب حسابه من يتحدث عن شخصيته الفنية ..

فاذا ما كان خبر : أن مارا بالطريق وسط النهار فى المدينة كان يغنى وهو سائر بلحن :

ما بال أهلك يا رباب

خزرا كأنهمو غضاب

فتحت خوخة أطل منها « مالك » وقال للسائر : يا فاسق ، أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة، ثم اندفع يغنيه ، فظن السائر أنه « طويس » قد نشر بعينه ، فسأل « مالكا » : من أين لك هذا الغناء ؟ فحدثه بقصة طلبه للغناء وهو صغير ، فقال له السائر : أعد جعلت فداءك ،

فقال له « مالك » : لا ولا كرامة ، تريد أن تقول أخذته عن « مالك بن أنس »

ثم اذا ورد مع هذا الخبر خبر آخر يزعم صاحبه أنه سمع « مالكا » يغنى :

سليمى أزمعت بينا فأين تقولها أينا

وكان ذلك الغناء فى عرس بالمدينة .. مع تقدير أن هذا الشعر ينسب الى أستاذه المساعد « ابن أذينة » الذى هو — كما كررنا — شاعر ومغن ، وملحن أيضا .. اذا ما كان هذان الخبران ، لا يطمأن الى روايتهما .. ولم يكف فى تأييدهما أن « أبا العلاء المعرى » منذ أكثر من عشرة قرون مضت قد قال فى رسالة الغفران : ان عمر بن عبد العزيز ، ومالك بن أنس يذكران فى طبقات المغنين .. اذا لم تكف الرواية ، ولم يكف خبر « المعرى » فانه ليبقى بعد ذلك ان « مالكا » يعيش فى البيئة التى وضع فى وصفها مثل هذا الخبر عن غناء « مالك » وهذا الحديث عن وجوده بين طبقات المغنين هو والخليفة العادل ، الورع المتشدد فى ذلك « عمر بن عبد العزيز » .. أى أن السالفين فى جملة الأمر قد أنسوا الى أن وصف جو المدينة الغنائى بمثل هذا الأثر العنيف على سائر نشاطها هو وصف مقبول فى أصله ..

وهذا قدر يوجب على الناظر فى شخصية مالك « الفنية » أن يقدر مثل هذا فى حياة « مالك » ، لأن بيئة المدينة قد وصفت ، وشهرت فى غير هذا المجال من رواية صاحب الأغانى ، بأنها بيئة يتعانق فيها الفن والدين عناقا حارا ... وأن « عمر بن عبد العزيز » الذى ينقل « المعرى » خبر ذكره فى طبقات المغنين ، قد أرسله أبوه لتثقفه بالمدينة فبلغ فيها رتبة الاجتهاد ، وكان شيخه فيها أحد فقهائها السبعة المعروفين « عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود » وهو الذى يروى له الشعر الغزل ، ومنه ما يستشهد فيه على حبه بسائر الفقهاء السبعة زملائه المشهورين ، الذين يكونون طبقة قوية فى تاريخ الفقه الاسلامى ، وكان ذلك فى خبر يروى عن قدوم امرأة من «هذيل» قبيلة عبدالله الى المدينة، وكانت جميلة فخطبها الناس وأكثروا ، وكادت تذهب بعقول أكثرهم لجمالها ، فقال فيها الفقيه « عبيد الله » شيخ « عمر ابن عبد العزيز » :

أحبك حبا ، لو علمت ببعضه
لجدت ، ولم يصعب عليك شديد
أحبك حبا ، لا يحبّك مثله
قريب ولا فى العالمين بعيد

وحبـــك يا أم العـــلاء متيّمى
شهيدى « أبو بكر » ، فذاك شهيد
ويعلم وجدى « قاسم بن محمد »
و « عروة » ما ألقى بكم و «سعيد»
ويعلم ما أخفى « ســليمان » كله
و « خارجة » يبدى بنـا ويعيـد
متى تســـألى عما أقول فتخبرى
فللحب عنـدى طـارف وتليـــد

كما أن عبيد الله الفقيه هذا هو القائل :

شققت القلب ثم ذررت فيـه
هـواك ، فليم والتأم الفطـــور
تغلغـــل حب عثمـة فى فؤادى
فبـاديه مـع الخـافى يســير
تغلغـل حيث لم يبلغ شراب
ولا حــزن ، ولم يبلغ سرور

وهو الذى يحس المعنى الفنى الوجدانى حسا رقيقا ، اذ قيل له : أتقول الشعر على شرفك فقال : لابد للمصدور أن ينفث .. والبيئة التى تدين بأنه لا بد للمصدور أن ينفث انما هى بيئة آمنت بالحاجة الوجدانية لكل ذى انسانية أن

يتفنن ، ومثل هذه البيئة لا يستبعد عليها ما سمعناه من عد الأشج عمر بن عبد العزيز الورع التقى ، بما هو ربيب هذه البيئة المدنية ، فى طبقة المغنين ، وحتى بما هو مقدر للغناء ، وان لم يكن مغنيا فعليا ، ولا يستكثر عليها هـذا التقدير الجليل للغناء ، حتى يتعانق الفن والدين عناقا حارا — كما قلنا قريبا — ما دام الشعر فيها يسجل مثل هـذا الاشهاد الفنى ، الذى حرره أحد الفقهاء السبعة ، واستشهد فيه بسائرهم — على ما قرأنا — ويتتابع فيها هـذا الاجلال للفن ، واسعاد الروح به ، قبل عصر « مالك » فى الفقهاء السبعة ، وعصر «مالك» فيما قيل عنه هو نفسه ؛ ثم بعد عصر « مالك » فيكون صاحبه « عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون » ت ٢١٢ هـ الفقيه الفصيح الذى دارت عليه الفتيا فى زمانه ، وعلى أبيه « عبد العزيز الماجشون » قبله ، فهو الفقيه ابن الفقيه ، قد كان على ما يروى ، يجد فى الفن زاد روحه ، ولا يصبر عنه فى اقامة ولا ارتحال ، حتى قال « أحمد بن حنبل » : قدم علينا ومعه من يغنيه ..

وبكل هذا من شأن تلك البيئة لا تشعر بالحاجة الكثيرة الى شىء من الوقوف التاريخى عند نقد ما سمعت من خبر عن الميول الفنية ، أو الغنائية بالذات ، لهؤلاء الأجلاء كعمر

و «مالك» ولا ينقص شيء من الشعور بفنية المدينة لأن ابن خرداذ به الذى قال « المعرى » انه نقل ذلك ، قد يقال فيه : انه قليل التصحيح ، أو لأن صاحب الأغانى قد يكون فى روايته ما فيها ..

ويزيد شعورك بعدم تأثير ذلك ، على المعنى الاجتماعى الملموس فى البيئة ، أن مترجمى « مالك » أنفسهم ، مع ما قد يكون فيهم ، من تحرج القرون التالية ، من المعازف والغناء ، لا تزال تجد فى ترجماتهم ، بين نوادر مالك وملحه، ما يهفو فيه حسه الرقيق الى الغناء ، ويكبر أمره اكبارا دينيا ، فمن ذلك ما يروون من أنه مر بمغنية تغنى :

أنت أختى ، وأنت حرمة جارى
وحقيق علىّ حفظ الجوار
أنا للجار ما تغيب عنى
حافظ للمغيب فى الأسرار
ما أبالى أكان للباب ستر
مسبل ، أم بقى بغير ستار

فقال « مالك » : لو غنّى بها حول الكعبة لجاز .. وفى رواية أنه قال : يا أهل الدار علموا قينتكم مثل هذا ..

وكذلك يروى : أنه مشى مع « ابن أبى أويس » ، ابن أخته ، فإذا مولاة تحمل جرة ماء ، وتقول :

ليتنى أرض لسلمى
فتطانى قدماها

ليتنى درع لسلمى
ترتدينى من وراها

ليتنى خادم سلمى
قاعد حيث أراها

فقال « مالك » : يا اسماعيل ، رجل أو امرأة ؟ .. قلت هى غزال ، خادم بنى عمارة . قال : انها لفصيحة اللهجة حسنة التأدية .. ففى هذا القول بالغناء حول الكعبة ، مهما يكن ما يعنى .. وفى الاستماع لمثل أمانى « غزال » الخادمة ، حس وجدانى انسانى ، لا ينكر نعمة الله من الشعور بالجمال .

ومما قد يؤيد هذا المنزع الفنى « لمالك » وبيئته ، انى لم أجد فى مروياته (بالموطأ) كتاب علمه الأكبر ، قولا عن الغناء فيما راجعت منه ؛ على حين نراه قد عرض للصور ، وحرمتها ، ولكذا وكذا من الحظر والاباحة .. والغناء بالمدينة لا شك أنه كان مما عمت به البلوى ، ولو كان يشعر نحوه

بهذا الحرج الذى تجسم فيما بعد لتحرى تدوين شيء من السنة فيه ... نعم انا نقرأ فى نقل متأخر ، عن «ابن حنبل» : أن «اسحق بن الطباع» سأل « مالكا » عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء ؟ فقال : انما يفعله عندنا الفساق .. فلهذه القولة دلالة — دون نقد للرواية — لكنك تستطيع أن تفهم من صيغة السؤال : ما يترخص فيه أهل المدينة . لأن هذا الترخص قد يكون تساهلا ، فى غناء خليع أو نحوه ، وقد تكون عبارة الترخص نفسها دالة على أن الأمر فى المدينة موضع القبول والتيسير .. ومهما يكن الأمر فى هذه القولة فانها لا تدفع كل الذى رأينا من حال المدينة ، وأهل العبادة والفقهاء ، ومنزلة الغناء عندهم ؛ وذلك كاف للاطمئنان الى أن لذلك أثره على « مالك » وتقديره للفن ، وشعوره بما حوله شعورا جليلا .. ولو كان الغناء فى المدينة بهذا الرواج ، وذاك الانتشار ، فى بيئة منعزلة عن الفقهاء والصلحاء ، وقد قام أولئك فى حى ، وحرموا على هؤلاء الاتصال بحيهم ، لكان لذلك — رغم كل مانع — قوى أثره على الفقهاء والعباد ، الذين تجرى العناية بهذا الغناء بجوارهم ، أو على مقربة منهم ، فكيف وهم فيه غارقون ، ومواليهم وأحرارهم سواء فى العناية الجليلة بهذه الصناعة

التى تركت فى المدينة أئمة هذا الغناء من الموالى ، وخيرة المتذوقين منهم جميعا .

فالقول بأن « مالكا » حسن التقدير للفن ، وان ذلك انما هو صدى لمزاجه الفنى ، وتكوينه الذاتى قول لا تتهيأ المشاحة فيه .. والقول بأن حدة المزاج فى « مالك » انما هى من ناحية أخرى مرشحة لحس « مالك » الفنى وأنه حس غامر واضح ، يسبق من أجله اللسان والجـوارح الى ما يكره ، أثرا للغضبة المنفعلة عن شعور بأن شيئا غـير جميل قد ارتكب .

وهكذا يتواءم مزاجه الفنى الخاص مع مزاجه العـام بحدته ، التى رأينا منها نماذج كثيرة تنم عن غضبته السريعة ، حتى ولو كان من غضب عليه عالما معروفا ، وكان ما غضب منه ليس كبير الوقع ، بعيد الأثر ، فتلك قد تكون سـمة الغنائيين الوجدانيين ، على ما أشرنا ، ويكون ذلك دائما صدى لدقة الحس ، وعنف التأثر الناجم بطبيعة الحال عن وجدان أيسر الأشياء وأخفاها ، مما لا يشعر بشىء منه ذوو الحس الغليظ الخشن ...

ونؤكد هنا ماقدمنا من صلة بين الوجدان ، وسـائر القوى النفسية الانسانية ، وتبادل هذه القوى كلها التأثير ،

بحيث يرقى بعضها ، برقى بعضها الآخـر ، وينحط كذلك بعضها بانحطاط بعضها الآخر ، وهــو ما نرجو أن نجد له الأثر الواضح حينما نتحدث — فيما يلى — عن الجوانب الأخرى من جوانب شخصية « مالك » هــذا ، فيكون فى علمه وفى عمله ، ما يكشف عن أثر هذا التقدير للفن ، الذى اطمأننا الى أنه هو البادى من حال صاحبنا .. ولو لم تؤيد ذلك مؤيدات غير الذى عرفناه ونقلته الينــا الروايات ، على ما فيها .

* * *

الشخصية الخلقية : ونحسب أننا بعد الذى عرفنا عن مزاجه ، وعاداته ، وأسلوب حياته ، نتحدث عن الشخصية الخلقية فيه ، على أساس سليم .. ولو قد أخذنا الأخــلاق بمعناها القريب الشائع ، وأصخنا لأصــحاب المنــاقب والشمائل لسمعنا الكثير الجم ، ممــا يبالغ فى الاطراء ، ويسخو فى الوصف ، ولا يحدد العبارات التى يستعملهــا فكثر ما تسمع الحديث المؤكد عن حسن أخلاق « مالك » وسموها ، فهو كامل المروءة ، كامل الأوصاف ؛ وهو قد تعلم عنه أصحابه من أدبه أكثر مما تعلموا من علمه .. وهم يفيضون فى ذكر شمائله ، والشمائل فى اللغة والاستعمال ،

أقرب معنى فى الدلالة على الفضائل ، وفى هـذا المعنى يقال : «ان يحيى بن يحيى الأندلسى ت ٢٣٣ هـ» أقام سنة ليأخذ عن « مالك » شمائله ، بعد أن فرغ من سماعه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : انما أقمت مستفيدا لشمائله ، فانهـا شمائل الصحابة والتابعين .

والرواية تسلسل الفضل فى هذه الشمائل : فأخذها يحيى ابن يحيى السابق ، ثم أخذها عنه فلان ، ثم فلان .. الخ ، وهم فى هذا يخلطون بين الشمائل — أى الفضائل — وبين العقل ، ويقولون فى ذلك مثلا : ان شـمايل « مالك » هى شمايل الصحابة والتابعين ، ولذلك كان يسمى « العقل ».. وينفقون على أنه كان أعقل أهل زمانه .. وهى — كعادتهم — أحكام مطلقة عامة ، يخلطون فيها بين العقـل ، والمروءة والهمة ، كما يضيفون الى ذلك ، فيما يذكرون ، أشياء من الفضائل العامة بلفظ واسع كقولهم : كان «مالك» يستعمل الانصاف ، ويقول : « ليس فى النـاس أقل منـه ، فأردت المداومة عليه » . وهذا الانصاف لفظ لا يعطى معنى محدودا دقيقا ، فهو يشمل علاقات الأفراد والجماعات ، ويتصـل كذلك بحق النفس الفردى .

ومن ذلك ذكرهم طيب خلقه ، فى بعض المعاملات ، مثل

انه يحمى نفسه بعدم مجالسة السفهاء ، ويقول : ما جالست سفيها قط ؛ ويزعمون أن هـذا أمر لم يسلم منه غيره ، ويذكرون أنه كان من أحسن الناس خلقا مع أهله وولده ، وكان يقول : فى ذلك مرضـاة لربك ، ومثراة فى مالك ، ومنسأة من أجلك .

* * *

ونحن نرجو هنا أن يكون الحديث عن خلقـه أكثر تحديدا ، وأوضح فهما للخلق الفردى ، والخلق الاجتماعى ، ونريد بالخلق عادة الارادة ، ومعيار السلوك ؛ ونقدر فى الحديث عن الشخصية الخلقيـة ، أن الخلق — فى عامة أمره — يرجع الى صفات جسمية ، ترتبط بأخرى نفسية ، وعن طريق تدبير هـذه الظواهر الجسمية النفسية يكون تهذيب الأخلاق ، ويكون سوؤها ؛ ونحن من هذه الناحية نقدر ما تبين لنا — فيما مضى — من صفات جسمية يكون لها التأثر على ما يسمى خلقا ، فاذا ما عرفنا ماهو فيه ، من حدة المزاج ، وسرعة الغضب ، وصمت ، وكراهية للاختلاط ، وما الى ذلك ، فقد بدأنا نتجه اتجـاها صـحيحا فى فهم الشخصية الخلقية « لمالك » ، وبخاصة من الناحية الخلقية الاجتماعية التى تعنينا من الرجل العام ، ومنها نفهم أساس

علاقاته مع عشرائه ؛ وأما الفضائل الخلقية العامة ، فكم من أمين ، صادق ، حسن الطوية .. الخ من الفضائل الفردية ، لكن المعنى الاجتماعى ، والفضيلة العملية العامة لا تعين على الانتفاع بشىء منه . اذ لا يسعفه شعور بالوحدة الاجتماعية مثلا ، أو لا تؤيده شجاعة أدبية .. هذا والأخلاق الفردية نفسها تعظم قيمتها حينما يكون موضوعها عاما واجتماعيا .. فالأمانة مثلا حينما تكون أمانة علمية تعظم قيمتها الخيرية الكبرى ، بما لها من مجال انسانى عام ..

وعلى هذا الأساس لا ننظر فى خلقية « مالك » هذا النظر الساذج ، الذى لا يحدد معنى الخلق ، على ما سمعنا من ذكر الشمايل ، وعد العقل منها ؛ ولا نحدث عن شخصية « مالك » الخلقية باهتمام الا بما هى خلقية عملية ، وفضيلة اجتماعية ، تمس عمل مثل هذا الفقيه فى مجتمعه ، وأدائه لواجبه نحو أمته ، وما الى ذلك من فضائل جماعية كبرى .

وفى هذا المعنى من الشخصية الخلقية لا نريد أن نفترع القول افتراعا ، أو نبدأه من نظرنا ابتداعا ، بل نبدأ بالتماس ذلك فى قول القدماء ، مما عساه أن يكون قد مر فى ثنايا

حديثهم ، من المناقب والشمائل ، ونحن اليوم بفكرتنا فى الأخلاق نجد فيه السبيل الى ما نريد من معرفة الشخصيـة الخلقية ، التى تترجم عن نفسية « مالك » وكيانه المعنوى ، بما ينظر الى الدنيا والناس حوله .

ان فى مراجع ترجماته عبارة واضحة فيما نحن بسبيله من الخلقية الاجتماعية أو العملية ، وتلك هى قولهم :

كان مالك أشد الناس مداراة للناس وترك مالا يعنيه —

وأول ما يلفتنا من هذه العبارة هو صحة روايتها ، وسلامة نقلها ، وهى رواية لو اتهمت لاتهمت لمالك ، لا عليه ، فهى واردة فى تلك التراجم التى لا تخلو من المنقبية ، التى تنظر من هؤلاء الأئمة الى أشباه ملائكة يمشون على الأرض ، وكل شىء من صفاتهم فهو حسن وخير ، كما سمعتهم يعدون التغفل ، وعدم الحذق فى أمور الدنيا صفة العلماء ... ومن هنا لا يمس اتهام هذه الرواية دلالتها الواضحة على معنى فى شخصية الامام ، لعلنا لا ننسى أننا قد مررنا بكثير مما يؤيده ويقويه ، فقد سمعنا عن حدة مزاجه ، وربطنا بينها وبين انطوائه على نفسه ، وصمته ، وكراهة الكلام ، وكراهة الضحك كذلك ، وعدم تخففه فى بيته وارتدائه ثيابه وعمته ، وملابسه الخارجية ، حتى ما رآه أحـد

الا معتما .. وكل أولئك الصفات يعاون بعضها بعضا ، فى تأصيل الفكرة العامة التى نطقت بها تلك الرواية ، التى لا محل لاتهامها ضد « مالك » بل هى — كما قلنا — ان اتهمت مصادرها اتهمت له لا عليه .. وتستطيع هذه العبارة القديمة ، التى لا نريد غيرها مكانها ، أن تهدينا ما فيه الكفاية والوضوح لفهم الشخصية الخلقية العامة ، وتفسير تصرفات كثيرة « لمالك » على ضوئها وهديها .

ولقد نشعر ويشعر القارىء أن هذا الأساس فى نفسية « مالك » وما ينبنى عليه من خلقية ، انما هو تأصيل قوى لفهم هؤلاء الأئمة ، على أساس واقعى من البشرية والآدمية الصريحة العريانة ، تكشفها وتدل عليها أضواء طبيعية ، لا يعوقها شىء من أستار اللاهوتية ، ولا أردية الكهنوتية ، ولا حجب الغيبية .. أضواء مصباح ينبعث منه شعاعان واضحان بل نفاذان هما : شعاع من مزاجه الفطرى ، وشعاع من خلقه الاجتماعى ، يأتلفان فيزيدان الرؤية وضوحا ، والحكم صحة . ويزيد الاطمئنان الى هذا الضوء أنه صادر من وصف القدماء لمزاج « مالك » وروايتهم عن خلقية « مالك » ..

وهذا المحور الثابت لشخصية الرجل على ما سمعنا وفهمنا يهيىء للقول عن :

الشخصية الاجتماعية : — أو حياة الرجل فى أمته ..

وقد عرفنا من جوانب حياة الفرد ما يكفى .. فرأينا كيف سار فى الحياة ، وكيف سارت الحياة به ، وكشفنا عن وراثته ، وما تلقى ، وعن بيئته والدنيا حوله ، ثم تبينّا حياة الانسان فى خاصة أمره ، على اتساع الميادين الخاصة ؛ وآن أن نعرف شيئا عن حياته العامة ، أو حياته الاجتماعية فى أمته ، وكيف كان يمارس هذا التفاعل بينه وبين أمته ، يأخذ منها ما تحمى له من حقوق ، ويعطيها ما تلزمه ، من واجبات ..

وأول ما ينبغى النظر فيه بين يدى هذا المطلب من تصوير الانسان الاجتماعى فى « مالك » هو درجة نشاطه الاجتماعى ، وهل هو بما عرف عن مزاجه ، وانطوائه يميل الى الابتعاد والاعتزال عن الناس ودنياهم الصاخبة ؟ أو هو ليس كذلك .

وأصل هذا هو رأيه فى الزهد ، الذى كان موجة قوية فى عصره ، على ما أشرنا اليه فيما سبق ، فما رأى « مالك » فى هذا الزهد ؟ وما مدى امعانه فى ذلك ؟ بعدما رأينا أناسا

يعدونه فى الزهاد من مؤلفى القرون المختلفة منذ الرابع الهجرى ، الى العاشر ، يضعون « مالكا » بين الزهاد ، والعباد ، والمتصوفة ..

وهنا نشعر ان هذا العد والاحتساب وان تتابعت به القرون ، لا يقيدنا بمعنى من الانقطاع عن الدنيا ، ينسب الى «مالك» لأن الزهد والعبادة ، بل التصوف بعموم لفظه هذا لا يأخذ المعنى بصورته الأخيرة ، فى أول الزمن ، بل كان محض اخلاص فى العبادة وترفع عن حطام الدنيا .. ولدينا من حديث « مالك » نفسه عن الزهد ، ما يخلصنا من هذه الحيرة فى معنى التصوف قديما أو حديثا ، فهذا هو قد آثر عنه كلمتان سائرتان فى الزهد ، تجليان الموقف تماما . وهو فى احداهما يكبر من شأنه اذ يقول : « ما زهد أحد فى الدنيا الا أنطقه الله بالحكمة » . لكن ما هذا الزهد عنده ؟ وهو الذى سمعنا — غيره مرة — قوله فى خطــر الزهد على الحديث ، وعــدم أخــذه الحديث عمن لو استسقى بهم الناس المطر لسقوا لأن زهدهم لم يحقق الضبط والاتقان .

ان كلمته الثانية تبين الزهد عنده ، وتلك هى قوله : « الزهد فى الدنيا طلب التكسب ، وقصر الأمل » ، فهو عنده أخذ للدنيا باعتدال دون تخل ولا اعتزال .. ويؤيد هــذا

البيـــان ويؤكده ما ينقل من سخريته ممن كانوا يسمون بالصـــوفية : اذ ذكر له أمر قوم بنصيبين ، تشبه حالهم صوفيتنا اليوم ، فضحك من حالهم .

وعلى هذا المعنى فى الزهد يكون متصلا بالحياة ، لا معتزلا لها ؛ ولكن يبقى بعد هذا أن نسأل عن مدى صلته هذه بحياة قومه وأمته ؟ .. والحكم الفردى المسيطر الذى وضفناه — فى فصل الحيـــاة حول مالك — خليق بأن يقطع أواصر ما بين الناس ، ويدفع بهم الى تحلل ، يشغل كل أحد بنفسه ، وينادى « أنا مالى » .. وتلك هى العبارة التى خلفها فينا ذلك الحـــكم أثرا مسموما ، ومـــيراثا مشئوما .. ومن أجـــــل ذلك نرى من تصرفات « مالك » المروية ، وأقواله المنقولة ،ما يؤيد الفردية ، والاهتمـــــام بالنفس فقط ، كما نجد من قوله ، وعمله كذلك ما يؤيد النزعة الاجتماعية ، فمن الأول قوله : « لا يصلح المرء حتى يترك مالا يعنيـــه ، ويشـــتغل بما يعنيه ، فاذا كان كذلك اوشك أن يفتح الله تعالى قلبه له » كما سمع منه قوله : « اذا لم يكن للانسان فى نفسه خير لم يكن للناس فيه خير » وهو فى الأمر بالمعروف يسأل عما يوجهه الآمر لمن لا يأمن منهم الشر كالشعراء يهجونه ، أو الشطار يضربونه ، فرأى أن

للآمر فى هذه الحال سعة ، أن ينكر بقلبه فقط ، ويرى أن الآمر فى مثل هذه الحال يخرج من جملة أهل العلم والقرآن ، اذا أمر من لا يقبل منه .. وقد وقع حادث من هذا النوع خطأ فيه « مالك » شيخه « ابن هرمز » لأنه أمر من لا يقبل منه ، كما سبقت الاشـــارة الى ذلك فى وصف شخصية « ابن هرمز » ، ولما ديس بطن « ابن هرمز » فى هذه الحادثة ، حتى حمل الى منزله ، زاره « مالك » وهو يشكو ، فكان مما قاله له : ان هذا لم يكن لك .. فقال له « ابن هرمز » ترى أنى أخطأت ؟ فقال « مالك » : أى والله .. فهذه كلها نزعة فردية تلائم المعروف عنه من كراهية مخالطة الناس ، والميل الى الانفراد .

هذا فى الفردية ، وأما ما نقل عنه من النزوع الاجتماعى فمثل قوله : « حق على كل مسلم ، أو رجــل جعــل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى ســلطان ، فيأمره بالخير ، وينهاه عن الشر ، ويعظه ، حتى يتبين دخول العالم على غيره ، لأن العالم انما يدخل على السلطان لذلك ، فاذا كان فهو الفضل الذى لا بعده فضل » . وهو الذى قيل له : انك تدخل على السلاطين ، وهم يجورون ؛ فقـــال للقائل : رحمك الله ، وأين التكلم بالحق .

وفى هذا ومثله من الروح الاجتماعية شيء واضح ، فأى النزعتين كان أغلب على حياة مالك ؟ هذا هو ما نعرض من أجله لحياة « مالك » فى أمته ، وما لها عليه من واجب اجتماعى ؛ ونرى هذا المطلب محوجا للفت القريب الى : مكانة العالم فى أمته بعد ما قدمنا الاشارة الى ذلك عند الحديث عن الوضع السياسى فى حياة عصره ، وبينا أن عالم الفقه والدين بصفة خاصة هو الذى يمثل فى هذا النظام الفردى سلطة الشعب ، وقوته المعدلة لهذه الديكتاتورية الفردية التى كانت بروح العصر لا ترهب — ولو ظاهرا — الا الشعور الدينى ، الذى كان صاحب القوة فى حياة الحاكمين والمحكومين ، فالحاكمون يصلون الى هدهدة الشعب المحكوم بهذا الشعور ، وأما أولئك المحكومون فلاستنامتهم الى التوجيه الدينى ، حينما يرضى على حاكم ، أو يسخط عليه ، وهم ان سخطوا يتقوون على احتمال الظلم بالفزع الى الله ، والصبر على ما قضاه ، ومع الحاكمين والمحكومين يخرج علماء الدين ويدخلون ، فان توافرت لهم شجاعة جهروا بالانكار ، وهزوا قلوب الحاكمين وعروشهم ، وان غلبهم الضعف سكتوا أو ثبتوا قواعد الظلم بفتواهم المؤيدة وأشباهها ، فهم بقربهم من الشعب ، فى

شعائره ومواسمه ألسنة للحاكم أو عليه ؛ وهم بدخولهم الى الحاكم ، الذى يؤيد مركزه بوجودهم حوله ، يستطيعون أن يكونوا ألسنة للشعب أو عليه .. ولهذه الصلة لعلماء الدين بالحكام والمحكومين جميعا ، يظهر الحكام الحرص الشديد ، على الانتفاع بهم ، وتقريبهم بالوعد والاغراء ، أو بالوعيد ، اذا لزم الأمر ، فيحرصون على توليتهم القضاء ، ولا سيما الكبار المعتقدين عند الجماهير ، الذين يقومون فى الناس مقام الواعظ والمعلم ، فيفسرون الأصول ، ويوجهون الأفكار ، والناس لرأيهم تبع .

ومن هذا الوضع تتحدد حقوقهم الاجتماعية وواجباتهم : فهم من حيث الحقوق ، المفتون والقاضون والمصورون لواقع الأمر ، ومجرى الحياة ، ولا بد من الظفر برضاهم .. ومن حيث الواجبات هم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر ، يردون الحاكمين عن غيهم بعظة ، أو شفاعة ، أو غضبة واستقالة ، حسبما تسعف قوتهم ، كما يردون المحكومين الى الطاعة ولزوم الجماعة بفتواهم ، ووعظهم ، واستعمال سلطتهم الدينية الغيبية .

وفى ظل هذا البيان ندرك جليا ما أجملت الاشارة اليه من أن صاحب العلم الدينى ، فى هذا النظام الاسلامى

قديما وحديثا هو ممثل الشعب ، وصورة قوته ، التى تبلغ صوته الى الحاكم ، وتبدى قوته لديه ، لأنه عنـد الحاكم مصدر الأمن أو القلق ، ان ظفر برضا هؤلاء العلماء ذوى الصفة الدينية ، ظفر بالسبيل الى قلوب الناس ، وان فقـد هذا الرضا فقـد المنزلة والمكانة والرضا ، وهو خاسر ان أكره رجال الدين على الشيء بالقـوة ، أو سـكت عن مخالفيهم ففقد القوة .. فهل صار لمالك فى أمته هذا الوضع الخطير ؟

ثم ماذا صنع « مالك » منـذ صار له فى أمته هـذا الوضع ؟ ..

أما عن السؤال الأول فقد تحقق « لمالك » هذا التأثير منذ عصر مبكر ، اذ قالوا : ان أمير المدينـة قد بعث الى « مالك » منذ الحداثة أن يحضر المجلس ، فحضر مع أستاذه ربيعة .. ووصل صيته الى مقر الخلافة فى بغداد ، وصـار فى عداد أولئك الذين يفتون الحكومة فيما تفعل ، ويفتون للشعب فيما يقبل ، وانتهى الأمر به الى مثل ماروى من أن «الرشيد» أمر واليه على المدينة سنة ١٧٣ هـ ألا يقطع أمرا دون «مالك» . كما نودى فى المدينـة غير مرة : ألا يفتى الناس الا « مالك » وفلان ؛ وكان فلان هـذا مرة هـو

« ابن أبى ذئب » ومرة هو « ابن الماجشون » .. ويصل الأمر مع « مالك » الى أن يكون هو الرقيب على الوالى اذ يقول له الخليفة المنصور : ان رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة ، أو أحد عمال الحجاز ، فى ذاتك ، أو فى ذات غيرك ، أو سوء سيرة فى الرعية ، فاكتب الى بذلك أنزل بهم ما يستحقون وقد أكتب الى عمالى بها أن يسمعوا منك ويطيعوك فى كل ما تعهد اليهم ، فانههم عن المنكر ومرهم بالمعروف تؤجر .

وبذلك صار « لمالك » من المظهر ما قيل ، حتى فى مجلس درسه ، من أنه كان له فيه سودان يقيمون الناس ؛ وكان له نفوذ فى الحياة العامة ، يجلس عند الوالى فيعرض عليه السجن ، فيقول له ، اقطع هذا ، واضرب هذا مائة ، وهذا مائتين ، واصلب هذا .. الخ .. وفى المسجد أيضا كان له نفوذ ، فيدعو الحرس ليأخذوا أحد الناس بمخالفة ولو كانت يسيرة ، وكان المخالف عالما معروفا ، فقد دعا الحرس ليأخذوا « ابن مهدى » ويحبسوه ، لأنه وضع رداءه وسط الصفوف .. ويبدو أن هذا النفوذ كله انما كان فى عهد العباسيين فقط ، أما فى عهد الأمويين الذى عاش فيه « مالك » نحو أربعين عاما ، فليس فى الأخبار ما يحدث عن

شيء من النفوذ لديهم ، أو الاتصال بهم ، وكأن الأمر في هذا النفوذ ، في العصر الأموى لم يجاوز والى المدينة .
أما العباسيون فقد حج كثير من خلفائهم ، ولقى « مالك » غير واحد منهم ، زاروه فى منزله ، أو جاء هو مجلسهم ، وكان يكره أن يجلس حيث ينتهى به المجلس فيكون مؤخـرا — على ما يروى — فهو يدخل المجلس ، فيسأل الخليفة : أين أجلس ، أو أين يجلس الشيخ « مالك » ، أو شيخك ، أو عمك — فى روايات — فيقول له الخليفة : الىّ الىّ يا أبا عبـد الله ، فيتخطى الناس حتى يصل اليه ، فيرفع مجلسه .

وأجزل له الخلفاء العطاء . مع هذا الاحترام ، ووقع فى ثنايا الأخبار ما يحدث أنه أصاب من هؤلاء العباسيين نحو عشرين ألف دينار ، أى عشرة آلاف جنيه ، « فالمنصور » الدوانيقى ، المشهور بالشح ، يصله بستة آلاف ، أو خمسة وكسوة سنية ، ومعها ألف لابنه محمد ، ولما لحقه الخصى بالكسوة جعلها على منكب الشيخ ، وكذلك كانوا يفعلون فيخرج الآخذ بها على الناس ، فانحنى « مالك » أو تنحى عنها كراهة لذلك ، فنادى « أبو جعفر » الخصى : أبلغها رحل « أبى عبد الله » .. وهذا الحادث يوفى بنا على السؤال

الثانى : ماذا صنع « مالك » منذ صار له فى أمته هـذا الوضع ؟

لقد دخل على الخلفاء ، بل سعى للقائم على أميـال من المدينة ، وكذلك دخل على ولاتهم ؛ وغشى مجالسهم .. وكان رأيه قبول جوائز الخلفاء ، وله فى ذلك أكثر من عبارة منقولة عنه ، منها قوله : « أما الخلفاء فلا شك — يعنى أنه لا بأس به — أما من دونهم فان فيه شيئا » . وأقل ماله من قول فى هذا هو الأخذ مع تحرج ، كما نقل أنه سأله غير واحد عن الجائزة ؟ فقال : لا تأخذها . فقال له السائل : انت تقبلها ! فقال « مالك » : أتريد أن تبوء باثمى واثمك !! وقال لآخر فى مرة : أحببت أن تبكتنى بذنوبى !

هذا من حيث المظاهر ، أما الأعمال مع الخلفاء ففيها هذا وذاك : فهو مثلا قد سمع يحلف بالله ما دخلت على أحـد منهم — يعنى السلاطين — الا أذهب الله هيبته من قلبى ، حتى أقول له الحق .. وهو وعظ « المنصور » فى افتقاد حال المسلمين ، فأثبت له « المنصور » أنه يعرف الخفى من شئون بيته هو ، وانه بحال الناس أعرف .. وهو قد كتب الى بعض الخلفاء واعظا ، وحفظ لنا بعض ما كتب فى هذا المجال .. وقد استنكر بين يدى بعض الولاة والخلفاء ، حين

دخـــل عليهم ، أشـــياء ، كاستنكاره على الرشـــيد وجود الشطرنج فرماه « هرون » برجله ؛ ونهى «المنصور» عن رفع صوته فى مسجد الرسول عليه السلام . وفى مجلس المهدى أبى أن يشرب ماء فى كوز له حلقة فضة ، فأتى بكوز فخار فشرب ، فأمر المهدى بحلقة الكوز الفضيـــة فقلعت .. وكذلك أنكر بعض الأشياء على الولاة ، فأنكر على والى المدينة الخـــروج الى صـــلاة العيد فى سلاح ، وتعبئة ، ورايات .

وفى هذه المناسبة القوية يحلو أن نذكر «لمالك» فتوى قوامها : ان كل مافى يد أمير المؤمنين ليس له .. وذلك اذ حنث الرشيد فى يمين ، فاجتمع العلماء أن عليه عتق رقبة ؛ فسئل « مالك » فقال : عليه صيام ثلاثة أيام .. قال الرشيد : أنا معدم ؟ قال الله سبحانه وتعالى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فأقمتنى مقام المعدم ؟!

فقال : يا أمير المؤمنين : كل مافى يدك ليس لك ، فعليك صيام ثلاثة أيام .. فالقول : بأن أمير المؤمنين كل مافى يده ليس له . مبدأ بعيد المدى ، لو طبقه مالك وغيره ، حتى النهاية ، وتمسك به فى عامة تفكيره الفقهى لغيّر وجـــه التاريخ ، فى صلة هؤلاء الحكام بالمحكومين ، ولكان كلامنا

اليوم عن الاشتراكية غير ما تقــول الآن ، ولما احتـــاج الاسلام فى فهم السياسة المالية الى ما يحتاج اليه اليوم .

* * *

والى هنا نستطيع أن نجمل القول فى شخصية «مالك» الاجتماعية ، ونركز الحكم فيه ، بعد الذى خضنـــاه من مشتبهات ، فقد بدأنا فرأيناه يعد فى الزاهدين ، ورأيناه يشيد بالزهد ، لكنا فهمنا زهده من قوله وفعله فاذا هو زهــد المشاركة المعتدلة لا الاعتزال ، فحاولنا تقدير مشاركته فى الحياة ، وأى طابع يكون فيها أبرز وأغلب : أهو النزوع الفردى أو الجماعى ، فرأينا شـــواهد على النزوعين ، وفى سبيل الترجيح عرضنا لمكانة العالم فى أمته ، وأنه كان فى ذلك العهد ، ومع نظام الحكم يقوم قهرا بتمثيل الشعب .. وأردنا بعد تحديد هذا الواجب أن ننظر فى أداء « مالك » له ، فوجدنا فيما عرضنا من صلاته بممثلى السلطة العليـــا أنهم قد أعطوه سلطة كافية ، أو فوق الكافية أحيانا ، وأنه فى تمثيل الشعب لديهم قد سلك — فيما يبدو — مســـلكا بين بين ، فما تستطيع أن نعده متخليا عن تمثيل الشعب ، ولا نستطيع أن نعده الصورة المرجوة فى هذا التمثيل .

ومن هنا نقول فى جملة الأمر : ان الخلقية الاجتماعية

لمالك قد تأثرت بما هو معروف من مزاجه وأخلاقه الفردية ، وأنه من أشد الناس مداراة للناس .. وهو قدر لا مفر منه ، ما دامت الحياة تجرى على سنن مقررة ، والانسان صناعة وراثته .. وبيئته .. وهؤلاء الأئمة — مهما يكن الأمـــر — ليسوا الا آدميين بكامل مفهوم الآدمية .. وهذا القدر من فهم « مالك » الانسان بجوانب شخصيته المختلفة ، هو الذى يكشف وجه الرأى الصحيح فى فهم صلته بالسياسة ، وصلة السياسة به ، تلك الصلة التى لم يكن « مالك » وأمثاله ممن يستطيعون عدم التأثر بها مهما يفعلوا .

السياسة .. ومالك

١ ـ بين القول والعمل

٢ ـ مالك بين الدول والأحزاب

٣ ـ مالك والأموية

٤ ـ مالك والعباسية

٥ ـ مالك والعلوية

٦ ـ مالك والخوارج

٧ ـ محنة مالك بالسياسة

الفصل العاشر

السياسة .. ومالك

هذا التقديم للسياسة ليس جـزافا من القول ، وليس مجرد تفنن فى التعبير ، ولكنه لما يكون له التقديم دائما من الاهتمام ، واللفت الى أن السياسة هى التى تطلب «مالكا» وتلحقه ، أو تلاحقه ، لأن هذا العالم الدينى وأمثاله انما هم — كما قلنا قريبا — موضع حاجـة الحـكام والمحكومين جميعا ؛ وهم أمام الحكام ممثلو الشعب ، أو سلطة الشعب لما بدا من أسباب ؛ وهم طريق الشعب لأولئك الحكام ، يثبتون سلطانهم عليه ، ويمكنون لسلطانهم عنده .. ومن أجل ذلك لا يستطيع واحد من هؤلاء الأئمة أن يتخذ له موقفا سلبيا من الحـكم — مهما يحاول ذلك — لأن الحكومة دينية فى أساسها ومظهرها ، والحياة دينية الطابع فى اتجاهها ونشاطها ، يحدد الدين غايتها ، ويرسم هدفها ، والمذاهب السياسية فى الحكم ، وسلطة الحاكمين ليست

الا مقالات دينية — على ما رأينا فى وصف الحياة الدينية من هذه الترجمة — وبكل أولئك لا يستطيع عالم الدين ألا يكون متعاملا مع الدولة والحكم ، أى السياسية ؛ واذا ذكرنا ما سبق بيانه من أن الفقيه لا بد له من موقف معين أمام المقالات والنحل وفرق المتكلمين ، زاد أمامنا وضوحا أنه لا مفر للفقيه أو العالم الدينى من أن يكون له مكان فى السياسة ، ايجابيا فعالا ، ان عمل وعلم . وسلبيا بعيد الأثر ، ان توقف وتريث وتباعد ، لأنه لابد مادام معلم دين أن يقول فى ذلك شيئا ، أو يصمت ؛ فيكون قوله هو الموقف الفعال .. كما يكون سكوته هو الموقف السلبى ، لكنه البعيد الأثر .. ولذلك جاء العنوان هكذا : السياسة .. ومالك .

بين القول .. والعمل : — أشياء أعدها سردا ، مكتفيا بما مضى من قول فيها ، أو بما يعرف الناس عنها لتدل على ضرورة أن يكون لمالك وأضرابه ، قول فى السياسة وعمل ، وتلك الأشياء الموجبة لهذا هى :

صلة وثيقة بين الحاكم ورجل الدين ، على اختلاف تاريخ البشرية وألوان حكمها ، وصور تدينها .. ودينية الدولة الحاكمة لمالك ، ودينية التقنين فيها .. وشمول

ما يسمى العلم الدينى ، أو يسمى الفقه لأنواع القوانين المختلفة من قانون نظـامى ، ودولى ، وعادى .. الخ كل أولئك وأشياء تشبهه تقضى بأن يقول هؤلاء الفقهاء ، فى عصر « مالك » وقبله وبعده ، عن أصـول الحقـوق والواجبات ، للأفراد فى الجماعة ، وللجماعة على الأفراد ، فيحدثون عن الحكم ونظامه ، فى حديثهم عن الخلافة ، وأصلها ، ووجوبها ، وشروطها وما الى ذلك .. ويمتد حديثهم هذا وما يتصل به الى الحاكم وشروطه وواجبه ، وحقه ، وموقف الناس منه ، ويعرضون من ذلك لأشياء كثيرة بحسبى هنا أن أشير الى واحدة هى أهمها ، تلك هى مسألة الخروج على الجور ، كيف ومتى يكون ؟

وحديث القوم فيما أشرت اليه من أصـــول الحقوق والواجبات هام ، يمثل وجهة نظرهم ، ودرجـة رقيهم ، ومدى فهمهم للحرية وكفالتها ، وبعض هـذا الحديث قد يجب أن يتقدم على المسألة التى اخترتها ، وهى مســألة الخروج على الجور ، ولكن لا مجال لعرض شىء من ذلك هنـا . وفى الترجمـة المحـررة لمالك من ذلك قدر صالح — ٣٧٥ : ٣٨٢ — وأدع لمن رجع الى شىء من هـذه الصفحات أن يجد الضعيف من القول ، والمتخاذل من الرأى

فى مقاومة الجور ، لأسوق هنا الرأى الكريم ، والقول الحكيم فى هذه المقاومة للجور بالقوة والخـروج عليه بالسيف ، فذلك هو ما تقرره طوائف من أهل السنة ، وجميع المعتزلة ؛ وجميع الخوارج والزيدية ، أخذا عن جمع من الصحابة كعلى ومن معه من الصحابة ، وعائشة ، وطلحة والزبير ومن معهم من الصحابة ، ومن على نهجهم من سائر الصحابة والتابعين ، ومن على آثارهم من الأئمة الفقهاء الكبار ، أبى حنيفة ، والشافعى ، وداود الظاهرى ؛ وهذا «مالك» يعد من أولئك القائلين : « ان سل السيوف فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر واجب ، اذا لم يمكن دفع المنكر الا بالسلاح » . وغاية الأمر فى احتياط هؤلاء الفازعين الى القوة أن قالوا : تفرض تلك المقاومة بالقوة ، اذا كان أهل الحق فى عصابة يمكنهم الدفع ، ولا ييئسون من الظفر ؛ فان كانوا فى عدد قليل أو ضعيف ، لا يرجون لقلتهم أو ضعفهم ظفرا ، فهم فى سعة من ترك تغيير المنكر باليد ، والقوة ..

وفى أفق هذا التغيير بالقوة يكون الواجب عند هؤلاء أنه ان وقع شىء من الجور — وان قل — أن يكلم الامام فى ذلك ، ويمنع منه ، فان امتنع ، وراجع الحق ؛ وأذعن

للقود من البشرة ، أو من الأعضاء ، ولاقامة حد الزنا ، والقذف والخمر عليه ، فلا سبيل الى خلعه ؛ وهو امام ، كما كان ، لا يحل خلعه ؛ فان امتنع من انفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يرجع وجب خلعه . واقامة غيره ممن يقــوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ؛ ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشرائع ..

وهــذا الذى نسمع ونطرب له هو قول القائل عن هؤلاء الأئمة الذين يعنينا أمرهم ، وليس هو افتيــاتا من الناقل عنهم ، فان «لأبى حنيفة» و «مالك» فتاوى فى خرجة معينة هى خرجة « محمد وابراهيم ابنى عبد الله الحسنيين » على المنصور ، وقد فات ذكر فتوى « مالك » هذه غير مرة ، كما ذكر خروج أبى حنيفة مع ابراهيم بالبصرة ، وعد أبى حنيفة لها كيوم بدر ..

ولكن القول فى هذه الخرجة بالذات لا يوافق عمــل الرجلين فيها ، فلا قول « أبى حنيفة » فيها يوافقه عمله ، ولا قول « مالك » فيها يوافقه عمله ، فأبو حنيفة ـــ رضى الله عنــه ـــ لقيه أخو أحــد المقتولين مــع « ابراهيم ابن عبد الله » فى البصرة ، وقد ركب لينظر تركة أخيه ،

فلما لقيه « أبو حنيفة » قال له : لو أنك قتلت مع أخيك كان خيرا لك ، من المكان الذى جئت منه ، فقال له الرجل : ما منعك أنت من ذاك ؟ فقال له « أبو حنيفة » : لولا ودائع كانت عندى وأشياء للناس ما استثنيت فى ذلك .. فالودائع وأشياء الناس تمنع « أبا حنيفة » من شهود مثل يوم بدر .

وأما مالك فى هذه الخرجة نفسها فقد تكرر ما كان منه فيها ، وهو انه كان يفتى النـاس بالخروج ، وبعد بيعتهم للمنصور بيعة اكراه ، ولا يمين لمكره ، فخرج الناس ، ولزم هو بيته .. وأمام هذا الذى كنا نرجو ألا يكون صحيحـا من الخبر ، لا مفر لنا من التفريق بين القول والعمل مهما تكن رغبتنا ، فى تزيين سمعة أولئك الرجال ، ونسيان بشريتهم ، فمع شهرة « أبى حنيفة » بقوة الرأى فى الخـروج على الأئمة ، ويسر استعمال السيف ، وسهولة وضعه فى الرقاب ، ومع ما عرف عنه ، من ميل عن العباسيين ، وكراهيته للعمل لهم ، تسمع منه هـذه الاجابة عن سبب عدم خروجه مع ابراهيم ، الذى رأى أنه كان خيرا للأخ أن يقتل مع أخيه فيها ، ويتعلل الامام بودائع الناس وأشيائهم التى كانت عنده !!

وأما « مالك » الذى عده ابن حزم فى غمرة حماسـه

ضمن القائلين بالخروج على الجـور ، ورده بالسيف ، فانا نسمع عنه أن العمرى — عبد الله بن عبد العزيز من ولد عمر بن الخطاب : امام فاضل راس فى الزهد والورع — سأل « مالكا » عن بيعة أهل الحرمين له ، وظلم أبى جعفر المنصور ، فقال له « مالك » : أتدرى ما الذى منع « عمر ابن عبد العزيز » أن يولى رجلا صالحا بعده ؟ قال : لا ؛ قال : كانت البيعة ليزيد ، فخاف عمر ان بايع لغيره أن يقوم ويقاتل الناس ، فيفسد ما لا يصلح ..

« فمالك » فى هذا يرى أن احتمال ظلم الظالم أفضل من الفساد المترتب على قتال هذا الظالم ، ويحتج بعمل عمر بن عبد العزيز حين ترك تولية صالح غير يزيد ، خشية أن يقوم ويقاتل فيفسد ما لا يصلح !!

ولقد تدرك من قرب أن احتجـاجه بعمـل « عمر بن عبد العزيز » فى احتمال الظلم غير وجيه ، أو غير صحيح ، لأن يزيد لم يل الأمر ، ويرتكب ظلما بعد ، فلو أهمل عمر ابن عبد العزيز بيعته بولاية العهد ، وبايع غيره ، ولو كان أفضل من يزيد يكون ذلك فى تفكيرهم الفقهى تركا لبيعة المفضول الى الأفضل ، وهم لا يرون هذه لأنه لا ظلم فيها .. وكما لا يسلم الاحتجـاج ، لا يصح فى سـهولة القول

بالسكوت عن مقاومة الظلم خشية الفساد الذى يحصـــل بالمقاومة !

والقول اذن بأن « مالكا » يرى سل السيف دفعا للظلم ليس صحيحا على هذا الاطلاق ، لأنه — كما سمعنا — يرى أن فساد الخروج والقتال أكثر من الظلم القائم ، أو أن الخروج لا يصلح به شيء كثير مع ما يستلزمه من الخسائر .

وهو رأى لا تسهل موافقته عليه ، وأخصر ما أقول فى مناقشته عبارة قالها معاصره له ، كان فى جيش « ابراهيم ابن عبد الله » الخارج على المنصور ، والذى أفتى « مالك » بالخروج مع أخيه محمد بالمدينة .. تلك العبارة قالها أحد أصحاب ابراهيم أثناء المناقشة فى مجلس حربى ، قال فيه بعض الحاضرين بتوقى الخسارة ، فقال هذا الرجل، ودونت عنـه : كأنكم خرجتم لقتال المنصور ، وأنتم تتوقون قتل الضعيف والمرأة ، والصغير !! أو لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبعث سراياه ليقاتل ، ويكون نحو هذا !!

ففى هـذه العبارة وجه الرأى ، فى وجوب احتمال الخسائر الأقل . من أجل الفوائد الأجل ..

وموقف « مالك » فى هذه من جو موقفه فى مخالطة السلاطين ، حتى لا يستشار من لا يعرف ، وتعلله بذلك

عندما سئل عن اتيان الأمراء فى الوقت الذى لم يستطيع فيه غشيان المسجد ، وموقفه فى ذلك يختلف عن موقف أصحاب له هو نفسه مثل « ابن القاسم » الذى كان معروفا بمجانبة السلطان ؛ ومثل « سحنون » ناشر الفقه المالكى بالمغرب ، فانه كان يكره اتيان السلطان ، ويقول : ما أقبح العالم أن يؤتى الى مجلسه ، فلا يوجد فيه ، فيقال : هو عند الأمير ، أو الوزير ، أو القاضى ، فان هذا وشبهه شىء من علماء بنى اسرائيل ، لأنهم يحدثونهم من الرخص ما يحبون .. ثم يقول بعد ذلك : فوالله ما أكلت لهم لقمة ، ولا شربت لهم شربة ، ولا لبست لهم ثوبا ، ولا ركبت لهم دابة .. وتسمع مع قول سحنون أن « مالكا » يسأل عن الشىء من أمر القضاء فيقول : هذا من متاع السلطان .

ويريد بعض العصريين أن يتلطف فى عرض موقف «مالك» من مقاومة الجور السياسى، فيلحق موقف «مالك» بموقف الحسن البصرى ، من الفتن ، وأن منهجهما فى ذلك قد اتحدا لاتحاد النفس والمعدن والسبب ، وأن « مالكا » تتحد نفسه ونفس الحسن البصرى فى التقوى والورع ، وأن « مالكا » لعله كان يتبع منهج الحسن البصرى .. وهو

قول يأباه « مالك » نفسه لما روى عنـه من انه قال : ابن سيرين أفضل عندنا من الحسن ، فقيل له : يا أبا عبدالله بأى شيء ؟ فقال : ان الحسن زيفه القدر .. فهذه العبـارة الأخيرة — على الأقل — بقسوة التعبير فيها (بزيفه) تجعل من الحق أن نقول : ان مالكا نفسه يرفض هذا التبرير القائم على اتحاد نفسه ونفس الحسن ..

وسواء أكان موقف « مالك » كموقف الحسن البصرى أو غيره ، فانه موقف رأينا فيه فرق ما بين القول والعمل فى مقاومة الجور .. وهو موقف تفسره نفس «مالك» ذاته ، بما تبين من مزاجه ، وخلقه ، وعنوان شخصيته الذى قاله القدماء أنفسهم : كان مالك من أشـد النـاس مداراة للناس .. وعلى هدى هذا الفهم نتحدث عن :

مالك بين الدول والأحزاب : — فقد هبت على المدينة التى لم يبرحها طول حيـاته أنسـام تارة وأعاصير تارة ، وعواصف وزوابع أحيانا — من الاستيلاء ، والثـورة والممالأة ، ومختلف السياسة ، فى عصر الدولتين اللتين عاش مالك فى كل واحدة منهما شطرا كبيرا من العمر ، قارب الأربعين فى عصر الأمويين وناهز الخمسين فى عصر العباسيين ، وكان لابد له كمواطن حجازى أولا ، ثم كعالم

دينى ثانيا أن يكون له موقف ، وميل لكل واحد من هؤلاء الحاكمين تارة ، والخارجين تارة ، والثائرين حينا ، والمسالمين حينا ؛ وهذا ما نعرضه فى اجمال قصير .

مالك والأموية — يمكن القول بأن « مالكا » كان ذا ميل سياسى هادىء للأمويين ، لأسباب منها عدم نشاط الأموية ، فى الاتصال بالحجاز ، وعدم جدهم فى اظهار السمت الدينى ، الذى كان العباسيون أكثر حرصا على اظهاره ، ولعدم نشاط المدينة نفسها الى الجد فى نصرة جانب بعينه كما قلنا .. هذا وقد كان « مالك » زمنا كبيرا من عهد الأموية طالبا معنيا بالدرس ، بعيدا عن مناطق التأثير ، ثم كانت الأحداث السياسية فى الحجاز هذه الحقبة لا تحفز الى كثير من النشاط الجاد عند الجمهور كله ، فكيف بمن كان ميالا الى العزلة والانطواء .

* * *

هذا عن «مالك» مع أموية المشرق ، وأما الداخلون الى الأندلس منهم بعد سقوط دولتهم بالمشرق فقد أشرنا قبل الآن الى أن لمالك ميلا اليهم واضحا ، وأنه تمنى أن يزين الله الحرم بمثل عبد الرحمن؛ وتتكرر الحكاية عن « هشام بن عبد الرحمن » الذى كان يتشبه « بعمر بن عبد العزيز » ،

وأن « مالكا » قال فيه مثل الذى قال فى أبيه من التمنى .

وقد تجاوب الأمويون مع « مالك » فتعصبوا لعلمه تعصبا قويا حين جاء الراحلون من الأندلسيين به الى بلادهم ، وأخذ هشام المذكور الناس جميعا بالتزام مذهب مالك ، وصير القضاة والفتيا عليه ، وذلك فى حياة « مالك » نفسه ، فألزم الناس بالمذهب الزاما قويا حماه السيف ، من غيره من المذاهب جملة .. وحين أدخل قوم من الرحالين الى الأندلس شيئا من مذهب «الشافعى» و « أبى حنيفة » ، و « داود الظاهرى » لم يمكنوا من نشره ، فمات بموتهم على اختلاف أزمانهم ، الا من تدين به فى نفسه ، ممن لا يؤبه بقوله .. وكذلك أميت ما كان بالأندلس من علم غير علم مالك ، من قبله ، كعلم « الأوزاعى » الذى كان أسبق الى الأندلس من فقه « مالك » .. وكذلك عمل الترغيب فى نشر علم « مالك » اذ كان « يحيى بن يحيى » مكينا عند الأمويين ، ولا يولى قاض الا بمشورته ، وهو لا يشير الا بأصحابه ومن على مذهبه .. وكما قالت الرواية القديمة نفسها : الناس سراع الى الدنيا ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به .

وكانت أموية مالك المشرقيـة مؤيدة بالانحراف عن

« على » كما سنرى ، وتفضيله « عثمان » ووضعه بعد عمر .. وتحديثه بحديث السفرجل الذى سنشير اليه فى موقفه مع العباسيين .

* * *

مالك والعباسية : ظهر العباسيون ، بعنف وقسوة حتى على الموتى ، من الأمويين ؛ اذ نبشوا قبورهم ، وحين وجدوا « هشام بن عبد الملك » صحيحا لم يبل منه الا أرنبة أنفه ؛ أخرجوا رمته ، وضربوها بالسياط ، ثم أحرقوها وذروها فى الريح ..

وقد رأى مالك أصداء هذا العنف فى المدينة اذ يقتل عم السفاح من يظفر به من بنى أمية فى مكة والمدينة ، ومثل هذا العنف يدفع الى الطاعة ، و « مالك » كما عرفناه ليس صاحب مخالفة ، فقد أخذ جوائز خلفاء العباسيين ورحل الى لقائهم ، ووقف فى شرف استقبالهم ، وتعاون مع أمرائهم بالمدينة ، ودعى الى لقاء الخلفاء حين جاءوا المدينة فحاول ألا يذهب للقاء الرشيد ، ولكنه ما لبث أن ذهب اليه . وان كان قد وعظه وطلب اليه اكرام علم ابن عمه ! وبكى الرشيد من الموعظة .. فكانت له مع العباسيين طاعة مسالمة ، عرفت وعرف مثلها فى تصرف الشيخ .. بل لو قلت انها طاعة مداورة

لم تسرف ، لأنك تراها مع الخليفة الواحد منهم شدا وارخاء ، فمع المنصور قد شد بفتوى الناس أن يخرجوا عليه ، وأن بيعتهم له بيعة اكراه . وهو قد أرخى بالوساطة عن المنصور لدى بنى الحسن فى تسليم محمد بن عبد الله وابراهيم أخيه ، على ما أشرنا الى ذلك — كما أرخى فى وساطة أخرى ، — لامه فيها معاصروه ، وذلك حين شكا بعض القرشيين من سوء محبس قريب لهم ، حبسه والى المدينة ، فأرسل المنصور رسولا ينظر قوما من العلماء يرون حاله : « مالك ، وابن أبى ذئب ، وابن أبى سبرة » وكان الوالى — كما يفعل رجال الحكومة دائما — لما بلغه الخبر حل عن المسجون الوثاق ، وألبسه ثيابا ، وكنس البيت ورشه ، لتتم المعاينة بما لا يثبت الشكوى ؛ ثم أدخل المشايخ رسل الخليفة ، وقال لهم : اكتبوا بما رأيتم ، فأخذوا يكتبون محضرا ، صدروه بقولهم : يشهد فلان وفلان فقال : « ابن أبى ذئب » لا يكتب بشهادتى ، أنا أكتب شهادتى بيدى ، فاذا فرغت فارم الى القرطاس ؛ فكتبوا — مالك وابن أبى سبرة — محبسا لينا ، ورأينا هيئة حسنة ، وذكروا ما يشبه هذا الكلام ، ثم دفع القرطاس الى « ابن أبى ذئب » فلما نظر فى الكتاب فرأى هذا

الموضع ، قال : يا مالك داهنت ، وفعلت ، وفعلت ، وملت الى الهوى ! لكن اكتب رأيت محبسا ضيقا وأمرا شديدا ..

وكذلك الأمر مع الرشيد : يوشك أن يشد فيتردد فى اتيانه حينما دعاه وهو بالمدينة ، ثم يرخى ويأتيه أخيرا .. لكنه يشد فى حديث السفرجل ، اذ أرسل اليه الرشيد ينهاه أن يحدث بحديث معاوية فى السفرجل ، وهى الشنشنة الحمقاء ، من الحكام دائما ، اذ يحسبون أنهم يطمسون الحقيقة ، ويمحون ما فى الكتب ، وذلك أن حديث السفرجل هذا يذكر أنه أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرجل ، فأعطى أصحابه واحدة واحدة ، وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات ، وقال له : القنى بهن فى الجنة .. وهو وجه من الفضل لمعاوية رأس الأمويين ، أعداء العباسيين .. فلما جاء النهى « مالكا » تلا قوله تعالى « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » ثم قال : والله لأخبرن بها فى هذه العرصة ، واندفع فقال : « حدثنى نافع عن ابن عمر قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى اليه سفرجل » الحديث ..

وهذا الشد والارخاء يفسره ما قال القدماء عن مداراة

مالك ؛ ويؤيده ما عرفنا من مزاجه وتقسيته ، وفعل السياسة ببشريته .

* * *

مالك والعلوية : وهم خصوم الأسرة الحاكمة ، فى الدولتين ، والمدينة وطن مالك هى دار القوم ، فمركزه بذلك دقيق بل حرج ، لأن قلوب الناس ، مع هؤلاء المضطهدين ، الذين يرسلون بين الفينة والفينة شهيدا يخرج من مسارب التخفى وسراديب التآمر ، ليقاوم ، فيقتل ويصلب ، فالجو حول « مالك » نفسه ينفث العطف على هؤلاء العلويين ؛ والسلطان حوله يرقب السر والنجوى ، فأين يتجه مالك ؟ وماذا يفعل ؟ انه ليس علويا ، فى شىء ما ، وليس له ميل سياسى نحو هذا الحزب المعارض المتطرف فى عهد الدولتين جميعا ، وهو لا يقول بتفضيل « على » حين يتحدث ، غير مرة ، عن أفضل الناس ، وحين يسأله علوى عن هذا التفضيل ولا يفضل عليا ؛ يقول له العلوى: والله لا أجالسك أبدا ، فيقول له « مالك » : فالخيار لك ..

واذا كان هذا ما يتوجه اليه ، فان فعله كان توفيقا بين هذا الاتجاه وبين الواقع ، فهو من حيث هذا الواقع يقدر أن المدينة مركز العلويين ، وأنهم يرقبون مجلسه ؛ فهو

يرتب جلوس المستمعين فى مجلسه ، بما لا يدع فرصة لتقدم أحد على أحد ، حتى لا يسخط العلويين ؛ وهو متصل بأحد الأئمة العلويين ، وهو « جعفر الصادق » ويثنى عليه وعلى صلاحه ، ويتصل به الى مدى طويل ؛ لكن هـذا الصادق — فيما رأينا — هو العلوى المسالم ، بل الشديد المسالمة الذى يختفى عندما يظهر أهله يحاربون فى سبيل حقهم .. ثم هذا مالك يفتى الناس بالخروج مع محمـد الشبه ، وهو المسمى النفس الذكية ، لأن الواقع فى هذا عنيف ؛ لقوة شخصية محمد ؛ واتجاه الرأى اليه فى المدينة ؛ لكنه يفتى ولا يخرج ، بل يلزم بيته حين يخرج الناس .. وهذا التصرف من « مالك » مع هذا الميل والرأى يظل مصداقا لما قال القدماء أنفسهم : كان مالك أشد الناس مداراة للناس .. وأما .

مالك والخوارج : فالأمر فيه أبين ، لأن هؤلاء الخوارج أهل عنف ، وطلاب مثل ، يوجبون الخروج على الأمام الجائر ، ولا يرون فى الخلافة رأى المحكمين للقبيـلة ، أو الأسرة ، ويشعرون بالظلم الاجتماعى ، ويقاتلون لدفعه .. ومالك — كما قال الأولون — يعد ركوب الخيل من أهوال الدنيا ، ويؤثر الطاعة ولزوم الجماعة ، ويرى أن

على العالم لزوم الدخول على الملوك ، لئلا يستشار من لا يصلح ، ويأخذ جوائزهم ؛ وهو يميل الى الأمويين ، ويجله الأندلسيون منهم ؛ ويتمنى مثل حكمهم فى المشرق ؛ وهو يفضل عثمان الخليفة المقتول ظلما .. وهو — أخيرا — يرى الخروج على الجور قد يكون مفسدة ، وكل هذا يعيش الخوارج من أجل مخالفته .. فبعض هذا من شأن « مالك » كاف للاطمئنان الى أنه لا يكون ذا شيء من الميل الى هؤلاء الخوارج ..

* * *

ومعرفة اتجاه « مالك » للدول والأحزاب ، وتصرفه الفعلى ، ومواءمته لدستوره النفسى ، كل أولئك يمهد للحديث عن :

محنة مالك بالسياسة : وهى الاعتداء المادى من السياسة على أصحاب هذا العلم الدينى ؛ بالضرب على شكل ما ، وبالحبس أحيانا ، وهى أثر لما أكدناه من أن هؤلاء العلماء الفقهيين يمثلون سلطة الشعب ، راضين أو كارهين ، منتبهين فى وعى أو غير منتبهين ، لأنهم لابد متحدثون عن الحقوق والواجبات ، لكل من الحاكمين والمحكومين ؛ وهم لابد مفتون فى هذا عند كل مناسبة .. ولذلك يعتبر تاريخ هذه

المحن هو صفحات تاريخ السلطة الشعبية ، ضـد الحكم المستبد المتفرد ، وهى بذلك صفحات فى تاريخ الحـرية الفكرية ، لأن المسألة تبدأ وتنتهى عند قول يراد اخفاؤه والاجبار على كتمانه .

ومكان محنة « مالك » هو الحجاز الذى رجح أنه لم يبرحه طول حياته : وأما زمانها فعلى رغم اختـلاف الروايات فيها يمكن الاطمئنان الى أنها حوالى سنة ١٤٦ هـ على عهد المنصـور ، اذ الجو مكفهر والناس مهتاجو الأعصاب بما تفعل الدولة الجديدة — العباسية — فى تثبيت سلطانها ، والمخالفون ينتهزون الفـرص لزعزعة مركزها .

ومرتكبها : هم العباسيون بتوجيه خليفتهم ، وبيـد عاملهم على المدينة ، والخليفة هو المنصور ، والوالى هو جعفر بن سليمان .

وأما سببها : فمع اختلاف الروايات فيه ، لا يظن أن يكون شيئا من مقاومة حادة ، وقعت من « مالك » لأصحاب السلطة ، لأنا نعرف مسلكه واستعداده ، ثم تضيف المناقب على ما عرفنا ما يزيده بيانا ، فى خبر معبر عن رأيه فى رجال هذا العهد من الفقهاء : وصورة كل شخصية فيهم ،

حسبما انطبعت فى أذهان النــاس ، فهو خبر دال ، حتى لو لم يكن واقعا ، وذلك هو روايتهم : ان المنصــور سأل مالكا ، ما تقول فى مالى ؟ فقال له : هو خير مال ؛ وسأل أبا حنيفة ، السؤال نفسه ، فقال له : أنت أعلم به ؛ ووجه السؤال نفسه الى « ابن أبى ذئب » فقال له : شر مال .. ثم مكث المنصور مدة وأرسل الى « مالك » بمال ، وقد قال لرسوله : ان لم يقبله فاضرب عنقه ، فقبله « مالك » وسلم ..

وأرسل الرسالة نفسها الى « أبى حنيفة » وقال له الرسول : يأمرك أمير المؤمنين أن تضعه حيث ترى ، فان قبله فحسبه ، وان رده فحسبه — فقال « أبو حنيفة » للرسول : أمير المؤمنين يعرف من أين جمعه ، وهو يعرف أين يضعه .

وأرسلت الرســالة الاختبارية الى « ابن أبى ذئب » وقد قال المنصور للرسول : ان قبله فاضرب عنقه ؛ فرده « ابن أبى ذئب » وسلم ..

وهذه الصورة القديمة للشخصيات تؤيد ما شعرنا به ، من عدم ميل « مالك » للنضال فانا لا نقبل بسهولة شيئا

من الأسباب التى تروى لرد المنحة الى حادث ينتهى الى مغاضبة أو مقاومة من مالك ؛ كما أننا نطمئن الى أن السبب لابد أن يكون سياسى الطابع تماما ؛ والعصر على ما كررنا ، وأشرنا أخيرا ، عصر اضطراب ، و « المنصور » هو فى الحقيقة مؤسس دولة العباسيين ؛ والمنصــور قد عانى سنة ١٤٥ و ١٤٦ بخروج « محمد بن عبد الله » بالمدينة ، وابراهيم أخيه بالبصرة ، أشد ما لعله عاناه فى توطيد الأمر ؛ وواليه على المدينة — كما قلنا — شارك فى المعركة ، وكان هو وأخوه أكبر عاملين فى النصر ، وهم أكثر النــاس ذكريات من آلام هذه المعارك .. وتلك الأعاصير كافية فى مثل هذه الحال المضطربة أن تأخذ بالظنة ، أو تجمع متفرقات يسيرة ، والمخابرات نشطة تعمل عملها ، كما هو شأنها فى كل عصر غير مستقر ، و « مالك » فيما تمثلنا من صورته ، ينطوى على ميل للأموية ، وقد بدرت منه بوادر لسانية ، فى الثناء عليهم بالأندلس ؛ وهو يحدث بحديث « ليس على مستكره يمين » ، ومنه أفتى النــاس بالخروج مع « محمد الشبه » الذى هو سبب ما فى الجو من تلبد ؛ و « مالك » رغم كل مداراة للنــاس لا ينجو من حسد منافس حاقد ، ينتهز الفرصة .. وكل أولئــك

مجتمعا يصور سبب المحنة العام ، وظروف اثارتها الخاصة ، دون قصرها على جزئية واحدة .

* * *

وأما صفتها : فمع اختلاف الروايات ، فى تفاصيلها يمكن أن نأخذ من جملتها الصورة العامة لوسائل هذا العقاب بالضرب عندهم ، وهى العقوبة التى وقعت غير مرة ، على العلماء الممتحنين بهذه المحنة .

وتفصيلها : أنها تجريد من الثياب الا ما يستر العورة ، ومد أجسامهم على الأرض ، وربطها بالحبال تكتيفا ، وقد توضع اليدان فى آلة تمسكهما ؛ فقد قالوا عن مالك : ومد يديه فى العقابين ؛ والضرب يكون على الظهر ، بسياط ، لا نستطيع تعيين ما تتخذ منه عادة .. ولا ضرورة لتفصيل ما أصاب الرجل من هذا كله .

وأما أثرها : فتختلف الروايات فيه كذلك ، ويمكن القول اجمالا بأنها آثار مؤقتة للضرب ، وقد يكون منها شيء باق ، كالذى يذكر من خلع كتفه ، حتى ما يستطيع أن يسوى رداءه .. واحسب أن أهم ما يعنينا اليوم ونحن نسجل تجارب حياة أن نقول :

ان الأثر المعنوى لمثل هذا الصنيع بعالم ، هو ما يكون

دائما ، من أن يخسر بها الطاغية وتسوء سيرته حين يعظم المعتدى عليه ، ويرتفع شـأنه ، وكذلك يقول الأولون أنفسهم : أفتى بحق ، وضرب بباطل ، فكانت هذه السياط عليه كالحلل المنشرة ، وحتى كأنما تلك السياط عليه حليا حلى بها .

* * *

وأما تسويتها : فتذكر فيها كذلك روايات ، وما يعنينا الا التسوية الاجتماعية ، التى أتمها الزمن بالدفع فى صدر الطغيان ، والشد لأزر الحق ، وبقاء مالك الممتحن ، وزوال هذا الوالى ، بل زوال هذا الظل الحاكم على الرغم من كل ما سجل التاريخ له من اعتذارات ، متفننة فى المراوغة ، ومحاولة الصاق الجريمة بالحاكم المباشر ، كما هو شأن الطغيان دائما .. سـواء أتمت التسوية بصلح سعى اليه ساعون ، أو باعتذار تقدم به الجانون ، فحسب التـاريخ كما قلت : أن لم يبق من هذا الطغيان الا خبر يرد فى ترجمة حياة مالك ، الذى بقى ، وذهب كل الطغاة والطغيان مشيعين بلعنة تتكرر كلما ذكر مالك العالم .

مالك .. العالم

١ ـ الشخصيّة العلميّة

٢ ـ مالك المحدث

٣ ـ مالك الرّاوية

٤ ـ مالك ناقد الحديث

الفصل الحادى عشر

مالك .. العالم

ان تكن أنضجته بالأمس الأرحام — على رأى — فقد أنضجته الآن الأيام ، فى كل رأى .. درس وتلقى ودرّس وألقى ، وجرب وأفتى ، وألف ونقى ، وترك للتاريخ ثمرة حياته ، ورسالة عمره .

واذا كان الكلام الآن عن علم « مالك » على اختلاف أنواعه فانا نريد أن نؤكد أن القصد من هذا اليوم ، كما كان القصد أمس فى الترجمة المحررة « لمالك » ، انما هو الوصف العام لشخصيته العلمية ، وآثاره المختلفة ، فى فنون العلم الدينى ، مع ترك ما وراء ذلك من درس مفرد لتلك الآثار من الكتب ، وذلك العلم جملة ، بين صنوف الكتب ، وفنون العلم ، درسا متخصصا متفردا ، بحيث لا يدرس فقه «مالك» الا مالكى ممارس ، يتمثل ذلك على وجهه الصحيح. وفى صورته الكاملة ، ولا يدرس حديث « مالك » الا محدث ومؤرخ للحديث ، له فى ذلك التفرد المستوفى .. وما ذلك

الا تقدير واكبار لهذا التخصص ، والمنهج الصحيح فيه ، حتى نجاوز دور التناول الأفقى ، كما يقولون ، لكل شيء ، الى دور التناول العمودى ، فلا نمس أشـياء كثيرة فى مستوى واحـد ، ذلك المساس السطحى ، بل نمس شيئا واحدا ، فى عمق ، ذلك المساس الرأسى .

وعلى هذا يكون ذلك البيان الشامل فى القراءة الميسرة ليس الا وسيلة لاعطاء صورة جامعة عامة لمثقف يريد أن يكون الصورة الاجمالية ، ذات الخطوط الكبرى ، لهذا الماضى الثقافى والاجتماعى ، الذى نعيش اسـتنادا اليه وارتكازا عليه وكذلك كان هذا البيان الشامل فى الترجمة المحررة ، أساسا يقيم عليه المتخصص ما يشيد من ذلك البناء الشامخ فى كل فرع من فروع الشخصية التى يتولاها بالدرس المفصل المستقصى .. وعلى هذا نبدأ الحديث عن :

الشخصية العلمية : أو منهـج تفكير الرجل العـالم فيما يمارس من كسب المعرفة واكسابها ، فعلى أى أصل كان يمارس هذا التعرف والتعريف ؟ وتلك هى مسـألة « المعرفة » التى تعد جذع شجرة الفلسفة ، التى تقرر بها رأيا فى امكان المعـرفة ، أو عدم امكانها ؛ وما وسـيلة المعرفة اذا ما كانت ممكنة ؟ وما مدى الثقة بما يعرف بتلك

الأداة من أدوات المعرفة ؟ — والانتهاء الى رأى فى هذه الثلاث هو وضع دستور الحياة الفكرية ، لمن يمارس هذه المعرفة ، رجلا كان واحدا ، أو جماعة متكاثرين ، أو عصرا من العصور بجملته ، نريد معرفة قيمة تفكيره .

و « مالك » فقيه متصدر لوضع حلول عملية ، لتصرفات الناس فى حياتهم ، فالفكرة الواضحة عن منهج تفكيره تلقى أضواء لابد منها ، لفهم تدبيره التشريعى ، وبقدر ما لهذا التدبير التشريعى من عمق وأصالة يكون التقدير الصحيح له .. كما ان المعرفة الصحيحة لمنهج تفكيره ، وأصول تقديره ، هى وحدها ، التى تعين على ادراك أصول تشريعه ، وأسس تدبيره القانونى للحياة .

ونستطيع الاطمئنان الى أن « مالكا » لم يتمرس بشىء يذكر من المعرفة الفلسفية بالمعنى الخاص ؛ لكننا لا نمتنع مع ذلك عن تتبع رأيه فى قضايا المعرفة الفلسفية ، لأن هذه الحقائق انما هى — فى أصلها — حقائق عقلية ، كبرى لها مكانها فى العقل البشرى ، قبل أن توضع لها التسميات الاصطلاحية ، واننا بهذا القدر ، نلمح فى عبارات الشيخ ما ينبىء بتمثله لتلك الشئون تمثلا واضحا صحيحا .

* * *

وبالتماس الاجابة عن أسئلة أصحاب المعرفة ، نستطيع أن نجدها فى متفرقات كلام « مالك » ، وأن نقول :

١ — ان « مالكا » قرر امكان المعرفة ، بعيدا كل البعد ، عن انكار قدرة الانسان على أن يعرف ، أو الشك فى هذه القدرة . فليس من السوفسطائيين وأشباههم ، فى شىء ؛ فهو يثق الثقة الواضحة المؤمنة بأن مصدر هـذه المعرفة موجود ، وانه يعلّم الانسان مالم يعلم ، ويتلو من الكتاب مثل « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » وقوله : وعلم آدم الأسماء كلها . مهما يكن رأيه فى تفسير هذه الآيات ، لأنه بحكم بيئته المعنوية ، وفهمه الشخصى لهذه الآيات ، لا يجاوز القريب الواضح ، الذى لا يسهل معه على مثله ، أن ينكر أن هذا الانسان الذى قال الله فيه هذا لابد أن يكون مستطيعا المعرفة .

ومع ما نعرف من أن بيئة الحجاز لم تكن ذات حظ يذكر من النشاط الفلسفى ، الذى كان العراق أوفر منها فيه حظا ، فانا نفترض أن شيئا من هذه التيارات يترامى الى الحجاز وغيره ، بفعل العدوى التى لابد منها ، مهما تكن بطيئة .. فعلى هذا الفرض نحاول أن نتبع صاحبنا لمدرسة من المدارس المختلفة على طريق المعرفة وقيمتها ، هذا الى

أنه قد يجد شيئا من ذلك أو يشعر به ، دون تفرغ خاص لدراسة الفلسفة ، وسواء أكان فى الأمر عدوى فلسفية أو كان فيه اتجاه الى شيء من الفلسفة دون مدارسة فانا نستطيع أن نعد صاحبنا اشراقيا ، فى غالب أمره يقول : بأن المعرفة تفيض على القلب فيضا ، ويروى عنه ما يؤيد ذلك ، كقوله : الحكمة نور يقذفه الله فى قلب العبد، وقوله : الحكمة مسحة ملك على قلب العبد.. وان يكن قد فسر هذه الحكمة التى يذكرها بأنها التفكر فى أمر الله تعالى ، والاتباع له ، فانه لم يخل تفسيره لها ، من عد هذا العلم الدينى منها فهو يقول : يقع فى قلبى أن الحكمة الفقه فى دين الله ، وأمر يدخله الله القلوب» .. كما يقول : الحكمة طاعة الله والاتباع لها ، والفقه فى الدين والعلم به .. ومهما يكن معنى الفقه فى عباراته فهو قريب كل القرب ، من هذا الذى عاناه ، وشغل به حياته .

وانا لنجد وراء ذلك غير قليل من المعانى التى تؤيد هذه الاشراقية فهو مثلا : يربط بين العلم والخلق بمثل قوله : العلم نفور لا يأنس الا بقلب خاشع .

والوصل بين التقوى والتعلم ، وبين الخلق والعلم

تتمة واضحة للقول بأن العلم نور يضعه الله فى القلب ، وتأييد للاشراقية عنده .

ولقد يؤيد اشراقيته هذه ما عرف عنه من كراهية التفكير وتقليب الرأى فى العلم جملة ، ورفضه أن يتبادل المناقشة مع رجل دعاه الى ذلك على أن من غلب منهما صاحبه اتبعه . وقال له : فان جاء رجل فغلبنا ؟ فقال الرجل : اتبعناه ، فقال له « مالك » : يا عبد الله ، ان الله بعث محمدا بدين واحد وأراك تتنقل .

وهو يقرر : أن المراء والجدل فى العلم يذهب بنـــور العلم من قلب العبد .. وهى منه نزعة واضحة فى الحد من عمل العقل ، وعدم الاطمئنان اليه ، مع الاطمئنان الى قذف النور ، ومسح الملك ، وما اليه مما قلنا انه ظواهر اشراقية .. على ان اطلاق القول باشراقيته هذه ، مع وجود شواهدها لا تتركه المرويات عنه دون معارضة ، فهو يتحدث عن النظر العقلى ، ويقول لمن سأله : انصرف حتى انظر فيها ، فيتردد فيها كثيرا ، حتى ليقول : ربما وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلى ، بل يطول تفكيره سنين ويقول : انى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى الى الآن .. بل تزيد سنوات التفكير على ذلك كثيرا ، فى روايات

فتصل الى عشرين سنة ، ويرى أخيرا أن العلم لمن علمه الله ...

فاشراقية مالك تمازجهـا عقلية ، وعقليته تقـودها اشراقية .. على أن هذه العقلية ليس تفكيرها ، من التفكير القائم على النظر ، وترتيب المقدمات ، والاتكاء على المنطق ، بل هى مجرد اعمال العقل ، طلبا للحقيقة ، وتقديرا للخطأ والصواب ، بالمعنى العام ، فحصا لما يتلقى ، وعرضا له على الكتاب والسنة ، فيكون من ذلك رأى ، ليس هو الرأى المنطقى القياس ، الذى عرف لمدرسة العراق الحنفية ، وهذا الرأى بمعناه العام هو الذى يستعمله « مالك » كثيرا فى قوله وتأليفه ، حينما نسمع مثل قوله : انما أنا بشر أخطىء وأصيب ، فانظروا فى رأيى ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وما خالف فاتركوه . فهو الرأى بمعنى مطلق الفهم ، وهو غير الرأى بمعناه القياسى الخاص ، الذى يسمى به فقهاء أهل رأى .. وسنجد هذا التفريق واضحا ، حينما نحدث بعد عن معانى الفقه ، وعن تطور معنى الرأى ، فى الاستعمال .

وقد يقرب صورة هذا التفكير والتعقل العام عنـد « مالك » أن نعرف نوع العلم الذى يؤثره ، والغاية التى

يتوخاها ، من التفكير والدرس ؛ فأما العلم الذى يؤثره فهو العلم النقلى ، اذ يقول : ما قلت الآثار فى قوم الا ظهر فيهم الأهواء .. وهو يلعن أصحاب التفكير المنطقى الفلسفى . فى شخص « عمرو بن عبيد » شيخ المعتزلة ، اذ يقول لمن سأله عن القرآن : لعلك من أصحاب « عمرو ابن عبيد » لعن الله عمرا فانه ابتدع هذه البدعة .

وأما الغاية مما يسميه هو تفكيرا فهى الفائدة العملية ، اذ يقول : لا أحب الكلام الا فيما كان تحته عمل ..

وكل ذلك يرجح فى جلاء ان « مالكا » حينما يقول بامكان المعرفة يرتاح الى أن مصدرها الأول والأكبر هو الوحى ، وان طريق التعليم الأوثق والأجدى هو تعليم الله سبحانه ، فهو عقلى بهذا المعنى ، وفى حدود هذه الدائرة .. وهو اشراقى بهذا القدر وفى هذا المجال .

وهذه النزعة العملية ، فى طلب العلم ، والاشتغال منه بما تحته عمل توشك أن تجعل « مالكا » من أصحاب فلسفة الذرائع « البراجماطيقيين » فهو يأمر تلميذه بأن ينظر الذى يلزمه ، من حين يصبح الى حين يمسى فيتعلمه ، ويكره الاشتغال بما لا تبدو له هذه القيمة العملية ، فيكره المرويات القديمة ؟ ويكره السؤال عن علم الباطن .. وهو

على هذا المبدأ يتهم علم الأنساب ، بأنه علم لا ينفع ، وجهله لا يضر ، ويكره الفروض الاحتمالية فى الفقه ، كما يكره السؤال عنها ..

وتلك هى معالم شخصيته العلمية : « عقلية » مع غلبة « اشراقية » وميـــل « براجماطيقى » دون نزوع الى ما يصاحب هذه الطريقة فى التفلسف والتفكير .

و « لمالك » بهذه الشخصية العقلية ميادين متعددة من النشاط العلمى ، كلها تقع فى دائرة العلم الدينى ، فهـــو محدث ، وهو ناقد حديث ، وهو فقيه ، ثم هو مصنف فى ذلك ، وهى الصفات التى تتحدث عن مالك فيها واحدة ، واحدة ، ثم نتكلم عن مالك المصنف فيها بعد ذلك .

* * *

مالك المحدّث : ونريد أن نقدم شخصية المحدث فيه ، دون اهتمام بحشد المعلومات عن أعماله فى هذا المجال ، الا بقدر ما تكشف عن تلك الشخصية له ، فى الحديث والتحديث .. وندير البحث عن هذه الشخصية على ما قسم القوم اليه علم الحديث من الرواية والدراية ، فنبدأ بالحديث عن :

مالك الراوية : فى عصر جعلت السنة فيه تنتشر فى أنحاء

العـالم الاسلامى ، وجعلت تحتاج الى هـذا اللون من النشاط ، لأسباب متعددة ، منها اتساع الرقعة الاسلامية ، وتجدد الحاجة الى حكم الدين فى شئون الحياة وتصرفات الناس ؛ ومنها اتجاه العباسيين أكثر من غيرهم الى العنـاية بهذه السنة وروايتها ، لأن خطتها التى قلدت فيها الأسلوب الفارسى فى الحكم ، بتأثير أنصارها الفرس ، انما كانت خطة دينية ، فلم يكن طلب العلم الدينى اذ ذاك لمصلحة الدولة فقط ، بل لأنه كان مصلحة الدولة ومهمتها فى الوقت نفسه ، لأن المثل الأعلى للحكومة الفارسية — التى يقلدونها — هو تآخى الدين والدولة ..

ولعل هذه الأسباب المختلفة كانت هى العامل فى نشاط «مالك» المسرف فى الرواية عند التلقى ، وان كان عند الأداء قد عاد ففحص وتخير ، على ما سنذكره ، عند الكلام عن نشاطه ، فى علم الحديث دراية ، والشواهد كثيرة على هذا النشاط فى التلقى ، الذى كان جمعا ، يقمش فيه « مالك » ويتلقى ما يؤدى ، وما لا يؤدى ؛ فيكون عنده حين مات صحيفة عن « ابن عمـر » ليس فى المـوطأ منهـا شىء الا حديثين — وسبع صحائف من حديث « ابن شهاب » كذلك ظهورها وبطونها ملأى .. وهو يقرر أنه لم يكن

يحدث بكل ما يسمع ، ويقول : اذ أحدث الناس بكل ما سمعت !! انى اذن لأحمق ..

واذا ما أصخنا لتقدير القوم « لمالك » الراوية سمعنا من ذلك الكثير العظيم ، يبدأ من اليسير المعتدل . ويرتقى الى التوسع المبالغ ؛ فهو حافظ ، أخذ المتقدمون عنه ، ووثقوه ؛ وهو أحد أمناء الله على وحيه . ثم يقال : ولولا أن الله بعث فى كل زمان مثل « مالك » و « الأوزاعى » ، و «شعبة» لكانوا قد أدخلوا فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس منه .. ثم هو امام فى الحديث والسنة معا ؛ —

ولكنك واجد وراء ذلك التقدير ما تسوده الروح المنقبية المعروفة باسرافها ، فمالك عندها لا يحدث فى الحرم الا هو ؛ وهو أثبت من « نافع » ، وهو أحسن حديثا من « الزهرى » ومن « ابن عيينه » وهذا مما يمكن احتماله ، لكن لا يقف الأمر عنده ، بل يقال : لا أحد فى القوم أصح حديثا منه ، وأشباه ذلك ؛ ثم يزيد الاسراف فهو سيد المسلمين ، أو أمير المؤمنين فى الحديث ، وهو لقب قد يمنح لغيره ، فلا يكتفى به ، فهو : أثبت الناس » وما بقى على ظهر الأرض أعلم بسنة باقية ، ولا ماضية ، منك يا مالك .

والمسلمون متفقون طرا على حديث مالك .. وهو تقـدير متحمس ، لا تقبله بسهولة قواعدهم فى الجرح والتعديل .. ويحسن معه أن نسمع من ينقده من الأقدمين أنفسهم فنجد أولا ، من لا يسكت على هذا التفوق المنقبى المطلق ، بل يفضل غير « مالك » عليه ، فيقول « القطان » : ان الثورى فوق مالك فى كل شىء ؛ ويقول « ابن حنبل » لا يتقدم على « سفيان » فى قلبى أحد .

وقد نسمع فيه تفضيلا مقيدا كقولهم : « ابن أبى ذئب » كان أفضل من « مالك » الا أن « مالكا » أشد تنقية للرجال ؛ وتلى ذلك مرحلة النقد الصرف لمالك ، والكلام فيها يطول ، لكنا نلم ببعضـه وفاء بالحق . ونصرا للمنهج الاسـلامى الدقيق ، فى معرفة حال أولئك الأمناء على الوحى ، ولنخرج بهذا التعرض للنقد ، من جمود التقليد المعيب ، وبيانا لعدم صحة قول من يقول من العصريين : انهم لم يستطيعوا مع تحيفهم أن يتكلموا فى « مالك » .. فقد تكلموا كثيرا ، بل كثيرا جدا ، حتى لو أوردنا هنا ما فى الترجمة المحـررة لمالك ، دون زيادة لاختل توازن هذا الكتاب ، وضخم هذا القدر منه عما ينبغى أن يكون ؛ فلا نشير هنا الا الى أهم ما قال الأقدمون فى نقد « مالك » نقدا يتصل بعمله بما هو

راوية ؛ وذلك هو : عدهم مالكا فى المدلسين ، ومن التدليس فى اصطلاحهم : أن يروى عمن عاصره ولم يلقه موهما أنه قد لقيه ، وسمعه منه ؛ ويمثلون لذلك من عمل « مالك » بترك « عكرمة » بين « ثور بن زيد » و « ابن عباس » ، فى غير ما حديث بالموطأ ، وقد بين « ابن عبد البر » هذه الأحاديث فى كتابه الخاص بتجريد أسانيد الموطأ ، ويختلف القوم فى حكم هذا التدليس ، فيكرهه ناس وتقسو عبارتهم فى كراهيته كقول « الشافعى » : التدليس أخو الكذب ، وقوله : لأن أزنى أحب الى من أن أدلس ، ومن المحدثين من لا يقبل رواية المدلس بحال ؛ وفى الوقت نفسه نرى منهم من يهون من شأن التدليس أو بعض أنواعه ، ويقرر أنه أمر عام ، لم يسلم منه « مالك » ولا غيره . ولعل الأولى هو ما يقوله أكثر أهل العلم من كراهة التدليس ، ولو بمقدار ما فى اسمه من معنى بغيض ، اذ هو مأخوذ من اختلاط الظلام بالنور .. وقد يكون فى عمل مالك بحذف اسم « عكرمة » بين « ثور بن زيد » و « ابن عباس » ان « عكرمة » كان ينتحل رأى الصفرية من الخوارج ، وقد يكون لعمل مالك مخفف من حال العصر العامة ، قبل أن تستقر نهائيا أصول الرواية .. لكنه على كل حال عمل لا يسلم من النقد .

ونكتفى بالاشارة الموجزة الى كثير من النقـد ، غير الحديثى مباشرة ، أو من كلام معاصرين محادين لمالك فيه ، فقد نقده « ابن أبى ذئب » لترك العمل بحديث ، وكانت عبارته قاسية ، اذ قال عن « مالك » : يستتاب والا ضربت عنقه .. وكان « ابراهيم بن سعد » يتكلم فيه و « ابراهيم ابن أبى يحيى » يدعـو عليه ، وكذلك كان « عبد العزيز ابن أبى سـلمة » وعبـد الرحمن بن زيد بن أسلم » و « محمـد بن اسحق » و « ابن أبى الزناد » يعيبـون أشياء من مذهبه .. وقد يكون أوسع ذلك ما كان بينه وبين « ابن اسحق » بسبب قول ابن اسحق : ان مالكا مولى فكان أن قال « ابن اسحق » هاتوا علم «مالك» فأنا بيطاره ، وقال « مالك » عن « ابن اسحق » ذلك دجال من الدجاجلة، ونحن أخرجناه من المدينة .

وفى الترجمـة المحررة عرض هادىء لذلك وهو من ص ٤٨٠ — ٥١٣ — وقد نجد مناسبة لعرض شىء مما بين مالك ومعاصريه ، لما فى ذلك من التجربة الحيوية الاجتماعية لتعامل العلماء ، وأثر المعاصرة .

* * *

مالك ناقد الحديث : وهو نشاطه فى القسم الثانى من أقسام الدراسة الحديثية ، أى علم الحديث دراية .. وأحكام القدامى على صنيع مالك فى هذا المجال تتفاوت كالعادة ، من منقبى مسرف ، الى دقيق متريث ؛ وبينهما منازل ، وأضع بين يدى القارىء صورا من هذه الأحكام المتفاوتة فى تدرج ، ونبدأ من ذلك بحديثهم عن نقده للسند ، وتقويمه للرجال الرواة .

ونظرة « مالك » الى هذا النقد للرجال يمثلها قوله هو : من روى عن ضعيف فقد بدأ بنفسه .

أما تقديرهم لنقده ، فمنه قولهم : مالك نجم أهل الحديث ، المتوقف عن الضعفاء ، الناقل من أولاد المهاجرين والأنصار ؛ أو قولهم : رحم الله « مالكا » ما كان أشد انتقاد مالك للرجال .. وقد تنسب اليه أولية فى ذلك فيقال : كان « مالك » أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة ، وأعرض عمن ليس بثقة .. كما قد يعدونه القدوة ، الذى تعرف بعمله أقدار الرجال ، ولا سيما أهل المدينة ، فاذا حدث عن رجل من أهل المدينة لا يعرفونه فهو حجة ؛ وقد يعدونه القدوة فى وزن الرجال مطلقا ، فى المدينة وغيرها فيقال : انا كنا نتتبع آثار « مالك » وننظر الشيخ ، ان كان « مالك » كتب عنه كتبنا عنه

والا تركناه . وقد يعدونه النقاد الصيرفى ، الذي ينقد الرجال نقد الدراهم والدنانير ، ويقولون : ما يعد مالك الا مثــل نقاد بيت المال . ويذكرون نقده الدائم المستمر ، فيقولون : انه قل حديثه لكثرة تمييزه .. وعلم الناس فى زيادة ، وعلمه فى نقصان ، وانه وضع الموطأ عن نحو عشرة آلاف حديث ، فلم يزل ينظر فيه كل سنة، ويسقط منه حتى بقى هذا ، ولو بقى قليلا لأسقطه كله، أو لو عاش لأسقط علمه كله تحريا .. فهو على هذا يتحرى بعدما يروى ، ويعود الى هذا التحرى بعد الأداء والتدوين ، كما تفهم ذلك صريحا من العبارات الأخيرة ؛ لكنا نسمع من قولهم كذلك ، فى مبالغة ما يدل على أنه لا يبدأ تلقى مروياته الا عن شيوخ ثقات ، ويطلقون القول في ذلك بصيغة قصر ، لا تدع مجالا لاشتباه ، أو قل ، على أقل تقدير ، تفهم أنه اذا تلقى على أى وضــع فانه لا يؤدى الا بعد التحرى التام ، الذى يبقى من روايته الموثوق بهم ، ولا يحدث الا عنهم ، ومن ذلك قولهم : .. فلم يكن يروى الا ما صح ، ولا يحدث الا عن ثقة .:

وواضح أن هذه العبارات متدافعة متعارضة ، اذ أنه لو كان لا يحدث مؤديا الا عن ثقة ، ولا يروى الا ما صح ، فلن يكتب من مروياته الا صحيحا ، وبالأولى لن يجمع منها

فى جامع واحد كالموطأ ، الا ما صح ؛ وبذلك لا يكون فى حاجة ، الى معاودة التحرى ، واسقاط شىء مما رواه صحيحا ، عن ثقة !! لا أحسب الا أنها المنقبية تذكر فى كل حالة أكملها .

على أنك تشعر من بعض عبارات هؤلاء المتحدثين عن نقد « مالك » ما يشعر بأن نشاطهم فى هذا النقد متأخر ، غير مبكر ، اذ الشيخ هو — على قولهم — أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة ، أعنى انهم ظلوا القرن الأول بأكمله ، والعقد الأول من القرن الثانى دون نقد للرجال ؟ ! والواقع أن تاريخ الرواية التزاما وتصحيحا قد بدأ بعد مرور جيلين أو ثلاثة من وفاة الرسول عليه السلام .. وعلى هذا يمكن الاعتراف بهذه الأولية لمالك أو ما يشبهها فى نقد الرجال ، وليس من المنتظر أن يكون نشاطه بهذا قد بدأ كاملا منذ اللحظة الأولى ، ومع عدم وضوح الشعور القوى بالحاجة الى ضبط الرواية — لقرب العهد بالرسول عليه السلام — وعلى هذا يكون ما ضخم من عبارات القائلين عن نقد « مالك » سند الحديث ، ورجال المتن قد تأثر بالنزعة المنقبية قليلا أو كثيرا ..

هذا عن نقد « مالك » للسند ، وأما نقده للمتن وفحصه

للمرويات ، فيبدو أن العصر لم يكن قوى الانتباه اليه ، لأنه — كما رأينا — كان يأوى الى شيء من الطمأنينة يقرب العهد حتى كان جده فى طلب السند أقل مما صار اليه الأمر بعد ذلك ، بل ان فى بعض الأخبار ما يؤذن بأنهم كانوا يتهيبون نقد المتن ويعدونه جرأة .. على أن الملاحظ بصفة عامة أن نقد المتن ، لم يأخذ من العناية ما أخذه نقد السند ، على اختلاف الأعصر ، ولذلك لا نطمع فى أن نجد أثرا يذكر لنقد « مالك » المتن .

* * *

ولو وقفنا لنرقب شيئا من قواعد نقد السند عند مالك لكان أولى ما نلفت اليه من ذلك عبارة له فى ذلك جيدة هى قوله : لا تأخذ العلم من أربعة ، وخذ ممن سوى ذلك : لا تأخذ من سفيه معلن بالسفه ، وان كان أروى الناس ، ولا تأخذ من كذاب ، يكذب فى أحاديث الناس ، اذا جرب ذلك عليه ، وان كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من شيخ له فضل عبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث .

ونقدر ما فى هذا الجرح والتعديل وشبيهه فى تزكية الشهود من المشقة والعناء ، وما الذى تستطيع أن تتحمله من

ذلك شخصية مالك التى عرفنا مقوماتها ، من رقة المزاج ، والانطواء على النفس وأشباه ذلك من عناصر لا تعين على احتمال شيء من معاناة هذا التقويم للرجال ، والجهر فيهم بما يشبه الغيبة وما يتطلبه ذلك من معرفة بحال الناس ، واختبار لهم ، واعتماد على معاشرتهم ؛ ثم احتمال المجابهة بما فيهم من عيوب تجرح .

ونحن فى هذا التقدير انما نعرض تجربة من أقوى تجارب الحيـاة ، نحب أن نلفت الى ما فيها من مظاهـر الصعوبة ، والحروجة ، فان العلماء يرون ان من الاحتياط للدين اشاعة ما سمع عن شخص ، من الأمر المكروه الذى لا يوجب اسقاط العدالة بانفراده ، حتى ينظر : هل له من أخوات ونظائر ؟ فان أحوال الناس وطبائعهم جارية على اظهار الجميل واخفاء ما يخالفه ، فاذا ظهـر أمر يكره ، مخالف للجميل ، لم يؤمن أن يكون وراءه شبه له — فهذا الجرح والتعديل يقوم على واجب من معرفة عيوب الناس ، والاغراء ببيانها اتقاء لخطر قبول روايتهم ، اذا لم تعرف آفاقهم .. وما من شك فى أن من عرف شخصية مالك فى الانطـواء والمداراة وما اليهـا يشفق من أن تكون تلك الشخصية شخصية ناقد يجرح ويعدل ، عن معرفة عميقة

متتبعة لأحوال الناس ، فى صلابة ، تثبت للنقـد وأعبائه ، بل لبلائه وفتنته — كما قيل .

ولقد ذكر أن هذا الناقد الذى عدوه صيرفيا كعمال بيت المال قد عرف فى رواته من تكلم فى ضعفه ؛ وقد اتخذ كاتبا هو : أبو محمد حبيب بن زريق أو مرزوق المصرى كاتبا له قد نسخ كتبه للجماعة ، وليس أحد ممن حضر الشيخ يدنو منه ، ولا ينظر فى كتابه ، ولا يستفهمه هيبة له ؛ وكان هذا الرجل يقرأ للناس ، عهدا طويلا ، وله مكانة فى الأسرة معروفة حتى انه عند وفاة مالك تولى مع ابنه يحيى القيام بغسل « مالك » .. واذن ينبغى أن تعرف قوة نقـد مالك ، فى نقد كاتبه هذا ، لأنه أحق الناس بذلك ، وكان من أصحاب مالك من يتهم قراءة حبيب ، كما اتهم « ابن معين » الناقد أمانة كاتب مالك هذا ؛ ويقول : كان يقرأ على «مالك» ويتصفح ورقتين ثلاثة معا .. وعلى كل حال فان أصحاب الرجال لم يتركوا حبيبا كاتب مالك هـذا ، بل قالوا فيه فكان أيسر ما قيل : أنه ليس بشىء ، وقيل : ليس بثقـة ، وقد ساق له ابن عدى حديثين موضوعين ، وهكذا حتى انتهى القول فيه الى : أنه أكذب الناس .. ومع ذلك كان كاتبا للذى قيل فيه انه ناقد صيرفى .

مالك الفقيه

١ ـ أدوار تاريخ التشريع
٢ ـ ما الفقه ؟
٣ ـ ما الرأي ؟
٤ ـ الرأي الاعتقاد

مالك الفقيه

وفى هذا نجلو شخصية الفقيه فيه ، ومكانه فى حيـاة الفقه فى عصره ، وتطور حياة هذه المادة ، أكثر مما نعنى بحشد الأخبار أو التفاصيل عن فقهه ، لأن هدف المترجم لشخص هو أن يهيىء لدارس علمه الطريق الى الدرس المتخصص لهذا العلم بما تقدم الترجمة من ملامح الشخصية ومعالمها . وكذلك كانت العناية بهـذا الجانب فى مالك المحدث ، لا بوصف تفاصيل عمله الحديثى . والفرق واضح بين دراسة المؤلف ، ودراسة الكتاب الذى ألفه .

وعلى ذلك سيكون الاهتمام برسم الخطوط الكبرى لصورة الفقيه مالك ، وطريقته فى فهم التشريع ، وفهم الحياة حوله ، وتقدير حاجتها منه .. أما الحديث عن المذهب المالكى أو انتشاره ، وما الى ذلك فليس موضع عناية فى هـذه الترجمة ، وانما العناية بالترجمة التى تمكن من فهم هذه الحقائق الفقهية .. والذى يفيد فى هـذا الفهم هو تصوير المرحلة التى كان يقطعها الفقه فى القرن الثانى الهجرى ، وما شارك به مالك فى هذه المرحلة ، ومنزلته بين المشاركات

الأخرى لفقهاء هذا العهد الذى كان « مالك » فيه قد نضج وجلس للتدريس بين سنتى ١١٠ ، ١٧٩ هـ .

* * *

ولابد من التعرض لما جرى عليه المعاصرون بخاصة من تقسيم حياة الفقه الى أدوار وعصور ، كأدوار تاريخ الأدب ، مدارها تغير الدول ، واختلاف الظروف السياسية ، فجعلوه ستة أدوار هى : ظهور الاسلام ؛ وعصر الخلفاء الراشدين ، وانتهاء زمن الأموية ، وهلم جرا . وكان سقوط بغداد حدا فاصلا فى حياة الفقه كما كان فى حياة الأدب تماما ، دون نظر ما الى اختلاف المنعة فى الأقاليم المختلفة ، وقيام دولة مسلمة فتية ، فى أرجاء المشرق أو المغرب كالعبيدية والغزنوية وغيرها ، لا يضيرها ضعف العباسية ، ولا يقف نشاطها بجمود بغداد ، أو اجتياحها مع أن بعض هذه الدول كالعبيدية تنشط نشاطا فقهيا خاصا ، تغاير أصوله وفروعه فقه بغداد ، وفقه الشام ، وفقه الحجاز ، فكيف تربط حياة هذا الفقه بفقه يغايره ، ويبدأ من غير ما ابتدأ هذا الفقه المعروف عند الجمهرة !

ومن هنا لا نسلم فى سهولة بمحاكاة أصحاب الفقه وتاريخه ، لأصحاب الأدب وتاريخه فى كل ما عرف من نشاط

لدرس تاريخ الفقه ، أو ما يسمى تاريخ التشريع ، منذ أكثر من ثلث قرن فى مدرسة القضاء الشرعى ، ولا يزال يدرس اليوم ، حيث يدرس فى الأزهر ، على التقسيم نفسه ، الذى جارى تقسيم عصور الأدب ، مع أن تقسيم الأدب قد بدا عدم صوابه وصلاحيته ، لأن السياسة ليست هى المؤثر الوحيد ، فى الحياة الاجتماعية ، ولا سيما حين تكون السياسة ليست الا سقوط دولة كالأموية ، وقيام دولة أخرى كالعباسية ، دون أن يمس جوهر الحياة تغيير يذكر وليس هنا مجال الاطالة فى مناقشة تقسيم حياة الفقه الى أدوار ، وتعديل هذا التقسيم أو تغييره ، وانما يكفى أن نقول بعدم التزام هذا التقسيم وأدواره ، وبالنظر الحر الى نشأة الفقه وتطوره على أنه كائن معنوى ، له مثل ما للكائن المادى من نشأة ونمو وتطور .

وانما تراقب حياة هذا الكائن المعنوى ، فى بيئته الخاصة ، بما لها من ظروف وملابسات تختلف بها عما سواها ، وان أثرت وتأثرت فيما جاورها ، وأقرب فرق بين طريقة الأدوار القديمة ، والطريقة التى سنتبعها ان الفقه الاسلامى فى الحجاز وفى العراق فى القرن الثانى الهجرى ، والفترة التى نرقبه فيها وهى فترة حياة

مالك لم يكن فقها واحــدا لوحــدة الزمن ، ووحــدة الدولة الأموية ، كما لم يكن فقها قد اختلف لسـقوط الأموية عنه بعد قيام العباسية ، بل كان فقها فى الحجاز يتعرض لظروف ومؤثرات ليست هى التى كان يتعرض لها فى العراق لاختلاف البيئتين ، وان كان ما بين البيئتين من تفاعل يؤثر أثره على حياة كل بيئة ، مع استمرارها واضحة الشخصية ، بتمايز مؤثراتها ومقوماتها الواضــحة فيها ، وسنرى أمثلة كثيرة لاختلاف تناول المسألة الواحدة فى الفقه الحجازى عن تناولها فى الفقه العراقى ، مع قرب الزمن ، ومع وحدة الدولة .. ولهذا لا نسلم مع أصحاب الأدوار السياسية أن الفقه الاسلامى واحد وحدة لا تنفصم ، فى قرن كذا أو تحت حكم دولة كذا ، لأنا نعتبر ذلك وقوفا عند ظواهر سطحية ، من قيــام أسرة ، أو انهزام أسرة ، وليست تلك هى المؤثرات الاجتماعية الفعالة ، فى الحياة العلمية ، أو الحياة العملية ، أو الحياة الفنية ..

واذا كان التقسيم الأدبى الى العصــور المعروفة قد هز أساسه ان الأقاليم المختلفــة فى العصر الواحــد قد اختلفت فيها المقالات والمذاهب الكلامية ، فأولى لأصحاب الفقــه أن يقــدروا ان المذاهب الفقهية كذلك تكون حجة

على عدم سلامة التقسيم الأدبى الى أدوار يحددها قيام الدول وسقوطها ، فكيف تكون الحجة على فساد تلك الأدوار قائمة هى نفسها على أساس من تلك الأدوار والعصور .

ومن أجل ذلك يكون النظر فى سير الحياة الفقهية ، حتى زمن « مالك » دون نظر الى دور من تلك الأدوار ، التى يحددها أصحاب تاريخ التشريع ؛ وبهذا لا يمتد البصر الى أرجاء العالم الاسلامى لذلك العهد ، يراقب فيها سير الحياة الفقهية ، بل يقتصر من ذلك على الحجاز وحده ، وعلى « المدينة » منه ، كما يكون الوقوف عند أواخر القرن الثانى الهجرى ، دون تقيد ما بدور من أدوار الفقه الاسلامى أو عصر .

وبالتزام البيئة المادية ، والاقليم الجغرافى ، والظرف المكانى ، يكون هناك أصل منضبط ، لفهم الحياة ، وتوجيه نشاط الانسان ، اذ لا شىء يوجه هذا النشاط ، مثل طبيعة بيئته المادية ، وفى حدود طاقتها ومعونتها يكون النشاط المعنوى للحى فيها ، فدينه ، وعلمه ، وحكومته ، واقتصاده و .. و .. مما توجهه بيئته ويلونه اقليمه ؛ ثم ما يصل اليه من خارجها ، فهو لا بد مرهون بتقبلها ،

وصلاحيته للحياة فيها ، فهى التى تقبل من المؤثرات الطارئة ما تقبل فتؤقلمه ، وترفض من ذلك ما ترفض فتستبعده ، وبهذا ينضبط كل نشاط للانسان ، والفقه بعض هذا النشاط ومظهر منه ، فينبغى أن يؤرخ هذا الفقه والتشريع فى أقاليمه وبيئاته ، وبحيز الاقليم المدروس بحدوده المعينة ، وخصائصه المميزة تتميز خصائص الفقه ، وتكون لحياته وحدة متصلة ، يدل الدرس العميق بعد ذلك ، على الصواب فى تقسيمها ، وتمييز أدوارها وعصورها ، حسب عوامل التطور فيها ، فيكون القول على هذا الأساس ، وفى تلك الحدود أدق وأضبط ، وأدنى الى القبول ، من تلك الأدوار التى تنتظم الشام والمغرب واليمن والهند فى قرن ، على غير رابطة واصلة ، ولا وحدة مفهومة ، الا أنها خضعت لحكم فلان من سنة كذا الى سنة كيت .

* * *

وهذا الحجاز الذى عاش فيه « مالك » كان بفطرته اقليما متميزا بين أقسام الجزيرة ، فله بيئته المكانية يتحدث الدارس من طبيعتها عن معروف ، ويبين من خصائصها المستقر المسلم به .

والحجاز منشأ الاسلام ومهده ، منه خرج ، وفيه

درج .. وقد قدمنا فى هذه الترجمة وصفا كاشفا لحال هذه البيئة ماديا ، ومعنويا ، هو أساس كاف للبناء عليه هنا ، ومن أجل ذلك قدمناه ، وعنينا به ؛ والى جانب ذلك ما يحيط به من وصف البيئة العامة للدولة الاسلامية من حيث الظواهر المعنوية ، مما يتكامل به وصف البيئة الخاصة ، فكان ذلك كله خير أساس لما نريد الآن أن نقول .

* * *

فى هذه البيئة نريد ، أولا ، لنفهم المعانى التى استعملت فيها كلمة الفقه ، الذى نسب اليه « مالك » فى أشهر صفاته ، وأعرف مميزاته ؛ فاذا ما فهمنا تطور هذه الكلمة ، فى تلك البيئة ، فقد تيسر لنا تقدير عمل « مالك » الفقهى تقديرا دقيقا ، لا تختلط فيه تلك الصورة الأولى بالمعنى الذى استقر أخيرا فى أذهاننا اليوم ، فلا يسرع الى خيالنا شىء من ألوان تلك الصورة المتأخرة نضفيه على « مالك » وزمنه ، لأن تلك الصورة الأخيرة للفقه انما هى عمل قرون ، وأثر أجيال .

* * *

ما الفقـه ؟

ولا بعد فى أن نلتمس الأصل اللغوى الأول لكلمة الفقه، وما تطور اليه هذا المعنى ، فيكون فى التطور اللغوى

ـــ كما هو المقرر ـــ صـــورة صحيحة للتطور العقـــلى والمعنوى للكلمة واستعمالها ..

والحجاز بخاصة قد يكون خير بيئة لغوية ، ودينية ، وعلمية ، واجتماعية ، يلتمس فى آثارها ما يدل على ذلك التطور عن طريق التأريخ اللغوى للفظة .

وعلى الأصل فى التماس الحسى المادى من معانى الكلمة لأنه الأسبق ، فى طبيعة الحياة ، نجد أن ذلك المعنى الأول هو الشق ، ومنه يجىء معنى حسى آخر ، فيقال : فحل فقيه ، أى عالم بأحوال النياق المطروقة .. ثم تجىء منه المعرفة مطلقا ، فيكون الفقه الفهم والادراك ، ويقول المتكلم لمن يسمعه : أفقهت عنى أى أفهمت ؟ ويكون الرجل عنـــد الأعراب فقيها ، كما كان الفحل فقيها ، وفقيه العرب : عالم العرب .. ويقال الفقه على المعرفة ، عن رؤية ومشاهدة ، لأنها أقوى أنواع المعرفة ، فيقال للشاهد : كيف فقاهتك لما أشهدناك .. ويقول « عمر بن الخطاب » « لجرير بن عبد الله » : كنت سيدا فى الجاهلية ، فقيها فى الاسلام ، وما كنت فقيها .. ثم يدق المعنى ، ويزيد تخصصا ، فيكون الفقه : هو الفطنة ، والرأى السديد ، ويقابل فى مثلهم بالرأى

المتأخر ، فات أوانه ، فيقال : خير الفقه ما حاضرت به ، وشر الرأى الدَّبرى .. وهكذا نصل فى معنى كلمة الفقه ، من الشق والفتح ، الى الفطنة والفهم ، فى تدرج واضح المسالك .

ثم نلوذ بالقرآن ، وهو قاموس الفقه اللغوى ، يهدى استعماله الى لباب المعنى فى حينه ، ويحفظ من الحس اللغوى أدق مسجَّل للمعنى الخاص ، ونلتمس دلالته فاذا المادة قد وردت فيه نحو عشرين مرة ، وأكثر منها صيغة واحدة ، هى الفعل المضارع ، ومرة واحدة جاء الماضى « تفقه » ، وسائر المرات مضارع فقه .. وهو فى نحو نصف المرات يوردها من غير متعلّق — وفى سائر المرات يكون مفعولها فى الأكثر القول : وفى مرة منها يكون المفعول : تسبيح الأشياء بحمد الله ، وفى مرات نحو الخمس منها . يعين القلب أداة للفقه ، « لهم قلوب لا يفقهون بها » « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » ، « وعلى قلوبهم أكنة أن يفقهوه » ..

فأنت ترى المادة فى القرآن بمعنى الفهم ، لا شىء قبله ؛ وتصل من الفهم الى أدقه وهو فهم القلب وسيلة التعقل ، فى الاستعمال القرآنى ، فالفقه حتى آخر عصر النبوة هو :

الفهم الفطن النافذ .. ولدينا من « ابن خلدون » فى المقدمة نص على أن العارفين بالأحكام من الصحابة سُموا القراء ، لأن العـرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم ، ثم يستحر القتل بالقراء فى اليمامة ، أيام الردة ، وهم على ما سمعنا الذين عرفوا من قراءة الكتاب الحلال والحرام .. ويتطور المجتمع الاسلامى ويتقـدم ، ويرتفع مستوى القراء ، عن مجرد القراءة والحفظ الى الفهم المسعف ، ويحتاج هؤلاء وهم المراجع فى أحكام الدين الى حسن استعمال للعلم التوقيفى الموحى به ، ومع تجدد الحوادث ، وتغير المعاملات يحتاج حافظ القرآن الى شىء من قوة الفهم ، فنحس العناية بفهم النص ، وحسن التلطف ، فنسمع الأخبار المتداولة عن الاستخراج اللبق لحكم حادثة والقضاء المرن فى مشكلة ، ويكتب « عمر بن الخطاب » الكتاب الذى ترجح نسبته اليه ، وفيه يقول لأبى موسى الأشـعرى : « فافهم اذا أدلى اليـك » ، كما يقـول : « ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت رأيك ، فهديت فيه لرشيدك ، أن تراجع فيه الحق ، فان الحق قديم لا يبطله شىء ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » حتى يقول له : «الفهم الفهم فيما أدلى اليك» ، فالخليفة يأمر

أكثر من مرة بالفهم ، ويقف الشراح لهذا الكتاب بعد ذلك عند هذا الفهم ليقرروا ان صحة الفهم نور يقذفه الله فى قلب العبد .. ولا يتمكن المفتى ولا الحاكم ، من الفتوى والحكم بالحق الا بنوعين من الفهم ، أحدهما :

فهم الواقع والفقه فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع ، بالقرائن والأمارات والعلاقات حتى يحيط به علما .

والنوع الثانى : فهم حكم الواقع ، وهو فهم حكم الله ، الذى حكم به ، فى كتابه ، أو لسان رسوله ، فى هذا الحادث ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه ، الى معرفة حكم الله ورسوله .

فنجد من هذا الأمر بالفهم ، ومن مواضع الفهم فى الحادث ، وفى الحكم ، أن العلم المروى يحتاج الى الفقه والتفقه .. فكلمة الفهم فى كتاب القضاء لعمر تؤدى معنى كلمة الفقه ، أو تقوم اذ ذاك مقامها .

وتكون خطوات التدرج هى : القراءة ، وبعدها العلم ، ثم الفهم بعد العلم ، أو مع العلم ، ومن هنا تبدأ طلائع استعمال الفقه .. ويكاد يكون هذا الترتيب واردا على نسقه هذا فى تفسير الطبرى لآية « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » اذ يسوق

الروايات فى تفسير الحكمة فاذا هى القرآن والفقه به ؛ أو الفقه فى القرآن ؛ أو الكتاب والفهم فيه ؛ أو هى : القرآن ؛ والعلم ، والفقه ، فيكون العلم بهذا العطف على القرآن أو الكتاب هو الحديث ؛ والفهم هو الفقه وقد احتاجوا مع القرآن أى الكتاب ، الى العلم أى المروى ، وهو الحديث أو السنة ؛ ومع العلم أو بعده الفقه .

ومرويات هذا العصر المشيرة الى هذه الخطوات وترتيبها هكذا كثيرة ، والفقه هو الفطنة والتأمل .

ولو قابلنا هذه المعانى المتدرجة بما قدمنا من معانى المادة اللغوية (فقه) المتدرجة ، لوجدنا التقابل واضحا ، والتطور اللغوى يوازى التطور الاجتماعى الحيوى ، والمعنى الأخير للفقه ، هو الفطنة والنفاذ فى الأمر وهو المعنى اللغوى الأخير؛ وما حفظته المعاجم يساير ما حفظته النصوص التاريخية ، وما استقر من أن حالة الحاكمين فى أعمال الناس: قضاة أو مفتين ، قد مروا بدرجات متتابعة :

أولها — القراءة المميزة عن الأمية ، وهم الذين سموا القراء من بعد ما أوثرت تسمية كتاب الدين قرآنا .

ثانيا — العلم التلقينى ، من فوق ، بسنة وفريضة ، تبين معنى القرآن ، والعارفون لهذا يسمون العلماء ، والسنة

تسمى العلم ، كما سمعنا « مالكا » يقول لأمه : أذهب فأكتب العلم ، وقد تكررت الاشارة الى هذا المعنى ، وأن أهله يسمون العلماء .

ثالثها — الفهم المتدبر ، والفقه المتفطن بالرأى ، الذى هو — كما قالوا — وزير العلم ؛ وهو الفهم حينا ، والفقه أخيرا .. وأهل ذلك يسمون الفقهاء .

لكن الفقه ، حتى القرن الثانى ليس هو الفقه بمفهومه الأخير المستقر فى أذهاننا اليوم ، لأن أبا حنيفة المتوفى فى منتصف هذاالقرن— ١٥٠ هـ—يعد الفقة:معرفة النفس ما لها وما عليها ، معرفة شاملة ، خليقة بأن تعتبر هى الحكمة التى يؤتيها الله من يشاء .. وهى معرفة شاملة للاعتقاد ، والخلق ، والعمل .. فكلمة الفقه فى عصر « مالك » لا تزال تستعمل فى أفق أوسع من معناها الاصطلاحى عندنا ، الخاص بالأعمال والعمليات لا غير .. والمنتظر بعد هذا أن يكون التخصيص بالأعمال هو الخطوة التالية ..

وهذه الخطوة التالية تتم فى طبقة أكثر عناية بالمعانى ، والاصطلاحات ، وتقسيم العلوم ، وما الى ذلك مما يكون نشاط الحجاز فيه قليلا ، غير متوقع التأثير ؛ أما العراق مثلا فبيئته أصلح لهذا التطور والدلالة عليه .

ومتابعة النصوص الثابتة النسبة الى فترة من الزمن تؤيد وقوع هـذا التطور على هـذا الترتيب ، وأن كلمة « الفقه » لم تشع بهذا المعنى المتميز ، فى عصر الصحابة ، وان كانت ففى آخره . ثم هى فى عصر التابعين أكثر دورانا.. ويكون « مالك » قد لحق بركب الثقافة الدينية فى عهـد لم تكن كلمة الفقه فيه قد تميزت تميزا اصطلاحيا واضحا ، بل كان المفتون يعنون بالعلم ، ويحضون على الفقه فيه .. وليس ذلك فى شىء من معنى الفقه المتبادر من الكلمة اصطلاحا اليوم .

وحوالى هذا العصر الذى نؤرخه فى حياة « مالك » أو نؤرخ حياة مالك فيه ، تظهر كلمة الرأى .

وعلى مثال ما صنعنا فى كلمة الفقه ، لغويا واجتماعيا نصنع فى كلمة الرأى ، لأن هذه الكلمات تستعمل فى عصر « مالك » ، فتفهم خطأ ، بما لها من معنى فى أذهاننا اليوم ، هو حصيلة قرون وأجيال متتالية .

والرأى : فى اللغة — حسيا — هو النظر بالعين أى الرؤية .. وتتدرج الى ما بعد ذلك فاذا معنى الرأى المعروف بالعقل وهو كالمرئى بالعين .. وهى بهذا المعنى تنتظم مفاهيم كثيرة شبيهة برؤية العين ولا سبيل الى انكار وضوحها ،

فمنها الرؤيا فى الحلم .. وتكون بمعنى الرؤية القلبية — أى الاعتقاد ..

وتصـدق فكرة أن التطور اللغـوى يساير التطور الحيوى ، فى استعمال المادة — وترتب معا فى رأى على هذا الوجه : رأى البصرية الحاسية .. ويرجح أن تليها رأى الحلمية .. وبعدها رأى العلمية ، أو الفهمية .. وتتأخر عن ذلك كله رأى الاعتقادية .

ونلوذ بالقرآن مرجع الحس اللغوى للعربية ، فنرى « رأى » كثيرة الدوران ، كثرة تصرف عن احصائها ، وأكثر صيغها استعمالا الصيغة الفعلية — ما خلا الأمر — وتجد فيه من مصادرها :

الرؤيا المنامية .. وقد تفسر الرؤيا برؤيا اليقظة فى آية : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس » .. وفيه : الرأى ، مرتين لا غير ، احداهما رأى العين ، والثانية للظاهر المتبادر — بادى الرأى — وقد تشعر أن غير البـادى والظاهر من الرأى يكون عن تدبر وتأمل .

ومن كل أولئك تحس أن القـرآن قد استعمل رأى البصرية ، أكثر مما استعمل غيرها . وأن رأى الاعتقادية لا تكثر فيه ، أو قل لا تظهـر الا احتمالا فى آية المائدة

« لتحكم بما أراك الله » — وأن الرأى فى القرآن لا يدل الا على المعنى العام المجمل ، وهو الفهم أو النظر .. وهو قليل الاستعمال فى القرآن .

* * *

واذا عمدت الى مراجعة التطـور الاجتماعى لتقابله بالتدرج اللغوى ، وجدت أن الرأى ، كان شديد الحساسية دقيق التغير والتأثر بما يطرأ على الحياة الاسلامية ، من مؤثرات خفية خفيفة لم يحفـظ التاريخ منها شـواهد كافية ، ولا سيما فى البيئة الحجازية التى لعنى بتاريخها .

ما الرأى ؟ والرأى نتيجة للفهم ، الذى لابد منـه ، فى الواقعة التى يطلب حكمها الشرعى ؛ كما لابد منه فى العلم الذى يريد الحاكم استخراج الحكم منه . والمفتون فى أدوارهم التى مروا بها — وهى : القراء ، والعلماء ، والفقهاء — لابد لهم من رأى مهما تكن ثقافتهم ، وسواء فى ذلك أكانت تلك الثقـافة مجرد القـراءة ، أم كانت تلقى المرويات ، أم كانت التدبر للمروى المنقول .. وعلى ذلك تكون خطوات تدرج الرأى اجتماعيا هى خطوات تدرج الحاكمين ، من قراء ، الى علماء ، الى فقهاء .

ونعرف أن القوم قد بدءوا منذ اللحظة الأولى لصمت

الرسول عليه السلام يتدبرون ويتفهمون ، أى يرتأون ، فهم قد تجادلوا يوم السقيفة ، وتدافعوا ، وتناظروا حتى تمت بيعة أبى بكر . ثم تجادلوا وتناظروا عند الردة ، وماذا يفعلون فيها .. فهل كان هذا كله منهم الا فهما للواقعة ما هى ؟ .. وفهما للنص كيف يطبق عليها ؟ .. وهم فى هذه الشدائد يطلبون آراء ذوى الرأى فيهم ، ويصفون الرجل منهم بالرأى تقديرا واجلالا ، فكان العباس يسمى « ذا الرأى » . ويضيفون أسماء الى الرأى مثل : « مغيرة الرأى » و « ربيعة الرأى » .. وهذه الاضافة تحدد وتفسر معنى الرأى فى هذا الاستعمال وأنه كشف المشكل ، والاهتداء فيه الى أحد وجهيه .. ولعل ما أضيف بعد الى أسماء فقهاء مثل « هلال الرأى » لا يبعد عن هذا المعنى كثيرا ، ولا يراد به من الرأى الا الفهم الكاشف .

وبهذا المعنى كان للصحابة الأولين رأى فى حكمهم وفتواهم . وكان للتابعين رأى فى حكمهم وفتواهم ، ولكل من بعدهم رأى بمعنى كشف للواقعة وتشخيص ، وكشف لأصل الحكم وتطبيق .. ولا يستغنى أحد ما من أن يكون له هذا الرأى بوضع ما ، وشكل ما ، وكيفما جاء ؛ وبهذا المعنى ينسب الرأى الى كثيرين جدا من التابعين فى نصوص

معروفة ، فأسندت الفتوى بالرأى والمقايسة على الأصول ، لأعداد جمة ، فى الحجاز نفسه ، منهم « مالك » وأصحابه ؛ وفى مكة ، وفى اليمن ؛ وفى الكوفة ، وفى البصرة ، وفى مصر ، وفى بغداد ، وفى هؤلاء الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة ، ووجوه الفقهاء فى كل اقليم وحاضرة .

والمدينة كانت مستقر المتلقين للعلم النبوى ، الحاكمين به ، عن رأى واستبانة ، وبهذا المعنى للرأى يمكن أن تكون المدينة قد سبقت الأمصار والمدن الاسلامية فى استعمال الرأى بهذا المعنى العام ، الذى لا يميز فقيها عن فقيه ، ولا مجتهدا عن مجتهد ؛ فهو الرأى الذى قال فيه « مالك » نفسه : رأى ما هو رأى — وعلى هذا المعنى يعد « مالك » نفسه صاحب رأى ، فى مثل صنيع « ابن قتيبة » اذ عده بين فقهاء الرأى ؛ واعتباره مرجعا فى المدينة بعد ربيعة ؛ وقول « ابن حنبل » عمن يريد أن ينظر فى الرأى : أن ينظر فى رأى مالك .. ومن هذا القبيل عد ابن رشد « مالكا » : أمير المؤمنين فى الرأى والقياس !

هـذا هو الرأى فهما ومعـرفة ، لا فرقة ومذهبا ، ولا تشقيقا للمسائل وفرضا فيها ، وهو رأى يكون من الرسول نفسه ، عليه السلام ، ويكون من الصحابى

والتابعى ، فهو رأى يختلف باختلاف الشخصية العقلية ، ويتفاوت بتفاوت الثقافة ، التى تكون الفهم ، وتعين وجهته وتقدر دقته ؛ وكل ذلك يتأثر بالبيئة أقوى التأثر وأشده . فيتفاوت الرأى الذى هو الفهم ، بهذا المعنى العام المجمل : يتفاوت فى العراق عنه فى الحجاز ؛ كما أن التطور يكون فى احدى البيئتين — العراق — أسرع منه فى الثانية ، وهى الحجاز .

وبهذا نطمئن الى ظهور الرأى فى حياة أصحاب العلم الدينى منذ بدء الرسالة ، سواء أكان الرأى بهذا الاستعمال فى الحجاز ، أو غيره ، وان كنت تستطيع القول بأن الرأى بهذا المعنى كان فى الحجاز أسبق ظهورا ، بما هو أول موضـــع للتطبيق الدينى . كما نطمئن الى أن الرأى فى الحجاز ، حتى عهد «مالك» لم يجاوز معنى الفهم أو الفطنة ، ولم يصل الى شىء من التوسيع والتعقيد والتماس العلل ؛ وان كان معنى الرأى قد جاوز هذا المعنى بكثير فى العراق ، وهو ما تستطيع التثبت منه بالمقارنة بين مسألة واحدة ، فى كتابة رجلين متعاصرين كمالك ، وأبى يوسف .. فسترى فرق التناول بعيدا ، وفى الترجمـــة المحررة — ص ٦٤٣ — ٦٤٥ — نصان عن القسم للخيل فى الغزو ، واحد عن

مالك لا يجاوز السطرين ، والآخر عند أبى يوسف فى كتابه الخراج ، وهو يربى على سبعة عشر سطرا — ومنهما يتضح الفرق الكبير فى تناول كل واحد من الطرفين فى أشياء كثيرة ، لا نقف عند بيانها هنا ، وانما نكتفى بالاستدلال بهذه الفوارق ، على فرق ما بين تناول البيئتين مع تقارب الزمن الى حد الوحدة ، وليس فى عبارة مالك هذه شىء مما هو رأى بأى معانيه ، على حين أن فى تناول أبى يوسف من الرأى ما يوشك أن تتضح فيه صورة القياس الكاملة .

وفى هذا الشاهد مثل واضح ، وحجة صادقة على اختلاف الأمر باختلاف البيئات أولا ، وأن التقسيم فى تاريخ الفقه الى أدوار وعصور ليس له أساس ، ولا هو من سليم الرأى فى الدراسة .

ولو درس تطور الرأى فى العراق وحده لكشف ذلك الدرس عن خطوات لهذا التطور تختلف عن مثلها من خطواته فى الحجاز ، كما تكشف تلك الدراسة أن صلة ما بين الحجاز والعراق — على البعد — قد أثرت فى تطور الحياة العراقية ، بلا شك ، وليس من السهل تجاهل أن محمد بن الحسن الشيبانى ، أجل أصحاب أبى حنيفة ، وصاحب التدوين فى المذهب ، له رواية خاصة فى الموطأ ،

تعتبر من أصول الموطأ ، كما أنه ليس من السهل تجاهل تأثير الحياة العراقية بعقليتها ، وظروف حياتها الثقافية والعملية المتميزة عن حياة الحجاز ، حتى لنجد « مالكا » فى غير مناسبة يذكر العراقية علما على منزع فى التفكير ، يشقق ، ويعترض ، ويسأل بما لا يحب « مالك » أن يجيب عنه .. وهكذا يظهر وجه الحق فى تلك الكليات عن تاريخ الفقه والفكر الفقهى ، ويظهر أن الرأى قد مر بتطورات استعمالية ، قد يكون من أهمها استعماله فى معنى الاعتقاد ، وهو الاستعمال الذى قل فى القرآن أو كاد لا يوجد — كما سبق — ولأهمية هذا الاستعمال فى تطور معنى الرأى ، وقوة وقعه على النفس ، والشعور بشىء من النفور منه بل الكراهية له ، نقف وقفة قصيرة عنده .

الرأى الاعتقاد — وهو المعنى الاسلامى الذى خلقته الحياة الدينية ، ونماه ما كان فيها من خلافات سياسية ، أساسها دينى ، على ما بينا ، فى وصف تلك الحياة وقد تركت الحياة العقلية والعملية آثارا ، تدل على استمرار استعمال الرأى فى الاعتقاد .. اذ يجرى البحث ، مثلا ، حول القياس ، الذى هو الصورة الكاملة للرأى ، وان هذا القياس يستعمل فى الاعتقاد أو لا يستعمل

ومن هنا يظهر القول عن خطر هذا الرأى القائل على الاعتقاد ، وتروى أحاديث تجعل أصحاب الرأى فى العقيدة أشد فتنة فى الدين من غيرهم مثل حديث : « تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة ، أعظمهم فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم ، يحرمون ما أحل الله ، ويحلون ما حرم الله » .

ويبدو أن اطلاق الرأى ، على تأمل الناظر عقلا ، فى العلم الدينى ، كان اطلاقا عاما ، شاملا لفروع المعرفة الدينية المختلفة ، التى كانت ، أول الأمر ، وحدة متماسكة ، على ما رأينا من ذلك فى تعريف « أبى حنيفة » للفقه ، التعريف الشامل للعقيدة ، والخلق ، والعمل العادى ؛ ثم قسمت الثقافة الدينية ، مع الوقت ، الى فروع مختلفة سميت لها علوم ، فعرف علم الكلام ، وعلم الأخلاق ، وعلم التصوف ، وعلم الفقه .. الخ .. فحين كان هذا الجمع الشامل للثقافة الدينية كلها ، كان القول فى ذم الرأى ، الذى صار سمة لأشخاص وطوائف متهمة .

ومن هنا كانت الآثار السيئة لاستعمال الرأى فى الاعتقاد ، وشاع القول فى ذم الرأى من حيث أثره فى الاعتقاد الذى هو يقين وتسليم ، يفسده استعمال الرأى ؛ وانعكست من هذا الذم المطلق للرأى ظلال قاتمة ، نفرت منه ، وشوهت

صورته ؛ ودخل هذا الذم ، بلا تفريق فى نزاع الطوائف والفرق ، لا فرق فى ذلك بين المذهب الاعتقادى ، والمذهب العملى الفقهى ، اذ كان هناك معسكران : حديثى ، وقياسى . وكان أهل الحديث المشتغلون بالنقل والرواية يسمون أصحاب القياس أصحاب الرأى ، لأنهم يأخذون بآرائهم فيما يشكل من الحديث ، وفيما لم يأت فيه حديث ولا أثر .

وكذلك عرف فى الاعتقاد ، وعند المتكلمين ، أصحاب رأى ، وأصحاب حديث .. كما عرف فى الفقه — بمعناه الخاص — أصحاب رأى وأصحاب حديث ، وانجر ذم الرأى فى الاعتقاديات الى ذم الرأى فى غيرها ، وأطلقت فيه المرويات والآثار التى تذم الرأى ، بما هو ابتداع فى الدين ؛ ووصل ذلك الى الميدان الفقهى الذى لا بأس فيه بالرأى ، والذى يحتاج من الرأى الى أكمل صوره ، وهو القياس الفقهى ، فاستعمل المختلفون فى الفقه تلك الآثار فى ذم الرأى ، ولو أنه فى هذا الفقه ليس مذموما .. ومع الزمن بقيت آثار هذا التلاحى ، الذى يكون بين المختلفين عادة ، ونسى ذلك التفريق بين الرأى الذى هو اعتقاد ، والرأى الذى هو عمل

وبهذا الاختلاف فى معنى الرأى ، وأنه الفهم والفطنة ، أو أنه استعمال العقل فيما نجد فيه استعماله من العقائد تقابلت عبارات القائلين ، فى ذم الرأى ومدحه ، دون نظر الى ما كان من اختلاف الأحوال ؛ ومن هنا ترى فى القول عن « مالك » نفسه اختلاف الاطلاق ، وتغاير الاستعمال

فحينما تسمع أن « مالكا » أمير المؤمنين فى الرأى ، بل على طريقة المنقبيين يقال : ان الرسول عليه السلام قد شهد لرأى « مالك » فى المنام ! . وينقل عنه هو نفسه ذكر رأيه ، وطلب عرضه على السنة ، كما يذكر هو فى الموطأ ما يسميه رأيا .. والى جانب هذا المدح والتمسك بالرأى ما يخالفه ويناقضه ، كتمنيه هو فى مرض موته وقوله : «والله لوددت أنى ضربت بكل مسألة أفتيت فيها برأيى سوطا مسوطا ، وقد كانت لى السعة فيما سبقت اليه ، وليتنى لم أفت بالرأى » بل يشتد الأمر ويقسو نقد « مالك » لأبى حنيفة بمثل قوله : والله ما ولد فى الاسلام مولود أضر على أهل الاسلام من « أبى حنيفة » .

واختلاف الرأى فى القول ، على مثل ما سمعنا ، انما يرتد أصله الى ما تبين ، من أن الرأى كان رأيا فى العقيدة ، كما كان رأيا فى العمل .. فانتقلت كراهة الرأى

فى العقيدة الى الرأى فى العمل واستعملت عبارات الذم للرأى فيما ليس موضعا للذم ، من الرأى فيما هو عمل .

واتنبه الى ذلك بعض القدماء كابن عبد البر المالكى فقال ما خلاصته : اختلف العلماء فى الرأى المقصود اليه بالذم والعيب .. فقالت طائفة : الرأى المذموم هو البدع المخالفة للسنن فى الاعتقاد .. ويلحظ هذا القائل نفسه : أن كل من روى عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصا ، لا يدفع هذا الا جاهل أو متجاهل ، مخالف للسلف فى الأحكام .

وتمام البيان لهذا هو ما تقدم من معانى — رأى — واستعمالها فى الاعتقاد ، بعد استعمالها فى الرؤية الحسية ، وفى الرؤية العلمية — ولا وجه للمسألة الا أن الرأى المذموم هو الرأى فى الدين بخاص معناه ؛ والقياس فى العقائد ؛ والرأى الذى ليس مذموما هو الرأى فى الأحكام العملية الفقهية ..

وتبدو آثار هذا الاختلاط فى شرح القولة القاسية التى تنسب الى « مالك » فى حق « أبى حنيفة » وأنه أضر مولود على الاسلام ، فانها تبين بأشياء عملية ، وأشياء اعتقادية ، وترد فيها العمليات الى أصل دينى

لتصدق المذمة ، فيقال : « كانت فتنة « أبى حنيفة » أضر على هـذه الأمة ، من فتنة ابليس ، فى الوجهين جميعا : فى الارجاء ، وما وضع من نقض السنن » والتعبير بنقض السنن يراد به استعمال القياس الفقهى ، ويلون ذلك التلوين الدينى ، ليمكن الذم .

وما تبين من اختلاف القول فى الرأى هذا الاختلاف يدل على أن الرأى فى عصر « مالك » لم يكن قد استقر تماما بمعناه الاصطلاحى ، وهذا التداخل بين المعانى هو الذى سبب ما سمعنا من ذمـه والحكم القاسى عـلى شخص كأبى حنيفة ، سواء أثبت ان هذه القولة « لمالك » نفسه ، أو لغيره حملها عليه .

وعدم اتضاح معنى الرأى فى عصر « مالك » يصدق على البيئة الحجازية تماما ، وان كان الأمر قد يختلف فى العراق عن هذا الذى فى الحجاز ، لأن هذه البيئة كانت أدنى الى المحافظة ، وأبعد من التيارات الفكرية ، فلسفية ودينية — كما بينا ذلك من أمرها — فكانت بذلك أدنى الى المحافظة ، وأكثر نفورا من الظـلال المريبة ، ولو فى مظهرها فقط

وهـذا التفريق الواضح بين الرأى بمعنى الاعتقاد ،

أو القول بالرأى فى الاعتقاد ، والرأى بمعنى القيـاس والاستنباط ، سيلقى أضواء كاشفة على شخصية « مالك » المتكلم ، كما ألقى أضواء على أقواله فى ذم الرأى مطلقا وبهذا البيان ، ومع مقابلة التطور اللغوى لكلمتى « الفقه » و « الرأى » بالتطور الاجتماعى فى فهمهما واستعمالهما ، يبدو قرب النتائج الآتية :

(أ) ان الرأى بمعناه العام ، كان ظهوره المبكر أمرا اجتماعيا تقتضيه طبائع الأشياء ؛ وكان هذا الرأى ، على اختلاف فى تقديره العقلى — بساطة وعمقا — هو المأخوذ به فى بيئة الحجاز .

(ب) ان ممن وصفوا بالرأى ، أو أضيفت أسـماؤهم اليه ، حتى أوائل القرن الثانى الهجرى — ولا سيما فى الحجاز — من يمكن أن يكون الرأى فى وصفهم ، وفى اضافته الى أسمائهم ، هو الرأى بمعنى قوة النفاذ فى الأشياء، والقدرة العقلية على حل المشكلات الدينية وغير الدينية .

(جـ) أن هذا الرأى لم يكن يظلله شىء من قتام ، ينفر منه ، أو يجعله مذموما ، بل كان الرأى يرادف الفقه ، فى تلك الحقبة المبكرة .

(د) ان المقابلة بين مدرستى الرأى والحديث ، فى الفقه

بخصوصه ، لم تكن واضحة الظهور فى ذلك الوقت ، أى الى قريب من نهاية حياة « مالك » ؛ وان أمكن التسليم بوجود شىء من اتهام بعض أبناء العصر الواحد بعضا ، بعدم العناية الكاملة بالحديث وروايته .

(هـ) ثم انعكس قتام الرأى الاعتقادى على الرأى التشريعى فوجدت فى البيئات المحافظة كالحجاز نفرة من الرأى ؛ ولم يكن العراق يشعر بذلك مثل شعور الحجاز ، ولا قريبا منه ، بل عملت ظروف البيئة العراقية ماديا ومعنويا على تقوية نزعة الرأى فى العراق ، تقوية لا تهيىء لها ظروف البيئة الحجازية ماديا ، ولا معنويا ، فبدا الفرق بين البيئتين .

فقه مالك

١ ـ الأحكام
٢ ـ الأعمال
٣ ـ الأدلة
٤ ـ القرآن
٥ ـ السنة
٦ ـ الإجماع
٧ ـ القياس
٨ ـ الاستحسان
٩ ـ المصالح المرسلة
١٠ ـ نتائج

الفصل الثاني عشر

فقه مالك

ونفرده بقسم برأسه لأنه الصفة الواضحة للامام ، ولأنا سنسلم فيه بقدر فنى موضوعى من الفقه لا مفر لكاتب الترجمة من الوقوف عنده ليجلى شخصية المترجم له ، ومعالم تفكيره الفقهى جلاء يعين مؤرخ الفقه بعامة ، أو دارس فقه « مالك » بخاصة على أن يرسم الصورة المتماسكة لحياة الفقه فى عصر « مالك » وعمله فيها ، أو ليقيم درسه الخاص « لمالك » على أساس واضح من الصلة القوية ، بين الفكرة وصاحبها ومنهجه وأسلوبه ، فيفهمه فهما شاملا واضحا ..

ومثل هذا الجانب من حياة المترجم له ، جدير بأن يفرد ويجلى ، فيعقد له القسم المستقل المفرد ..

وأحسب أنه لا يتهيأ لنا جلاء الجانب الفقهى من شخصيته ، وتقديره تقديرا دقيقا ، الا عن طريق الموازنة المقابلة ، بين صنيع الشيخ فى الفقه ، وبين أشباهه ونظائره فيما بعد ، على ما تتصوره عندما نطلق كلمة الفقه ، ولهذا

آثرت أن أتخــذ نواحى هــذه المقــابلة الموازنة ، من عناصر الفقــه فى صورته الأخــيرة ، بما هو احكام عملية من أدلتها التفصيلية فأدير أقسام الموازنة على ما اســتقر من هذه العناصر والأقسام فى الأصول والفقه ، متخذا لها العناوين المعروفة لهذه الأقسام فيما استقر عليه الاصطلاح أخيرا ؛ ولو أنه ربما لا يكون معروفا بهذه الأقسام والعناوين فى العصر الذى نحن بصدد الحديث عن عمل الشيخ فيه .

وأرجــو أن يكون للقــارىء أنس والف ما ، لهذه التقسيمات والاصطلاحات ، ولما سيرد فى ثنايا القول من عبارات أو اشارات ، لن يتسع المقام لشرحها أو التعريف بها فى هذه الترجمة الميسرة .

* * *

الأحكام : وجملة القول فى صورتها الفقهية الأخيرة ، أنها خمسة : الايجاب ؛ والندب ، والتحريم ؛ والكراهة ؛ والاباحة ؛ لأن الطلب اما طلب فعل جازم فهو الايجاب واما طلب فعل غير جازم فهو الندب ؛ واما طلب ترك جازم فهو التحريم ، واما طلب ترك غير جازم فهو الكراهة ؛ واما طلب تخيير فهى الاباحة .

وقد تكون هناك تفاصــيل جزئية كترتيب درجات

الكراهية ، فهى كراهة تحريم ، وكراهة تنزيه ؛ وعمل الفقه هو اصدار تلك الأحكام على الأعمال والأشياء ، من حيث استعمالها .

وننظر مع هذا الذى استقر أخيرا الى آثار « مالك » فنجد أول ما نجد شعورا عاما برهبة عملية الحكم ، وتقرير الحل والحرمة ، فهو يقول : « ما كان شىء أشد علىّ من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام ، لأن هذا هو القطع فى حكم الله . ولقد أدركنا أهل العلم ببلدنا ، وان أحدهم اذا سئل عن المسألة كأنما الموت أشرف عليه » كما ينقل عنه أيضا قوله : « لم يكن من أمر الناس . ولا من مضى من سلفنا ، ولا أدركت أحدا اقتــدى به ويقول فى شىء هذا حلال وهذا حرام .. ما كانوا يجترئون على ذلك ، وانما كانوا يقولون نكره كذا ونرى هذا حسنا ، فينبغى هذا ولا نرى هذا » وتزيد رواية أخرى قوله : ولا يقولون حلال ولا حرام ، أما سمعت قول الله تعالى : قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ... الحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله .

واذا كنا نعرض هذه الترجمة بما هى تجارب حيــاة

فانا لنلفت أصحاب العلم الدينى الى هذا الاشفاق الدقيق ليخففوا من غلوائهم حين يعرضون للحكم على الأعمال والأشياء ، فيأخذون هذا الحكم من قول مقلد متأخر ، ويجأرون فى جلبة صاخبة ، بأن هذا هو الدين وهو حكم الله، ويهددون المخالف له بالويل والثبور ، وفظائع الأمور ، فيحجرون الواسع ، ويثيرون السخط ، ويبدون التخلف ، ويسيئون الى الدين كما يسيئون الى أنفسهم اساءة أقبح وأخسر .. فهل لهم أن يستمعوا الى قولة « مالك » هذه ، ويحسنوا الانتفاع بها ، ولا يضخموا القول ، ويقصروا الدين على قول من أقوال ، ورأى من آراء ، غيره أوسع منه وأصلح .. والله يهدى الى سواء السبيل .



ثم ننظر الى عبارات « مالك » فى الحكم وصيغه عنده ، فنرى عبارات له فى الحكم ليست تلك التى سمعناها فى اجمال الأحكام السابق ، فمن عباراته فى الحكم مثلا « لا ينبغى » ولا يعرف الاصطلاح المستقر أخيرا فى الفقه اليوم حكما بما لا ينبغى ، ومثل ذلك أيضا حكمه بعبارة « لا يصلح » و « لا خير فيه » و « لا بأس » و « لا أرى به بأسا »

وهى كلها شواهد على تدرج ظهور المصطلحات الفقهية تدرجا يحيى ألفاظا ويميت ألفاظا ..

وقد نستطيع أن نلمح من مثل هذه العبارات الشعور النفسى الذى سبقت الاشارة اليه ؛ وهو التحرج من الحكم بالحل والحرمة فى عبارة جاهرة . على أن شيئا من ملاحظة الحس القرآنى يلفتنا الى ما قيل من انه قد اطرد فى كلام الله ورسوله استعمال « لا ينبغى » فى المحظور شرعا أو قدرا ، وفى المستحيل الممتنع ، كقوله تعالى : « وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا » وقوله : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » وقوله : « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم » كما وردت فى الحديث . ولو أنى لا أطمئن لغويا الى الاستشهاد بلفظ الحديث لرواية جمهرته بالمعنى ، وفى استعمال القرآن كفاية للّفت الى الأصل الذى منه جرت كلمة « لا ينبغى » على لسان « مالك » وان لم يقدر لها البقاء فى الميدان الفقهى أخيرا .

ومما يلحظ فى هذا المقام آن « مالكا » حين يستعمل الألفاظ التى بقيت فى آلسنة الفقهاء كالحرام والمكروه لا يستعملها فى مثل استعمالهم الأخير ، فحكم الكراهية

عنده يمضى الى المحرم ثم الى أقصى المحرم ، فالأمر المكروه يصل به الى أنه الربا بعينه لا شك فيه ؛ واستعمال القرآن كذلك أقوى كثيرا مما يجرى عليه الاصطلاح الأخير فى الكراهة فانه يقول : «كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها» بعد قوله ، ولا تقتلوا أولادكم .. ولا تقربوا الزنا .. ولا تقتلوا النفس .. ولا تقربوا مال اليتيم .. ولا تقف ما ليس لك به علم .. ولا تمش فى الأرض مرحا ..

ولعل قوة معنى الكراهية فى استعمال القرآن قد مهدت لاستعمالهم المكروه حين تورعوا عن لفظ التحريم ؛ وهو ما يلفتنا الى ملاحظة لابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين — ١ : ٤٤ ، ٤٨ — ينتبه فيها الى أن كثيرا من المتأخرين من أتباع الأئمة ، قد غلطوا على أئمتهم ، بسبب تورع الأئمة عن اطلاق لفظ التحريم ، ووضعهم لفظ الكراهة مكانه ، فنفى هؤلاء الأتباع المتأخرون التحريم عما أطلق عليه الأئمة لفظ الكراهة ، ثم سهل عليهم لفظ الكراهة ، وخفت مئونته عليهم ، فحمله بعضهم على التنزيه ، وتجاوز به آخرون الى كراهة ترك الأولى ، وهذا كثير جدا فى تصرفاتهم ، فحصل بسببه غلط عظيم على الشريعة وعلى الأئمة .

واستعمال الكراهة هذا الاستعمال قد كان فى العراق كما كان فى الحجاز ، من حكم أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد بالكراهية وهم يريدون التحريم . وابن حنبل قد أحصى له عدة أمثلة من استعمال المكروه ، واستعمال لفظ أكرهه فيما هو محرم ؛ واختلاف البيئة وتغير الزمن ، وتطور الاصطلاحات يرينا كيف يستعمل الشافعى مثلا الكراهة فيما دون التحريم ، فيقول فى الشطرنج : أكرهه ، ولا يتبين لى تحريمه .

وعلى ذكر تجارب الحياة تلفتنا الظواهر من التطور ، والتفاوت ، الى أهمية الطريقة التاريخية فى درس المسائل المفردة والموضوعات الخاصة من المادة الواحدة ، ليتبين تدرجها ، واختلافها باختلاف الزمان والمكان ، فلا نأخذ مسألة فى صورتها الواحدة المتأخرة ، أو المتقدمة ، أو المتوسطة لأن هذه الصورة ليست كل ما قيل فى المسألة ، ولا هى التى يؤرخ بها موضوع .

ومن هنا تتبين أهمية التراث الثقافى ، واننا فى حاجة ماسة شديدة ، الى كل ما يوجد منه ، فى أى عصر ، لا للتاريخ والذكرى والمعانى الاجتماعية فى معرفة النفس ، بل للحقيقة والفهم الصحيح لما فى أيدينا من العلوم والفنون

التى لا يكتمل فهمها الا باكتمال الصور التى مرت بها فى مراحل حياتها المختلفة ..

وننتقل من الأحكام الى :

الأعمــال : وكيف تولاها « مالك » بالأحكام ، والى أى مدى يتناولها بالتفصيل والتوسع الذى ألف فى الدقة التفصيلية المعروفة فى الذى بأيدى الناس من الفقه اليوم ؟ والذى يبدو من آثاره فى ذلك أنه لا يتبسط فى شىء من هذه التفصيلات التى تصل أحيــانا الى درجة الاسراف المجهد ، فى الفقه الأخير ، وقد اخترت للمقابلة عملا من الأعمال الفطرية ، التى لا تستغنى عنها الحياة فى عصر من عصورها ، والتى لا تدع الحياة عندها فرصة للتوســع والتزيد ، تلك هى مسألة غسل الميت ، فالموت خاتمة كل حى ، وعنده ينشغل الناس عن التفصيلات المتأنية ، التى قد يعنون بها فى أعمال تتم على هدأة وفى سعة من الوقت غير هذا الموت .. وعن هذا العمل يتحدث « مالك » فى كتاب الجنائز من الموطأ ، فيذكر ما فعل الرسول عليه السلام ، حين ماتت ابنته ، ويذكر غسل أبى بكر حين توفى ، وأن أسماء بنت عميس ، وقد غسلته سألت : هل على غسل ؟ فقيل لها : لا .. ويذكر حكم المرأة تموت وليس معها نساء ولاذومحرم ،

ولا زوج فتيمم : والرجل يموت ليس معه الا نساء فييممنه أيضا ، ثم قال بعد ذلك : وليس لغسل الميت عندنا شيء موصوف ، وليس لذلك صفة معلومة ، ولكن يغسل فيطهر ..

واذا كان هذا كل ما قال « مالك » في بيان أحكام هذا العمل الذي قلنا انه متكرر لا ينتهي ، ضيّق الوقت لا يتسع ، فان الفقه المالكي نفسه بعد هذا يعرض لغسل الميت بتفصيلات تستغرق بضع صفحات في كتاب غير متوسع ، فغسل الميت كغسل الجنابة : الاجزاء كالاجزاء ، والكمال كالكمال : وفي بيان المالكية لغسل الجنابة الذي يماثله الغسل الآخر تراهم يقررون له فرائض خمسة يعدونها ، ويبينونها ، ثم ان له سننا خمسا كذلك ، وله بعد ذلك فضائل مستحبات ، وكيفيته التفصيلية يتولونها بالبيان الأدق الأوفى في كل حركة وسكون ، حتى ليبلغ قدر ما كتب في الوصف وحده قدر ما كتبه « مالك » في الموضوع كله .

فهل نتنفع بتجارب الحياة فنحاول أن نرد شيئا من هذا الاسراف الى مثل قول «مالك» في وصف هذا العمل : ليس لذلك صفة معلومة ، ولكن يغسل فيطهر ، فنوفر الوقت ، والجهد ، وضجر الطلاب ، وما الى ذلك من خسائر ؟

ان فى هذه المقابلة لصورة" لتغير الحياة ، واختلاف البيئات ، وتأثير ذلك فى كل شيء من نشاط وعلم ؛ وفى المقابلة بيان للاتجاه العملى الواضح فى فقه الامام ؛ وفرق ما بينه وبين غيره مما تغير اليه المذهب المالكى تفكيرا ، وتناولا ، وتصنيفا ..

وننتقل الى :

الأدلة : وهذه الأدلة من الأهمية فى الفقه بمكان ، لأنها عندهم هى الأمر المميز للفقيه عن غير الفقيه ، وهى عندنا مجال للتقدير العقلى ، وطابع التفكير الفقهى ، وأنواع تأثره وما الى ذلك .

وترتيب هـذه الأدلة ذلك الترتيب الأصـولى الذى يكفله علم أصـول الفقـه ، ترتيب قد تأخرت صـورته العلمية المتميزة عن عصر «مالك» كله ، لأنه بدأ بدأه الأول ، على يد الشافعى ، برسالته المعروفة .. ومهما يكن القول فى أن العلوم لا تظهر بغتة ، ولكن تهيىء لظهورها بوادر ومقدمات فان هذه البوادر لم تكن مرئية أو لافتة فى عصر « مالك » ولا فى بيئة الحجاز ، وان كان هـذا الواقع مما لا يحترمه بعض الكاتبين من المالكية ، ولا سيما عن « مالك » نفسه ، على ما سنذكر منه شيئا .

والأدلة بعد استقرار التفكير الأصولى وتفاعله مع جديد ما طرأ على الثقافة الاسلامية من ثقافات أخرى تعد أمهاتها أربعة أدلة هى :

الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس .. وحول تلك الأمهات الكبرى قامت أبحاث لغوية أدبية .. ونقلية منهجية .. وعقلية فلسفية ، واجتماعية عملية .. بلغت درجة من الرقى ربما لا تكون قد تهيأت لغيرها ، من نواحى النشاط العقلي والنقلى فى الثقافة الاسلامية .

فماذا كان الأمر فى استدلال « مالك » لعهده ، حتى يقرن الى الصورة الأخيرة التى أشرنا اليها ؟ اننا نجد فى الموطأ الذى هو أصل الفقه المالكى تفاريق عن الأدلة ، ومسلك « مالك » فى الاستدلال .. ولمالك فى ذلك أقوال منها قوله : « فأن فى كتابى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول الصحابة ، وقول التابعين ، ورأيا هو اجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم » . كما يجيب عن أسئلة حول استعمالأته الاستدلالية فى الموطأ فيكشف عن مسلكه فى الاستدلال ويحدده ، فقد سئل : ما قولك (فى الموطأ) : الأمر المجمع عليه ، والأمر عندنا ، وببلدنا ، وأدركت أهل العلم ، وسمعت بعض أهل العلم ؟.. فأجاب قائلا : « أما أكثر

ما فى الكتاب برأيى فلعمرى ما هو برأى ، ولكن سماع من غير واحد ، من أهل العلم والفضل ، والأئمة المقتدى بهم ، الذين أخذت عنهم ؛ وهم الذين كانوا يتقون الله ، فكثر على ذلك فقلت : رأيى ، وذلك رأيى ، اذ كان رأيهم مثل رأى الصحابة ، أدركوهم عليه ، وأدركتهم أنا على ذلك ؛ فهذا وراثة توارثوها قرنا عن قرن الى زماننا . وما كان رأيا فهو رأى جماعة ، ممن تقدم من الأئمة .. وما كان فيه الأمر المجتمع عليه ، من قول أهل الفقه والعلم ، لم يختلفوا فيه .

« وما قلت : الأمر عندنا ، فهو ما عمل به الناس عندنا ، وجرت به الأحكام ، وعرفه الجاهل والعالم .. وكذا ما قلت فيه : ببلدنا . وما قلت فيه : بعض أهل العلم ، فهو شىء استحسنته من قول العلماء ؛ وأما مالم أسمعه منهم فاجتهدت ونظرت ، على مذهب من لقيته ، حتى وقع ذلك موقع الحق ، أو قريبا منه ، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ، وان لم أسمع ذلك بعينه . فنسبت الرأى الى بعد الاجتهاد ، ومع السنة ، كما مضى عليه أهل العلم المقتدى بهم ؛ والأمر المعمول به عندنا ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأئمة الراشدين ، مع من لقيت ، فذلك رأيهم ، ما خرجت الى غيره » .

ذلكم هو بيان « مالك » لمصادر أحكامه ، ومواضع استمدادها ، ووصفه لطريقته فى الرجوع اليها ، وهو بيان يكشف لنا عن بقية ما دلت عليه عباراته السابقة فى الاشفاق من الحكم ، وانه كاشراف الموت على المسئول ، وتورعه من التعبير بالحل والحرمة ، وايثارة استعمال لفظ الكراهة ، وهى معان تشم من بيانه هذا الأخير والجملة الخاتمة له وهى قوله : « فذلك رأيهم ما خرجت الى غيره » ولا غرابة أن يكون هذا كله وما يشبهه من أقواله وأعمـــاله دالا على ميله للاتباع ، وبعده عن الابتداع بأى معنى من معانيه ، وذلك هو الذى يجعلنا نرى فى ترجمة قديمة فصلا عنوانه : « باب فى اتباعه السنن ، وكراهته المحدثات ، وبعض ما روى عنه فى عقائد السنة والكلام فى أهل الأهواء » .. واذا أحس الأقدمون من « مالك » بهذه المعانى فنحن بلفتهم هــذا أكثر انتباها الى ما له من عبارات فى هذا الشأن ، مثل قوله دائما « ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » ونذكر ما تقرر من كراهة السؤال ، والبحث ، والمناظرة ، وكل أولئــك شاهد بنزعة اتباعية مسرفة ليس من البعيد أن نقول أنها هى التى يلمحها «أبو اسحق الشاطبى» صاحب كتاب الاعتصام حين يقول عن « مالك » : « .. بل هو الذى رضى لنفسه

فى فقهه بالاتباع ، بحيث يخيل لبعضهم أنه مقلد لمن قبله » .
والوصف بالتقليد ، ولو كان تخيلا ، مما يستكثر اطلاقه على امام مذهب ، أى صاحب مدرسة .. ولكن فى الأمر شيئا يستحق الاهتمام قبل القول فى وصف امام مذهب بالتقليد ؛ وذلك هو : ليس المراد هنا ما حمله لفظ التقليد فى العصور المتأخرة من ايحاء بالجمود ، وتعطيل التفكير ، وعدم طلب الدليل ، وأشباه ذلك من ظلام قاتم للفظ والتقليد .. بل هو الاتباع المتئد ، المقفى على آثار السلف من الصحابة ، وصاحب الدعوة ، فهو المراد من وصف «مالك» بالتقليد ، لأنه مطمئن الى أنه بيئته الخاصة فى المدينة قد شهدوا آخر الفعلين ، كما قال ، وتكرر أمامهم الفعل ، والقول والتقرير ، فهو بذلك متبع غير مبتدع ، وله فى بيئته تلك من التراث رصيد كاف فى تقديره ، لا يحتاج معه الى شىء آخر ، وهو بحرمة هذا البلد ، وحرمة صاحب الرسالة الثاوى فيه ، يشعر بأن فى الذى خلف فيها حاجة الناس وكفايتهم .. فوحى البيئة وروحها تحث على هـذا الاتباع الذى قد يسمى تقليدا ، فلا يكون ذلك التقليد الجامد المتخلف .

وهذا الذى سـمعنا من الأتباع الذى قرّب القـول بالتقليد ، يتفق مـع ما سبق فى شخصيته العلميـة من

الاشراقية ، التى تكره تقليب الرأى ، وتبادل المناقشة ، والبعد عن الجدل فى العلم .

وكل أولئك يدل من قرب على طريقه فى الاستدلال الفقهى .. ففيما يخص الأصل الأول وهو القرآن نراه فى الموطأ قد يستدل فيوفى النقل ، ويسوق الآية أو الآيات ويفسرها ويبين وجه دلالتها ، فى قرب وايجاز ..

وحينا لا يحتج بالقرآن فيما استوفى فيه القرآن القول ، كما فى كتاب الجهاد مثلا فانه ذكر الكثير الطويل عن الأنفال ، ولم يذكر شيئا من القرآن ، مع أن فى القرآن سورة خاصة بالأنفال ، والمناسبة جد قوية لايراد ما فى القرآن الكريم عن المسألة ؛ فهل تجعلنا مثل هذه الظاهرة نقول : انه فى موطئه — على الأقل — لا يعمد أولا الى الاستدلال من القرآن وبالقرآن ؟ وهل نصل بين هذا الصنيع منه ، وبين ظاهرة فى تاريخ التشريع ، يلخصها بعض المستشرقين ، وهى ان الفقه يتدرج بتدرج تفسير القرآن ، وأنه حين كان التفسير أثريا كان همّ المفسر أن يبحث عن آثار تعين معانى الآيات ، وكذلك كان هم الفقيه أن يبحث عن آثار وسنة تبين ما فى القرآن ؛ لا أن يقف المفسر أو الفقيه أمام نص القرآن ، يستوضحه ويستلهمه ، مهتديا بثقافته اللغـوية والأدبية

والدينية ، معملا عقله فى هـذا الاستيضاح والاستلهام .
و « مالك » كان يعيش ببيئته الحجازية ، لهذا العهد ، فى مثل ذلك الدور ، من التفسير الأثرى ، فكان همه أن يجمع حول الموضوع مرويات ومسموعات تعين على فهم ما ورد فى القرآن ، خاصا بالمسألة ، وتبين معنى ما جاء فيه عنها ؟ ولا بعد فى هذا الملحظ ، لأن صنيع « مالك » فى الاستدلال بالقرآن على ما وصفناه يؤيد هذه الملاحظة ؛ وهو صنيع يختلف اختلافا واضحا ، عما انتهى اليه الأمر بعد ذلك حين اتسع التفسير بالرأى ، وأعمل المجتهد عقله ، فى استخراج الحكم من الآية نفسها ، فكان الاستدلال بالقرآن يقدم على غيره من الأدلة .. ولم يكن يترك أبدا حيثما أمكن .

وملحظ آخر على استدلال الامام بالقرآن ، اذا استدل ، وهو أنه لا يذكر العبـارات الاصطلاحية الأخـيرة فى الاستدلال ، بل يذكر عبارات مما يؤلف وروده فى الحديث أو قول الصحابى وما أشبه ، كقوله : ان أحسن ما سمع فى كذا أنه كيت وكيت لأن الله تبارك وتعالى قال .. فالتعبير بأحسن ما سمع ، وأحسن ما سمعت، وما أشبه تعبير مستعمل فيما لا قرآن فيه .. وأكثر من هذا فى تعبيره ، عند الاستدلال بالقرآن أن يستعمل عبارات غير واضحة الدلالة على أن

المسألة منصوصة وفيها قرآن كقوله فى كتاب الفرائض : « الأمر المجتمع عليه عندنا ، والذى أدركت عليه أهل العلم ببلدنا ، فى فرائض المواريث أن ميراث الولد من والدهم ، أو والدتهم انه اذا توفى الأب والأم ، وتركا ولدا ، رجالا ونساء ، فللذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف » وليس هذا الا نص الآية القرآنية نفسها ، ومع ذلك يصدر الباب كما رأينا بقوله : الأمر المجتمع عليه عندنا .. الخ .. كما يستعمل التعبير نفسه فيما لا يستدل له بصريح القرآن ونصه ، كميراث ابن الأخ للأم ، والجد للأم .. الخ .

وبالرجوع الى النص الذى أوردناه عن طريقة استدلاله فى الموطأ — ص ٣٥٣ — لمحاولة تحديد عبارته ، والتفريق مثلا بين قوله : « الأمر المجتمع عليه » وقوله « الأمر عندنا » لا نجد الفرق يظهر ويتحدد ، فقد يكون قوله : الأمر عندنا أقوى دلالة من قوله : الأمر المجتمع عليه ، كما يتبين ذلك من مراجعة مواضع متفرقة فى الموطأ ، أوردت منها الأمثلة الكافية ، فى الترجمة المحررة — ص ٧٠٣ — ولذلك لا يتيسر تمييز الفروق بين هذه العبارات ، وعدها اصطلاحات محدودة ، كالاصطلاحات التى استقرت بعد

حينما وزنت العبارات وزنا شديد الحساسية .

واذا ما كان الأمر على ما نرى فليس من السهل التسليم بما قاله القاضى « عياض » فى وصف استدلال الامام بأنه كان يقدم كتاب الله عز وجل ، على ترتيب أدلته فى الوضوح ، من تقديم نصوصه ، ثم ظواهره ، ثم مفهوماته ؛ أو قوله فى هذا الاستدلال أيضا من أنك تجد « مالكا » رحمه الله ناهجا فى هذه الأصول مناهجها ، مرتبا لها مدارجها ومراتبها ، مقدما كتاب الله عز وجل على الآثار .. الخ .. فقد رأينا استدلاله بالقرآن ، على ما وصفنا ، لا يؤيد ذلك الذى يصفه به « عياض » ؛ كما أن هذه الاصطلاحات التى يعدها « عياض » لم تكن طبيعة الحياة العلمية ، فى ذلك العهد تحتملها على ما هو معروف من تاريخ أصول الفقه .

* * *

ونجاوز هذا الى استدلاله بالدليل الثانى وهو :

السنة : فهو فى الموطأ يستعملها بمعنى قريب جد القرب ، من معناها اللغوى ، أى الخطة والطريقة .. وقد يريد بها طريقة أهل العلم وخطتهم .. وحينما يستعمل السنة مريدا بها المأثور عن الرسول عليه السلام يستعمل معها للتقوية والترجيح عبارات لم يبق لها أثر فى الاصطلاح

الفقهى ، بعد تقدم الزمن ، كأن يقول : قال « مالك » وقول « على » و « ابن عباس » أحب ما سمعت فى ذلك . وهو كقوله : أحسن ما سمعت فى هذه الآية كذا ، من التفسير الأثرى لها .. وقد يقول : أعجب ما سمعت .. فالأحسن والأحب فى المسموع والأعجب فى المحكوم به مما لم يبق له وجود بعد ، فى استعمال الفقهاء وتعبيرهم .

وهكذا يتبين أن استعماله للفظ السنة ليس استعمالا اصطلاحيا، وترجيحه بما سمعنا من صنيع والأحسنية والأحبية والأعجبية ، لم يسر ، ولم يشع فى حياة الفقه وأصوله .. وهو من صنف استعماله صيغ « ما لا خير فيه » و « ما لا يصلح » فى صيغ الحكم .. وكلها مظاهر متكاملة فى الدلالة على عصر له طابع خاص ، ومستوى معين ، وهى مادة لدراسة التطور الاصطلاحى على الطريقة التاريخية التى أشرنا اليها .

هذا ما تدل عليه الشواهد من كتابه ، لكن الأقدمين يقولون عن استدلاله بالسنة مثل الذى قالوه عن استدلاله بالكتاب ، فهذا « عياض » نفسه يقول أيضا عن هذا الاستدلال ما خلاصته :

انه تناول السنة على ترتيب متواترها ، ومشهورها ،

وآحادها ، ثم ترتيب نصوصها وظواهرها ومفهومها .. الخ .
وهو ما نشعر بحق أنه أكثر من أن تحتمله طبيعة الحياة اذ ذاك ، فى هذا العصر المبكر ، وفى تلك البيئة التى عرفنا مقوماتها العقلية والعلمية ، وبعدها عن عوامل كثيرة كانت تدفع الحياة العقلية دفعا قويا هيأ للتطور الذى نضجت فيه تلك المصطلحات وتأثرت بالعناصر الفكرية الجديدة .



وندع الأصل الثانى لنتحدث عن الدليل الثالث وهو :

الاجمـاع : وهو فيما استقر عليه تعريفه أخيرا : اتفاق جملة أهل الحل والعقد ، من أمة محمد فى عصر من الأعصار ، على حكم واقعة من الوقائع ..

وفيما ورد من عبارته وصفا لصنيعه فى الموطأ نجده يذكر « الأمر المجتمع عليه » و « الذى لا خلاف فيه » كما يذكر هذا الاجماع بلفظه ، حين يعد ما فى كتابه رأيا هو اجماع أهل المدينة ، لم يخرج عنهم .. فالذى سماه اجماعا بلفظه هو هذا الاجماع الخاص ، أى اجماع أهل المدينة ، على ما تقدم من قول فيه ، عند وصف الحياة حول « مالك » .
وهو غير هذا الأصل العام المصطلح عليه ..

وأما الأمر المجتمع عليه ، والذى لا خلاف فيه ، فقد

رأيناه يذكره عند الاستدلال بالقرآن ، وبهذا لا يسهل عده من الاجماع الذى استقر عليه الاصطلاح أخيرا — فهل الاجماع بمعناه الأخير لم يكن معروفا فى عهد مالك ؟ .. نلتمس الاجابة عن هذا السؤال عند « عياض » الذى يثبت « لمالك » ما لا تتأكد أن عصره قد عرفه ، فاذا به يقول ضمن ما قاله عداً لأنواع الأدلة عند مالك :

« وجدت « مالكا » رحمه الله ناهجا فى هذه الأصول مناهج ، مرتبا لها مدارجها ومراتبها ، ومقدما كتاب الله ، ومرتبا له على الآثار ، ثم مقدما لها على القياس والاعتبار ، تاركا منها لما لم يتحمله عن الثقات ، العارفين بما يحملون ، وما وجد الجمهور والجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه .. الخ » فهو كما نرى ، يذكر الكتاب والآثار والقياس ، بعد الآثار ، ولا يذكر الاجماع بين أدلة صاحبه ، بعدما وجدنا « مالكا » فى كتابه الفقهى « الموطأ » يذكر من معانى الاجماع ما ليس المتعارف منه عند المصطلحين .

وقد يكون من الاجابة عن هذا السؤال ما يشير اليه بعض المستشرقين ، من أن هذا الاجماع انما ظهر فى الاسلام فى مجرى تطوره فقط ، أى ان الاجماع مبدأ يظهر فى الاسلام بعد ظهـور الانقسامات ، وبعد مرحلة من التطور

الفقهى ، الذى توجد به الحاجة الى الاجمـاع .. وعـلى أساس هذه النظرة يكون الاجماع مما لا تقوى حاجة عصر الامام على وجوده ، وبهذا لا نجد بعدا فيما يشعر به صنيع عياض من عدم ذكر الاجماع بين أدلة مالك وأصوله .

ولا يكون هذا غريبا لأن جو الأصوليين أنفسهم فى الاجماع له لفته الواضح الى مثل هذه النظرة الى الاجماع ، اذ ترى منهم من يخصه باجماع الصحابة ، ويقصره عليه ، ومنهم من قال : انه لا يتصور وقوعه ، والامام « أحمد بن حنبل » — فى أحد قوليه — ينكر امكان وقوعه ، فليس مما يستبعد أن يكون هذا العصر المبكر ، فى حياة « مالك » لا تجد به الحاجة الواضحة الى الاحتجاج بهذا الاجماع ، فلم يظهر هذا الاصطلاح اذ ذاك ولم يستقر ، ثم على الزمن ، وانتشار الانقسام الفقهى بين المذاهب ، قامت الحاجة الى هذا الاجماع الذى يوفق فى الانقسامات والخلافات .. على رأى من يقول بهذا الملحظ العملى الزمنى .. والأمر فى جملته مما ينبغى أن يقف عنده بعض الوقت المؤرخ الجـدى للتشريع .

* * *

وننتقل بعد ذلك الى الأصل الرابع وهو :

القيـــاس : وهو الرأى فى معناه الأخير ، على ما سبق من بيان تطوره — وترجع الى النص الذى شرح به « مالك » خطته الفقهية قريبا ، فتسمعه يقول عن الرأى مرة : انه اجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم .. ويقول فى مرة أخرى : أما أكثر ما فى الكتاب برأيى فلعمرى ما هو رأى ، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل ، والأئمة المقتدى بهم ، الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله ، فكثر على فقلت رأيى ، وذلك رأيى اذا كان رأيهم مثل رأى الصحابة ، أدركوهم عليه ، وأدركتهم أنا على ذلك ، فهذا وراثة توارثوها قرنا بعد قرن الى زماننا .

وكل هذا — كما ترى — كلام ربما ينتهى مع تفصيله المسهب الى ما أجملته العبارة الأولى : من أنه رأى هو اجماع أهل المدينة ، لم أخرج عنهم ؛ ولو قد مضيت معه فى بقية العبارة السابقة من وصف منهجه لسمعته يقول عن الرأى بلفظه : « وما كان رأيا فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة » وهو تصريح جهير بأن هذا الذى يسمى رأيا ليس الا نقلا ، عن جماعة من الأشياخ ، يسمى المنقول عنهم رأيا لهم .

وأين يقع ما يسميه « مالك » « رأيا لأشياخه » مما فهمه

من معه فى عصره ، من أهل العراق آنذاك وما فهمه من الرأى من بعده ؟ ثم ما نفهم نحن من الرأى اليوم ؟

وتتابع المضى معه فى بقية النص فنقرأ فيه كلاما آخر قد يكون ايضاحا لمعنى فى الرأى اذ يقول: « وأما مالم أسمعه منهم فاجتهدت ونظرت ، على مذهب من لقيته ، حتى وقع ذلك موقع الحق ، أو قريبا منه ، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ؛ وان لم أسمع ذلك بعينه فنسبت الرأى الى ، بعد الاجتهاد ، مع السنة ، وما مضى عليه أهل العلم المقتدى بهم ، والأمر المعمول به عندنا ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأئمة الراشدين ، مع من لقيت ، فذلك رأيهم ما خرجت عنه الى غيرهم » .

فهو كما ترى : يحكم فيما لم يسمعه منهم ؛ ويجتهد وينظر ؛ ثم اذا هو يقول ، مع جدة الموضـــوع ، ومع الاجتهاد ، ومع النظر ، انه مع كل هذا لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ، والأمر المعمول به ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان ذلك رأيهم ، ما خرج عنه الى غيرهم ، أو ما خرج عنهم الى غيرهم .. فالأمر منته أخيرا الى ما جهر به قبل من أن : رأيه هو اجماع أهل المدينة ؛ فأين الاجتهاد ؟ وأين النظـــر ؟ والى أى شىء يصـــل فى حكم

مالم يسمعه منهم ؟ أهو تطبيق أصل عام على فرع أو فروع لاعطاء الفروع حكم الأصل ؟ أم هو تخريج حادثة لم ترد بذاتها ، ولم يسمع حكم لهم فيها بعينها ، وان سمع ذلك فى مثيل مشابه لها تماما،لم يختلف أمرهما فى شيء الا الملابسات التى لا يخرج بها الأمر الى حد أن يكون قياسا تعتبر فيه الأشباه والأمثال ، بل كل ما فيه أنه فهم تطبيقى توسعى لا أكثر ؟ أم هو قياس على أصل بعد فهم المعنى المشترك بينهما ، فهو عمل حقيق باسم القياس الاصطلاحى ، والرأى الفقهى ؟ تلك هى الاحتمالات الممكنة فى عبارته السابقة ..

وأجرأ هذه الاحتمالات هو الأخير منها ؛ وعبارة الشيخ فى هذا ان أدته أو أفهمته بصعوبة وتكلف ، فانها تدل على ان « مالكا » لا يمضى فى ذلك بعيدا ؛ بل يلتزم الأمـر المعمول به ، والسنة الماضية ، ولا يخرج عنها الى غيرها ، ولا يقول الا برأى ، تخرجه آثار القوم ، ويعطيه المنقول منهم ، فهو اجتهاد — ان كان — متحفظ ، وهو ان جعلته رأيا ، أو قياسا ، فانه ليس الا قياسا ورأيا فى مرحلة مبتدئة ، أو قريبة من المبتدئة ، الى حد أنه لا يسهل لك القول بأنه : القياس والاعتبار ، الذى يستحق هذا الاسم ، وينزله صاحبه فى الاستدلال منزلة تالية للآثار ، ويراه دليلا آخر ، وأصلا

يجيء بعدها ، فى مراتب الأدلة .. فاذا فسرت عبارة بعبارة ، وقيدت لاحقا بسبب ، فأنت أكثر تهيبا من أن تسمى هذا رأيا أو قياسا ، وأنت قائل مع صاحبه ، ما قال هو بلفظه : « ولعمرى ما هو برأى » .

* * *

وندع شرح طريقته فى عمله الى عمله نفسه ، فى كتابه « الموطأ » فاذا هو يستعمل الرأى بمعنى الفهم ، وهو أول معانيه فى سلم التطور اللغوى ، والأمثلة على ذلك متوافرة ؛ وهو — فيما يظهر من صنيعه بجلاء — لم يصل الى الرأى الذى هو القياس والاعتبار .. أو ما هو فى شيء من ذلك .

وقد استعمل فى الموطأ أيضا الرأى بمعنى القول والحكم فى غير الفقه وأحكامه ، وليس هذا مما نحن فيه ، بل ان استعمال لفظ الرأى فيه انما ورد على لسان « مالك » مشاكلة لما يرويه من قول الصحابة .

وحين تجد الرأى بمعنى الحكم فى مسألة فقهية بالموطأ تجده حكما فى تعبديات لا يجرى فى مثلها قياس ، وليست مجالا له عند القياسين : ثم هو مع هذا ليس الا شيئا من الفهم والتقدير لما ورد لا أكثر .

وهكذا ينتهى الأمر الى أن الرأى حتى آخر عصر مالك فى الحجاز ليس هو الذى صار اليه الرأى حين كان قياسا بالمعنى الاصطلاحى المتداول ، بل هو شىء يختلف عن ذلك تماما ، وهو معنى الرأى فى عصر صاحبنا — كما كررنا — وهو لا يسمى قياسا الا على ضرب من التجاوز والتساهل .. الذى لا يسهل ارتكابه لتسمية عمل الشيخ شيئا من منطق، أو قياسا استعمل فيه الرأى ..

ومع هذه الحال ، لا يكون من الصواب أن ندع قول « مالك » فى شرح منهجه ، ثم ندع فعله فى تطبيق منهجه نتقول بالاستنتاج ، والظن المظنون : أن القياس أمر لا بد منه لمثل «مالك»!!.. أو نقول: ان القياس على النحو الأصولى بما هو مشتق من أمر فطرى تقره بدائه العقول !! لا نقول ذلك لأنه ترك للنص الصريح ، والعمل الشاهد المحفوظ ، الى احتمالات لا تقوم على شىء ؛ كما تعلق بذلك بعض المعاصرين .

* * *

ومع هذا الذى تبين من معرفة فقه مالك للرأى والقياس تسمع قول مرجحيه على غيره من المذاهب ، فاذا بك تقرأ مثل قولهم : انه يقدم الآثار على القياس والاعتبار فتحسب

أن هناك شيئا يسمى قياسا ، مع أنه ليس الا الذى رأيت فى الفهم ، وهو دور من استعمال القياس فى القرن الأول .. لا يجاوز معنى الفهم العادى ..

* * *

وندع هذه الأصول الأولى الى ما بعدها من أصـول ثانوية مثل :

الاستحسان : وينقل عن « مالك » فيه قوله : « تسعة أعشار العلم الاستحسان » .. وهى عبـارة تشعر أن له فى ذلك مجالا أى مجال ، فتتقدم لترى ماذا فى الأمر من قول بالاستحسان ، فاذا الآمدى فى الاحكام يقول : وقد اختلف فيه — أى فى الاستحسان — فقال به أصحاب «أبى حنيفة» و « أحمد بن حنبـل » وأنكره الباقون ، حتى نقل عن « الشافعى » أنه قال : « من استحسن فقد شرع » . وهكذا لا يعد « مالك » فى هذا المقام من القائلين بالاستحسان ، بل تستطيع أن تفهم من النص انه يعـده ممن لا يقول بالاستحسان .

وترجع الى أصولى مالكى ، قد يكون بحكم مذهبه أحرص على بيان منهجه ، فاذا به يقول : الاستحسان قال به الحنفية والحنابلة ، وأنكره غيرهم ، حتى قال الشافعى : « من استحسن فقد شرع » .

وحين تسمع شرح المسألة تجد ما يلى .

« والحق أنه لا يتحقق استحسان مختلف فيه لأنهم ذكروا فى تفسيره أمورا لا تصلح محلا للخلاف ، لأن بعضها مقبول اتفاقا ، وبعض مردّد بين ما هو مقبول اتفاقا وبين ما هو مردود اتفاقا ، ويلى ذلك من الشرح ما يوضح كيف أنه لا يكون دليل خاص اسمه الاستحسان لأنه : اذا أظهر الخصم استحسانا يصلح محلا للنزاع قلنا له فى نفيه : انه لا دليل يدل عليه ، فوجب نفيه ، لما علمت أن عدم الدليل فى نفى الأحكام الشرعية مدرك شرعى » .. وبجملة هذا القول تشعر بأن مالكا والمالكية لا يقولون بدليل اسمه « الاستحسان » ، بل يقولون كما سمعنا لمن يعده دليلا : ان بعض ما نعده استحسانا مقبول اتفاقا تحت اسم آخر من الأدلة كالاجماع ، أو السنة ، أو القياس . وبعض ما نعده استحسانا مردود قطعا ، لأنه شىء لم تثبت حجيته ؛ وان أظهرت شيئا من الاستحسان يصلح محلا للنزاع نفيناه بأنه لا دليل عليه ، وعدم الدليل فى نفى الأحكام الشرعية مدرك شرعى .

ومن ذلك تشعر بأن « مالكا » والمالكية لا يقولون بالاستحسان .. لكنك تجد ما قدمت صدر هذا الكلام من

قول مالك : تسعة أعشار العلم الاستحسان .. عبارة ينقلها عنه «ابن حزم» ، كما تجد الشاطبى المالكى أيضا يقول : ان الاستحسان يراه معتبرا فى الأحكام «مالك» « وأبو حنيفة » بخلاف الشافعى فانه منكر له جدا ، حتى قال من استحسن .. الخ . ويزيد ذلك بيانا بايضاح الاستحسان فى مذهب مالك ، وأنه أخذ بمصلحة جزئيه فى مقابلة دليل كلى .. ويقرر « الشاطبى » أن مالكا وأصحابه قد بنوا على هذا الاستحسان ، وكذلك يقول ابن العربى الفقيه المالكى أيضا : الاستحسان عندنا وعند الحنفية هو : العمل بأقوى الدليلين .

وهى بلبلة لا تعرف فى سهولة كيف تتقيها ، لكن فى القدامى أنفسهم من تعرض لتفسير هذا الموقف وبيان سببه بأنه : لما اختلفت العبارات اختلفت العبارات فى تفسير الاستحسان .. وكثر استعماله فى مقابلة القياس ... على الاطلاق ، كان انكار العمل به عند الجهل بمعناه مستحسنا حتى يتبين المراد منه .. وبعد ما استقرت الآراء على أنه : اسم لدليل متفق عليه : نصا كان ، أو اجماعا ، أو قياسا خفيا ، اذا وقع فى مقابلة قياس تسبق اليه الأفهام .. فهو حجة عند الجميع ، من غير تصور خلاف .. ويمضى هذا

الموفق بين الاختـــلافات المبلبلة فيقول فى جـــلاء : ان الاستحسان قد تغير على الزمن حاله ، فاختلفت العبارات فى تفسيره حينا ، ثم استقرت الآراء على شىء فيه أخيرا ، فاختلف فى الحالتين وبالزمنين ، الرأى فيه والقول به .. كما قرر الموفـّق أن مبنى الطعن من الجانبين ، على الجرأة وقلة المبالاة ..

وهذه الأقوال اذا كانت تفسر تلك الاختـلافات فى الاستحسان ، وما ينسب من قول فيه متخالف لمالك ، فانها أقرب من ذلك تلفتنا الى تجربة حياة سبق اللفت العابر اليها. ويحسن تركيز اللفت اليها هنا ؛ وتلك هى : رعاية أثر التدرج والتطور فى حياة كل مادة ندرسها ، وعدم أخذها من مرجع واحد ، فى زمن بعينه ، دون نظر الى ما قبل ذلك الزمن وما بعده ، لأن المعانى والاصطلاحات والآراء ، تتغير على الزمن ، وتختلف مع التدرج . وتتـأثر — لا محالة — بالتطور .. تلك سنن ونواميس كونية لا ينكر أبدا فعلها ، ولا يجحد صاحب منهج تأثيرها .. وهــذا مثل واضح من اختلاف الرأى فى الاستحسان ، واختلاف نقل القول به ، لو وقف الدارس عند بعضه فى زمن واحد لقــرر عن « مالك » شيئا من الرأى يقف منه على طرف النقيض ، من

يرجع الى مصدر آخر فى زمن آخر ، بل فى هذه التجربة لفت قوى حاد الى أن الطريقة التاريخية يجب أن تكون مستوعبة مستقصية قدر الطاقة البشرية ، فهنا مثلا فى حديثنا عن الاستحسان قد وجدنا تدافع تقول المالكية ، ولكن الذى بين منشأ الخلاف ودفع البلبلة هو مؤلف شافعى فى تعليقه على كتاب حنفى ، وهذه كما نرى تجربة تشهد بضرورة الاستقصاء وعدم التجدد المذهبى وما فيه من ضمور عقلى ..

ثم ندع الاستحسان الى أخرى حولها كلام كثير أيضا ، تلك هى :

المصالح المرسلة : والمصالح هى مصالح البشر التى يقصد الشرع الى تحقيقها ، فما يستحسن منها هو ما استحسنه الشرع ، وما استقبحه الشرع فهو القبيح .. وبطرائقهم الأصولية المقررة فى هذه الدراسة يقسمون هذه المصالح باعتبار الشرع لها الى ثلاثة أقسام :

١ — مصالح عرف اعتبار الشرع لها .

٢ — مصالح عرف اهدار الشرع لها والغاؤها .

٣ — مصالح لم يشهد الشرع لها باعتبار ولا الغاء ، بل تركها دون شهادة لها بشىء .. ولهذا سميت المصالح

المرسلة ؛ وهى أمور يبدو للعقل أنها مصالح للعباد ، والقوم لا يعترفون بمصلحيتهـــا الا اذا عرفوا — بطـــرائقهم ومسالكهم الأصولية — استحسان الشرع لها واعتبارها ، فيلتمسون هذا الاعتبار من الشرع ولا يجدون شهادة منه لها ، كما لا يجدون شهادة منه عليها .

وهذا البيان للمصالح واعتبارها والغائها ، والنظـــر فى طرائق الاعتبـــار والالغـــاء انما هو عمـــل عقلى دقيق ، لا يظهر الا فى بيئـــة لها مستوى عقلى متقـــدم . ولذلك نستطيع القول بأن النظر فى هذه المصالح لا يكون الا فى مستويات فكرية ، بدا فيها التطلع والنضج ، وليس من السهل التسليم بأنها تكون موضع بحث فى فترة ينشأ فيها الدرس الفقهى ، أو يبدأ تدرجه ، وعلى أساس من هذه الملاحظة نصيخ الى ما يقال عن اعتبار الفقهاء لها ، ونحن مقدرون هذا الاعتبار الاجتماعى الصحيح ..

والذى فى كتب الأصول المتأخرة عن عصر « مالك » بضعة قرون يتلخص فى : أن الفقهاء من الشافعية والحنفية وغيرهم قد اتفقوا على امتناع التمسك بهذه المصـــالح المرسلة ، الا ما نقل عن « مالك » : انه يقول بها ، مع انكار أصحابه لذلك عنه ، ويتبعون ذلك بمثل قولهم : لعل النقل

ان صح عن « مالك » فالأشبه انه لم يقل بذلك فى كل مصلحة ، بل فيما كان من المصالح الضرورية الكلية ، الحاصلة قطعا ، لا فيما كان من المصالح غير ضرورى ، ولا كلى ، ولا وقوعه قطعى .

هكذا قد ينقل هذا القول عن « مالك » واعتباره المصالح المرسلة ، لكن قد ينقل القول على غير هذا الوجه ، فيقال مثلا : ان هذه المصالح المرسلة لا دليل عليها فوجب ردها كالاستحسان ..

وتتيجة هذا الذى سمعنا هى ضعف النقل عن مالك أولا ، وأن أصحابه ينكرون ذلك النقل عنه .. وثانيا رد القول بها نهائيا .. وكأن مالكا لا يقوى النقل عنه فى تقرير المصالح المرسلة .

ولكنك اذا جاوزت هذين النصين تجد من يلخص الآراء فى اعتبار تلك المصالح على أربعة أقوال . منها الرد لهذه المصالح ، ويقابله الاعتماد لهذه المصالح عند « مالك » وبناؤه الأحكام عليها ، وتتدافع الأقوال وتتناقض ، على ما ترى ، فالى أى ذلك يمكن الاطمئنان ؟ وهنا تلوح للحائر معالم تفكير يرفعها المنهج التطورى ، الذى يقدر طاقة البيئة ، وطبيعة الحياة ، ويعرف

عن بيئته « مالك » وعصره ما يعرف ، بل يعرف عن شخصيته العقلية ، ومنهج تفكيره ما يعرف ، من عقلية لم تمعن فى النظر المنطقى ؛ مع ميل الى الاتباع الذى أجاز الوصف بالتقليد على ما رأينا قريبا ، وتقود هذه المعالم التفكيرية قطعا الى شىء من التريث والتأتى قبل التسليم بأن « مالكا » قال بالمصالح المرسلة هذا القول المتوسع ، حتى يكاد يكون خلعا للربقة ، من رجل لا تمهد عوالمه النفسية ، ولا العقلية ، ولا الخلقية لهذا الانطلاق المتوسع .. ولعل فيما قدمنا تفسيرا للأسباب العقلية والاجتماعية التى جعلت الأقوال فى الاستحسان تتقابل وتتعارض لاختلاف الزمان والمكان ..

وبما اتجه القصد اليه من عرض تجارب الحياة ، وبما تقدم من منهج فى عرض تناول « مالك » الفقهى للأحكام ، والأعمال ، والأدلة ، وبسط ذلك فى ضوء سنن التطور يحسن أن نعرض هنا نتائج مما تقرر فى هذا التناول تصحح مناهج الدراسة بعامة ، والدراسة الاسلامية بخاصة، والفقهية بوجه أخص ، وفيما يلى بيان ما أقصد اللفت اليه من :

نتائج — ١ : ليس من الدقة أن تؤخذ فكرة عن مذهب

أو مدرسة من مجموع أعمال رجال المدرسة أو المذهب على تتابع الزمن ، على اعتبار انهم وحدة فكرية واحدة ، لا تتميز ولا تفترق . ومن الخطأ الناجم عن اهدار فعل الزمن ، ونتيجة التطور ، واختلاف البيئات أن يقال مثلا :

(أ) ان فقه « مالك » أو فقه أى امام آخر — أو مبادىء مدرسة — يؤخذ من عمل تلاميذه .. وتقرير أن الذين بعد «مالك» أو غيره ، قد اتحدت أصول استنباطهم وأصول استنباطه ، وأنهم اذا تقيدوا بالأصول والمناهج التى تلقوها عن شيخهم فقد صار فقههم هو فقهه .

ومن الخطأ كذلك أن يقال :

(ب) ان كل قول فى المذهب هو قول الامام نفسه ؛ وان هناك مجتهدا مقيدا بأصول مذهب فهو فيه ظل وصدى لا أكثر .. وكلهم يكونون وحدة واحدة تصور فقه الامام والمؤسس .

فتلك المقررات كلها وان رددها قدماء ومحدثون أيضا ترفضها طبيعة الحياة ، وسنن التطور .. وفى الفقه المالكى مثلا ، بعد الذى عرض من أمره ، نرى أن أصوله كانت بالحجاز ، عصر « مالك » ، فى دور جنينى ، تلاه دور نشأة ساذجة ، تلتها أدوار أخرى من النمو والتكامل ، تعاونت

فيها عقول مختلفة ، وشاركت فى امدادها بيئات متغايرة ، واذا كان هذا مما تخفى فوارقه الدقيقة علــى الدارس المتعجل ، غير ذى المنهج المحرر فليس معنى هـــذا أن سنن الكون قد تخلفت ، وأن فروق الزمان والمكان والشخصية قد تماحت ، وانقلبت فيها طبائع الأشياء ، فذلك ما لا يكون فى فقه ولا شىء غيره .

٢ — ليس من اليسير التسليم بأن « مالكا » قد سبق زمنه ، وأخذ الأحكام من الأدلة أخذا موفيا بحق التفكير الأصولى ، فى صورته المتأخرة ، بعدما عمل الوقت عمله فى انضاجها .. ومن ذلك أيضا .

٣ — ليس من اليسير تقرير أصول كتلك الأصـــول الاصطلاحية الأخيرة تستخرج من فتاوى «مالك» ومسائله ، وفروعه ، لأنه فى تفكيره وفتواه انما يمثل مرحلة فكرتها فى الأصول مبهمة مجملة ، وليس من الصواب أن نعد لمح بعض المعارف العامة المجمــلة والتجريبات الأولى ، معرفة حقيقية للعلم الذى ينظم منطق هذه المعارف و « يعلم » — اذا صح هذا التعبير — تلك المقررات ويجعلها نظريات وأبحاثا ، بعد أن كانت ظواهر فقط وأعمالا ، والفرق بين المجربات الممارسة ، والفكرة العلميـــة ، فرق واضح يجب

ألا نختلف عليه ، كما هو الحال الآن ، فى كثير من الميادين الأدبية والفنية ، واذا صحت هذه الأصول الكلية — وهى صحيحة — فلا محل لكثير مما تشيعه المنقبيات من فضائل مدعاة ومزايا مزعومة ، تثبت أشياء قبل وقوعها بأجيال ، وتلبس الماضى ثياب المستقبل ، قبل أن يجىء بسنين وسنين .. وفيما جرب من الطريقة التاريخية بيان أى بيان لهذه النتائج .

مالك .. المصنّف

١ ـ كتاب في النجوم
٢ ـ كتاب في التفسير
٣ ـ كتب أخرى
٤ ـ الموطّأ

الفصل الثالث عشر

مالك .. المصنف

والتصنيف التنسيق ، وهو أليق ما يعبر به عن عصر كان عصر التدوين ، وعن علم كانت عمدته الرواية والتلقى ؛ فعمل « مالك » فيه التلقى والالقاء مشافهة ، أو التلقى والالقاء كتابة ، يكتب ما يسمعه ، وعن كتابه يأخذ الطلاب قراءة أو اجازة .. فالتدوين هو العمل الذى يقرب به العالم علمه ، بل يحفظه من التغيير والضياع أيضا ؛ والكلام فى الاعتماد على الكتابة لهذا العهد أو اتهامها ، وعدم الاعتماد عليها ، مما طال القول فيه ، فى غير هذا المجال ؛ وكان تطور الحياة يتجه نحو الاعتماد عليها بعدما تغيرت ظروف البداوة التى كانت تشجع الحفظ وتقويه .

واذا ما سمينا « مالكا » المصنف لأن طابع العصر كان يجعل تأليف العلماء — ولا سيما أصحاب العلم الدينى — جمعا وتدوينا ، فاننا لا ننسى أن نشير الى أشياء فى علم مالك تنسب اليه ، ويجرى الحديث عنها فى عهد تعلمه ، وفى

عهد تأليفه ، وهى أشياء من غير هذا العلم النقلى .

ومن هذه الأشياء — ولعله أغربها — علم النجوم ، فانا وان كنا لم نسمع كيف ، ومتى ، وأين تعلم هذه العلوم ، فانا نسمع أنه ألف كتابا فى : « النجوم وحساب دوران الزمان ، ومنازل القمر » ونسمع فى وصفه أنه جيد مفيد جدا ، قد اعتمد عليه الناس فى هذا الباب ، وجعلوه أصلا ، ويذكر هنا أن فلانا من الفقهاء والمؤلفين فى هذه النجوم اعتمد عليه .. وتساق أسانيد روايته ، على أنها سند صحيح رواته كلهم ثقات .. والواقع أنه ليس من السهل دفع نسبة هذا الكتاب الى « مالك » أو اثبات نسبته ، ونحن لا نعرف عنه شيئا ، ولا عرف أنه وصلنا منه شىء ، ولكن ظروفا حول الموضوع ترجح التوقف عن انكار نسبته ، فان للشافعى نظرا فى النجوم ، على ماروا ، وهذا الفن كان فى عهد مالك موضع اهتمام حتى شاع أن العلوم ثلاثة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والنجوم للأزمان ، وقد ترجم أول كتاب فى النجوم فى ابان حياة مالك أى سنة ١٢٥هـ ونسخته محفوظة فى ميلانو بايطاليا .. وكانت الدولة فى هذا الوقت وما تلاه ، شديدة العناية بعلم النجوم ، وتستقدم علماءه من الشرق والغرب .. ولهذا وما اليه تتوقف فى انكار

أن تكون « لمالك » ثقافة رياضية فلكية ، وأن يكون له تأليف فى شيء من ذلك ؛ وننتظر أن نعرف شيئا عن هذه الثقافة الرياضية له ، وهذا التأليف منه فيها ، فان ذلك جدير بأن يغير الكثير من جوانب الصورة التى رسمت لشخصيته العقلية ، وطريقته فى التناول الفقهى .. على ما سبقت الاشارة اليه فى مناسبات متعددة .. ولو صح وجود شيء من ذلك « لمالك » لتغير كل ما فى هذا الفصل عن تصنيفه ، وتعلمه !!

* * *

وتنقل الأخبار أن له من الآثار ما هو من العلم الدينى ومتصل بالفقه والحديث ، لكن لا تعرف لمالك فيه شهرة ، وذلك هو « التفسير لغريب القرآن » ، ويسوقون سند روايته فينتهى الى راو ضعيف يهز الثقة بالكتاب حتى لو وصلنا منه نسخة ، لكن السيوطى فى القرن العاشر الهجرى يقول : انه رأى لمالك تفسيرا لطيفا مسندا ، فيحتمل أن يكون من تأليفه ، وأن يكون علق عنه ..

ومما هو من العلم الدينى ذى الصلة بالفقة والحديث علم الكلام .

ويكفى أن نعرض فى الحديث عن تصانيف « مالك » لنشاط مالك فى علم الكلام ، الذى يمكن القول بأن تسميته

تلك قد ظهرت فى عهد « مالك » أيام كهولته أو نحوها ؛ والصلة بين المذهب الفقهى ، والمذهب الكلامى ، ظاهرة يمهد لهـا القـدماء أنفسهم .. وقـد أشرت اليهـا سـابقا تقديرا لما فى المقالة الكلامية من تعرض للمسئولية ، وخلق الأفعال مثلا ، مع تعرض الفقه للحقوق والواجبات كلها ، ومن ذلك ما يمضى فيه المعتقد الى تحديد هذه الحقوق والواجبات للأفراد والحاكمين ، كالذى رأيناه من الارجاء ، والقدر ، وما لهما من دخل فى أفعال الناس ، وثوابهم عليها ، ومؤاخذتهم بها .

وفى ميدان التصنيف قد ذكروا أن « لمالك » نشاطا فى علم الكلام وقد ألف فيه : « رسالة الى ابن وهب — أحد أصحابه — فى القدر والرد على القدرية » . وقد تتهم عند العصريين نسبتها اليه ، كما اتهم الكثير ، مما لم يصلنا من كتبه .. أما القدماء فيذكرون سند روايتها عنه ، ويصفونها بأنها « من خيار الكتب الدالة على سعة علمه بهذا الفن » ولا يزيدون على هذا الوصف العام شيئا فى وصف مقدارها أو تجزئتها .. الخ . ولا قيمة لهذا ما دامت تلك الرسالة « مجهولة » مفقودة .. ونشاط « مالك » الكلامى جملة موضع نظر ، لأنه مهما يتصل بالعلم الدينى ، الذى قوامه

الفقه ، يحتاج الى المناظرة ، والجدل ، وما أشبه ، مما هو بعض سبب تسميته « بعلم الكلام » وذلك كله مما لا يسيغه مزاج « مالك » ولا شخصيته العقلية ، ولا سلوكه العلمى أو العملى ؛ بل ان الطابع الكلامى الذى يعزى الى « مالك » يبعده عن هذا الجدل ، فانه فيما ثار فى مسألة التنزيه الهامة ، التى يعدها المعتزلة أول أصولهم ، ويسمونها مبالغة مسألة التوحيد .. فى هذه المسألة مضى يمر الآيات المشتبهة كما جاءت ، وحين يسأل عن آية « الرحمـن على العـرش استوى » ، يقول : « الاستواء معقول ، وكيفيته مجهولة ، والسؤال عنه بدعة ، والايمان به واجب » ومثل هذا ليس كلام من يؤلف فى الرد الكلامى !! وهو فيما اطمأننا اليـه — لأسباب كثيرة — يرجح رفض البحث ولو كان هـذا البحث امعـانا فى التنزيه ، ويقول مع القـائلين ، عن الرد المجـادل : « هو رد بدعة ببدعة » وكل أولئك خليق بأن يجعل البحث منا عن هذه الرسالة فى الرد على القدرية مما لا ينبغى المضى فيه ..

***

وليس بالاطالة أن نشـير الى أن المرويات المتكثرة ، كالعادة ، تنسب الى « مالك » أشياء بعيدة عنه كبعد الرد

على القدرية ، ومن ذلك القول بأنه معتزلى ، مع أنه هــو الذى نقل عنه لعنُ « عمرو بن عبيــد » وهو الذى يعد المعتزلة أهل الأهواء ، بل أكثر من ذلك أن رده على القدرية ابطال مباشر لوصفه بالاعتزال ، لما قلنا من أن القدرية هى الصورة الأولى للاعتزال ، وأن الاعتزال تطور عنها ..

* * *

وفيما نرصد من تجارب الحياة نضم الى ما أشرنا اليه من اشفاق « مالك » من الحكم بالحرمة أو الحل ، مسلكا من واديه فى الاشفاق المتحرج ، هو أنه فى الاعتقاديات ، كدأبه فى العمليات ، ينقل عنه قوله : الاسلام واسع ، فاذا لم ترد الا الحق فالاسلام أوسع من ذلك ، ولا ينبغى أن تضيق . كما يسمع منه قوله : لا تكفر أحدا . ويذكر أن المرجئــــة أخطئــوا وقالوا قولا عظيمــا ، قالوا : ان أحرق الكعبة ، أو صنع كل شىء فهو مســلم ، فيقــال « لمالك » ما ترى فيهم ؟ .. فيقول : قال الله تعالى : « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين » الآية .. وانها لتجربة حياة تحتاج اليها حياتنا اليوم أشد الحاجة .

* * *

واذا جاوزنا تصنيفه فى العلم الدينى غير الفقه والحديث ، من التفسير والكلام ، على ما سمعته لم نجد ما يستحق الوقوف عنده من تصنيف للامام ، فان الأقدمين فى جيل بعد جيل ، يقررون أن « مالكا » بما هو مصنف لم يشتهر عنه غير الموطأ .. ولهذا نجاوز القول ، فى أشياء كثيرة تذكر فى المرويات عن « مالك » المصنف ، وتنسب اليه تصانيف وتصانيف ، ليس لنا هنا الا أن نتناولها بالعرض المجمل جدا ؛ ونقسمها فى ذلك الى طوائف :

فمنها ما طعن فى نسبته الى « مالك » أصلا ، كرسالته فى الآداب والمواعظ ، التي وجهها الى الرشيد ، فى قول ، أو الى « يحيى بن خالد البرمكى » فى قول آخر .

ومنها ما لم تشتهر نسبته اليه ، ولم نسمع من قول الرواة عنه ما يكفى لشىء من التعريف به ؛ مثل كتاب « المناسك » .

ومنها ما عزاه اليه تلاميذه من مرويات فقهية أو حديثية تلقوها وجمعوها هم فى مجموعات خاصة ، قد تدركها المبالغات فتكون كتبا منضدة ، مثل كتاب يسمونه « المجالسات » وآخر يسمونه « المسائل » وغير ذلك .. ويذكر أن مؤلفا فى أواخر القرن الثالث بدأ فى تأليف كتاب

اسمه « الاستيعاب لأقوال مالك ، قيل فى تجزئته ما قيل حتى وصل مائة جزء » .

ويلتحق بهذه المنسوبات اليه من جمع غيره ، ما ينسب اليه تصنيفه فى الفقه بنفسه ولم يصلنا ، ولا نعرف حجمه ولا أهميته ، مثل رسالة « الفتوى » ورسالة « الأقضية » .

ومن ذلك أيضا ما ينسب اليه ويشتبه انه فى الفقه ولم يصلنا كذلك ، مثل ما يسمى كتاب « السير » ويكفى هنا أن نشير تلك الاشارات الى مالم نر ، ولم نعرف من تصانيف الامام وما ينسب اليه ، لنتحدث عن « مالك » المصنف فى الأفق المعروف المشتهر ، بالتلقى عنه مشافهة أو كتابة ، وقد واظب على اسماعه روايته .

الموطأ : وهو ما اقترح تأليفه من الخليفة العباسى والمرجح أنه المنصور ، ولا يسهل تعيين السنة التى وصف فيها المنصور لمالك مواصفات كتاب فى العلم بمعناه فى ذلك العصر ، وقد يرجح أنه تم بعد موت المنصور كما يمكن الاطمئنان الى أن جمع هذا الموطأ استغرق سنين لا يسهل تحديد عددها .

ولوضع « الموطأ » صلة بالحياة العامة ، منشؤها قوة حاجة الحياة الى عمل أصحاب هذا العلم الدينى، الذى ينظم

أعمال الناس .. على أنا نذكر أن عند الخلفاء العباسيين فى عاصمتهم العلمية « بغداد » فقهاء علماء ، رءوس المذهب الحنفى ، ولهم علم وافر ، ونشاط حاضر ، فما لهؤلاء العباسيين يطلبون مؤلفا فقهيا من عالم بالمدينة بعيد عنهم ، وعلمه يختلف فى نظر الناس ، عن العلم العراقى ؟ .. سؤال يخطر على البال ، فهل يجاب عنه بأن ما يكتبه « مالك » من المدينة يكون له من القبول عند الجماهير ما لا يكون لما يكتب من بغداد أو مثلها ..

والذى يبدو أن الناس كانوا قد ضجروا ، وضجر معهم الحكام ، بالاختلاف الشنيع فى الأحكام والفتاوى ، فيستحل من الأموال والأعراض فى مكان ، ما يحرم مثله فى مكان آخر ليس من الأول ببعيد ، فأراد الخليفة فيما اقترح على « مالك » أن يضع كتابا ، يقصد فيه أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة ، ويجعل العلم واحدا . وتساق روايات عما وصف الخليفة من رغبته فى توجيه هذا الكتاب الى الأقطار جميعا ، يجمعها عليه كافة ، ويعلق هذا الكتاب اعتزازا به ، ويكتب بكذا وكيت .. الخ ..

وهكذا تم هذا الكتاب الذى سماه صاحبه « الموطأ » أى الميسر المسهل ، وقد جمع صاحبه — كما قال — حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقوال الصحابة ، وأقوال التابعين ، ورأيا هو اجماع أهل المدينة ، لم يخرج عنها .فجمع الحديث — بأوسع معانيه — وما يتصل به ، من آثار الصدر الأول ، لأنها كانت المرجع الأكبر ، فى الأحكام العملية ؛ فهو تدوين فى الحديث ، وان يكن فى غرضه ومادته يعد مادة فقهية ، فالى ذلك العهد وبعد « **مالك** » بقليل أيضا ، كان الفقيه قد يغلب عليه الافتاء ، وقد تغلب عليه الرواية ؛ ومع الزمن تحرر كل واحد لعمل منهما ، فكان الفقيه غير المحدث ووضح الفصل بينهما ، فسمى «الفقه» وسمى «الحديث» ؛ فهو التدرج الزمنى ، الذى وزع العلم الدينى الى فروع مختلفة ، من حديث رواية ، وحديث دراية ، وعلوم للحديث من كذا وكذا ، كما قسم الفقه فيما بعد عدة أقسام ؛ ففى عهد هذا التأليف للموطأ لم يكن الحديث ولا الفقه واضح المعالم متميز القسمات ..

وفى الكتاب مجموعة من ذلك أميزها الزمن .. فالموطأ يصور مرحلة من مراحل تطور الصلة بين الفقه والحديث .. تلك الصلة التى بقى فيها الحديث على الزمن أصـــلا من الأصول الأساسية للأحكام الفقهية ..

* * *

وفى تقدير الموطأ يصل الأمر الى أنه ما ظهر على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك ؛ وتعزى هذه الكلمة الى « الشافعى » ولكنا نتحكم فى ذلك الى قواعد نقدهم ، ونقوم كل شىء فى الموطأ بها ، وندع هذه الأحكام التى يسودها غير قليل ، من نظرة الرضا .

واذا كان من مظاهر تقويم الكتاب العناية به درسا ، وشرحا ، واختصارا ، وما الى ذلك فان للموطأ حظا من ذلك كبيرا ، واذا لم تقل مع الذين يقولون انه : لم يُعتن بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ ، على هذا التخصيص ، فانا لا ننكر أن مدى العناية بالموطأ كبير .

واذا كان لنا أن نتحدث عن شىء من هذه العناية ، فلنخص بالحديث عناية مصر والمصريين بالموطأ ، فسنجد من الذين رووا الموطأ عن « مالك » نفسه عشرة رواة تلقوه عنه رأسا .. واذا كانت نسخ الموطأ التى تعددت بها الرواية عنه تبلغ أربع عشرة نسخة فمنها أربع مصرية هى :

١ — الموطأ برواية ابن وهب أبى محمد عبد الله الفهرى المصرى ت ١٩٩ هـ — وتوجد الآن نسخته بالاستانة .

٢ — الموطأ برواية ابن القاسم ، أبى عبيد الله عبد الرحمن المصرى — ت ١٩١ هـ .

٣ — الموطأ برواية عبد الله بن يوسف التنيسى الدمشقى — ت ٢٢٨ هـ .

٤ — الموطأ برواية ابن بكير المصرى أبى زكريا يحيى ابن يحيى المصري ت ٢٣١ هـ .

وللمصريين مشاركة فى شرحه قديما وحديثا ، مما لا نطيل بذكره ؛ ولكن من الخدمة لموطأ مالك كتابا يعد من أنفس كتب الفقه المقارن ، وهو كتاب :

« الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما نظمه الموطأ من معانى الرأى والآثار » لابن عبد البر أبى عمر يوسف الأندلسى ، الذى خدم الموطأ خدمات من أجل ما يخدم به كتاب ، وكان هذا الكتاب نوعا من الخدمة الواسعة الأفق ، يعرض فيه القطعة من « الموطأ » ثم يحدث عما عند أصحاب الحديث ومذاهب الفقه فيها ، وهو ما نعته بأنه من الفقه المقارن ، وفى دار الكتب منه نسخة فى مجلدين كبيرين ، الا أن الجزء الأول منهما يكاد يكون نحو نصفه قد تآكلت صفحاته ، حتى ما يخرج القارىء منها بشىء ؛ ولوجدّت وزارة الثقافة أو مؤسستها فى محاولة العثور على نسخة من هذا الجزء على الأقل ، لكان نشر هذا الكتاب من خير أعمال النشر النافعة .

. وبعد .. فلم أثقل على القارىء بتفصيلات عن مصنفات « مالك » تاركا ذلك لمكانه من الدرس الخاص ، وتخيرت من ذلك بعض صلاتها بمصر ، وأضع ختاما لذلك رسالة « مالك » الى الليث بن سعد المصرى ، ونصها :

« من مالك بن أنس الى الليث بن سعد ، سلام عليكم ، فانى أحمد اليك الله ، الذى لا اله الا هو، أما بعد : عصمنا الله واياك بطاعته فى السر والعلانية ، وعافانا واياكم من كل مكروه ؛ واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس ، بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا ، الذى نحن فيه ، وأنت فى أمانتك ، وفضلك ، ومنزلتك ، من أهل بلدك ، وحاجة من قبلهم اليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك ، حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه ، فان الله تعالى يقول فى كتابه العزيز : والسابقون .. الآية ؛ وقال تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .. » الآية ؛ فان الناس تبع لأهل المدينة ، اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وأحل الحلال ، وحرم الحرام ، اذ رسول الله بين أظهرهم ، يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعونه ويسن لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله ، واختار له ما عنده ،

صلوات الله عليه ورحمته وبركاته .. ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ، من ولى الأمر من بعده ؛ ثم أخـذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك ، فى اجتهادهم ، وحداثة عهدهم ؛ وان خالفهم مخالف ، أو قال أمرا غيره أقوى منه وأولى ، ترك قوله وعمل بغيره .

« ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل . ويتبعون تلك السنن ، فاذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا ومعمولا به ، لم أر لأحد خلافا للذى فى أيديهم ، من تلك الوراثة ، التى لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها .

« ولو ذهب أهل الأمصار يقولون : هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذى مضى عليه من مضى منا ، لم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذى جاز لهم ؛ فانظر رحمك الله فيما كتبت اليك فيه لنفسك ؛ واعلم أنى أرجو ألا يكون دعائى الى ما كتبت به اليك الا النصيحة لله تعالى وحده ، والنظر لك ، والظن بك ؛ وأنزل كتابى منك منزله ، فانك ان فعلت تعلم أنى لم آلك نصحا ، وفقنا الله واياك لطاعته وطاعة رسوله ، فى كل أمر ، وعلى كل حال ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وكتب يوم الأحد تسع مضين من صفر . »

فى هذه الرسالة صورة من نقاشه فى المسألة التى امتاز بها فقهه ، وهى أثر من قلمه وأدبه ، ثم من صلته بمصر فى شخص فقيهها « الليث بن سعد » ، الذى عرف له الفضل والعلم ، نختم بهذه الرسالة ما عرضنا من تجارب « مالك » للحياة ، لنقول الكلمة المستفادة الموجهة عنه .

تجربة نجاح

أهو الحظ !!

ـ كان مالك وقورًا

ـ كان مالك ابن بيئته

ـ كان مالك قوى الشعور بالمجتمع

ـ كان مالك مسالمًا

ـ كان مالك سمحًا

ـ كان مالك رقيق الحس

الفصل الرابع عشر

تجربة نجاح

ولقد كنت وشيكا أن أطيل فى القول فأحدث عن تقدير «مالك» الفقيه قديما وحديثا ، لكنى آثرت أن أدع ذلك لمكانه من تناول المتخصصين ، وأن يكون هذا الفصل أنسب لما تعرض من أجله هذه التراجم الميسرة ، تعريفا بأعلام تاريخنا ، وتأسيا بهم ، واستفادة من تجارب حياتهم ؛ واذا كنت قد جعلت هذه الترجمة تجارب حياة مالك فمن أمثل ما أتحدث فيه الى الشباب بعد قراءتهم هذه الترجمة أن أسأل واياهم : « بم نجح مالك فى الحياة ؟ » .

لقد نجح «مالك» : فملايين المسلمين يدينون بالاسلام ويتعبدون بفهم مالك وتطبيقه فى أنحاء الأرض . فهو الغالب فى المغرب الأقصى ، والجزائر ، وتونس وطرابلس ، وصعيد مصر ، والسودان ، ويشارك فى فلسطين والعراق ، والحجاز والكويت ، والأحساء .

ونجح « مالك » فسار اسمه مثلا سائرا فى مثل قولنا :

لا يفتى ومالك بالمدينة ، وقولنا : قال فيه ما قال مالك فى الخمر .

ونجح مالك فى أن تعاد كتابة ترجمته بعد أكثر من اثنى عشر قرنا من وفاته .. وقد يعنى الشباب أن يسمعوا رأيا فى هذا النجاح ، وبم كان ؟

أهو الحظ ؟

وأقرب ما يقال ، فى الشرق قديما وحديثا هو ذلك الحظ ، وفى تاريخ « مالك » نفســه رواية فى تعليل نجاحه أو شهرته .

فقد سأله تلامذته عن «ربيعة» الذى يَروى عنه كثيرا ، وربيعة راقد فى الطاق ، فدلهم عليه ، ولما رأوه عجبوا من أن يكون هذا خمول ربيعة ، وهذه شهرة مالك تلميذه ، بما يَروى عنه ، فقال « ربيعة » تلك الكلمة التى لا نزال نرددها فى الشرق ونغطى بها الكثير ، ونخدع بها أنفسنا فى كثير ، قال لهم ما معناه : درهم حظ خير من قنطار علم ..

وما نقول لربيعة الرأى الا أن هذا ليس الرأى !!

ان الحظ يكون فى الخلق الأول — حتى الآن — حيث لا يُختار أب ولا أم ، فهذا مالك كان جسيما وسيما ، وكان يمكن أن يكون دميما حطيما .. هذا هو الحظ حين يكون ،

وما وراء ذلك شيء آخر يكون .. وليس حظا ، انه حين يستقيم الأمر ، ويصح المجتمع ليس الا جدا وعملا ، وسببا ونتيجة ، فى سير الحياة السوى ، فان أيفت الحياة وفسد المجتمع فشيء من الفوضى يكون ، لو قلت انه نهزة لقانص ، وفرصة لمفترص، له فى ذلك خبرة وله عليه طاقة ، وليس حظا يكون..وهذه العلة فى حياة الجمع مسلمة للموت لا محالة، ومحال أن تدوم .. واذا كانت الحكمة الاسلامية تقول : اذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة .. فأقرب ما تكون هذه الساعة ، حين تقوم قيامة هذه الجماعة المشفية ، فتنهار ، وتنهد ، وتتحطم وتتبدد ؛ «وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون . » وفى فترة المرض وأيام العلة لا يكون نجاح ، ولا بطولة ، بل تكون وثبات وقفزات كزبد الماء ، لا تبقى ولا تدوم ، فلا تحسبن ذلك شيئا من الحظ ، حتى فى أكثر ساعات الفوضى .

ان شيئا من الحظ يكون فيما لا تحكمه قدرة الانسان حتى اليوم ، من تقلبات وآفات ، تهلك الحصيد أو تغرق السفين ؛ لكن ذلك لا يزيد عن قدر مقدور ونسبة محسوبة ، يستطيع كل ذى عقل أن يحسب حسابها أو يتقى خطرها ، ولا يتعلل بها ..

تلك هى شبهات الحظ ، فى متسق الحياة ، وليس بينها الا ما تقدم من خلق أول ، يخرج الصحيح والعليل ،والوسيم والدميم ، والقوى والضعيف ، على أن شيئا من هـــذا — وقد يكون غير قليل — يستطيع الانسان منه فكاكا لو تهيأت له بيئته ، أو أمكنته النظم من رياضة وتقويم ، يتلافى النقص ، بل قد يرد الضعف قوة .. فقد كان أخطب اليونانى مضطرب النطق أولا ، فعالى بصوته الأمواج والأرياح حتى راض منطقه وصار مدرها مفوها ، بعد علة ..

ومن كل أولئك لا نعزو شيئا من النجاح البـاقى ، والظفر الخالد الى ما سمى حظا ، ولن نقول مع « ربيعة » درهم حظ خير من قنطار علم ، بل نقول له : درهم شخصية خير من قناطير غيرها .

ونمضى لنرى «مالكا» وقد تهيـأ له الكيان السليم ، يخوض الحياة مجدًا ، فيكون أول نجحه هو الجد المصمم فى الطلب ، يحرص على الأخذ ، ويتحين الفرص ، ويغلب الجو ، ويفترش الأعتاب .. ويتقدم فى ذلك ويجلس وهـــو شاب ، وقد خالف على « ربيعة » الذى لم يلبث أن أخمله .

* * *

لقد كان «مالك» وقورا ، قليل الكلام ، وكان « ربيعة »

— فيما رووا — ثرثارا ، سفهه بذلك أعرابى حين قال له « ربيعة » وقد أطال وأكثر : ما العى ؟ فقال له الاعرابى : ما أنت فيه اليوم .

وهذا الصمت فيما قال الحكماء والمجربون جانب من اتزان الشخصية ، وليت الشبان وهم فى الشباب يتكونون ، يستفيدون من قول الواعين : أن يشتروا ولا يبيعوا . اذن لأفادوا كثيرا فى بناء شخصيتهم ، وما أصدق التشبيه الذى يرسم به الخبراء الحقيقة فيقولون : ان الرجل الساكت كالبندقية الفارغة تخيف شخصين ، والشخص المتكلم كالبندقية المعمرة تخيف شخصا واحدا . يريدون أن الأولى تخيف حاملها ورائيها ، والثانية تخيف رائيها ولا تخيف حاملها .

* * *

كان مالك ابن بيئته الذى تمثل خصائصها ومقوماتها التى للمدينة النبوية ، فكان محافظا متزنا ، خرج من ميزات مدينته بأصل له فى التشريع هو قيمة اجماعها ووزن عملها ، فتجاوب معها ، واستجابت له ؛ وكان باتزانه ذلك بعيدا عن هزات الاضطراب فى عصره ، وكان فقهه المدنى أقرب الى قلوب أكثر فطرية وسلامة ، فانتشر فقهه فى المغرب

وما والاه ، لما يراه « ابن خلدون » من قرب هذه البيئة من طبائع البيئة العربيـة الحجازية .. وكانت الحـال السياسة معوانا له على ذلك ؛ فأكبر القوم فيها شأنه وأشاعوا علمه ؛ ومن يدرى لعل حرص العباسيين فى الشرق ، على أن يجمع لهم « مالك » علما يأخذون الناس به ويحملونهم عليه ، كان أثرا لحرصهم على ذلك العلم ألا يذهب منافسوهم فى المغرب وحدهم به .

ولو كان كل عامل ابن بيئته حقا ، لا يخرج عنها ، ولا يخالف عليها ، فيعرف حاجتها ، ويتبين ميزتها ، فيتكامل معها ، ويقدر أمرها تقديرا محكما ، لكان ذلك سببا للنجح ووسيلة للظفر ، قدمت حياة « مالك » مثلها وشاهدها ، فيما رأينا من تفاعله مع بيئته .

* * *

كان مالك يشعر بالوحدة الاجتماعية شعورا واضحا ، ويأخذ نفسه باصلاحها

ويعلم من لا يعرف منهما ما ينبغى ان يعرفه . وربما كان لشعوره بهذه الوحدة يغشى مجالس الحـكام ، وصحته لا تسعفه ، لأنه يخشى أن يتكلم من لا يصلح ، ويسأل من لا يحسن أن يقول .

وهذا الشعور بالوحدة الاجتماعية ، وواجب الفرد فيها نحو جماعته ، أساس صالح لاختيار ما يحسن المرء أن يقوم به فى اصلاح تحسن به حال من حوله ، فتحسن حاله معهم . ويعرفون له هذه المشاعر المحمودة .. وشر ما يصاب به المرء ذو المواهب ، فردية" لا تذكر غير نفسها ، ولا تعمل الا لذاتها ، فيصدق فيها ما تقوله التجربة الخبيرة : من أحب نفسه كرهه الناس ..

* * *

كان « مالك » يرهب البحر ، ويكره السيف ، ويخاف الجواد العنيد العربى ، وتلك مسالمة فيه قد يكون لغيرها مكان فى حياة الناس ، وقد تصلح الحياة أحيانا بهذا العنف ؛ ولكن كل ميسّر لما خُلق له : و «مالك» كان يجد الشجاعة الأدبية ، التى يرفض بها كتمان الحق ، ويجهر معها بالنقد ، ومثل هذا الرفض والنقد من رجل مسالم فى جملة أمره قد يكون أوقع من اباء العنيف ، ونقد الجرىء ، لأن المنقود قد يعتذر لنفسه بأن هذا الناقد له حدة مشهودة ، وعنف قد يكون مسرفا ؛ وفى كل حال فان الحياة يعوزها هذا وذاك ، أو قل يصلحها هذا الجرىء الصريح ، كما قد يصلحها هذا المهادن المسالم حينا ؛ و « مالك » بمسالمته فى وقار ،

وحرمته فى ملاينة ، قد رجا الناس عنده أن يكون لسان صدق لهم ، فى الحاكمين حين يعوزهم أن يقولوا لهم شيئا .. ولست أحب أن أقول : ان ما عرفه القدماء فى « مالك » من أنه أشد الناس مداراة للناس قد كان هو المثل المنشود فى كل عالم ورجل ذى صفة عامة ، ولكن أقول ان ذلك لم يكن من « مالك » ضعفا دائما ، ولا مسايرة متخاذلة .. ولعله قد أجدى على الحكام الفرديين فى هذا العهد شيئا من استجابة لما يصدم جبروتهم الشخصى .

وأقول هذا فى تجربة نجاح « مالك » ليعرف أبناء العصر أن من لم تواته منهم طاقة المنازلة فلن تفوته حكمة المطاولة ، على أن يتكئوا من أنفسهم ، على شجاعة أدبية ، وقوة نفسية .. فيكونوا فى الحياة شيئا ذا أثر مع هدوئهم . وقلة عنفهم .

* * *

كان «مالك» صاحب سماحة نفسية ، ان كرهت المماراة والجدل ، الذى هو قوة قد تحتاجها الحياة ، حينا ، ولا تستطيع عنها استغناء ، فانه بسماحته كان يتألف النفوس بما يبدو منه كثيرا من تهيب الجهر بالحكم الغليظ بحرمة وشبهها ، ومن حرص على ألا يكفّر أحدا وأن

يحتفظ له كما سمعنا بالتوب والأوب ، ليظل بين اخوانه
وواحدا منهم ، لا يلبث أن يفيء الى وحدتهم ، وينصح
لجماعتهم ، وقربه من ذلك أقرب مما لو نوبذ وقوطع وأبعد.

وهذا من « مالك » تجربة يحتاجها بنو العصر ، حين
تتشعب بهم الطرق السياسية ، والمرامى الوطنية فاذا هم
يدمغون بالخيانة ، ويقذفون بالاجرام ، يحسبون مخالفهم
حربا عليهم ، وعونا لعدوهم أو عينا أو عميلا ؛ ولو كان
لهم مثل ما كان لمالك صاحب المزاج الحاد والغضبة السريعة،
من سماحة ودماثة تنهيب الصدع بالقسوة ، وتنكر الرمى
بالضلالة ، لكانوا أقوى وحدة ، وأقرب تعاونا مما هم
اليوم من تناكر ، وتنابز ، وحكم بخيانة ..

وتلك السماحة فى «مالك» كانت —فيما يطمأن اليه—
سببا من أسباب نجاحه وتقدير قومه له ، حتى الذين ملكوا
القوة والسلطان ، وعدوا على حرمته بالايذاء ، فقالوا انه
أحلهم مما فعلوا وأحرجهم بذلك احراجا .

* * *

كان مالك رقيق الحس ، شفاف الوجدان ، خفاق
اللقب ، لما عرفنا من أمر بيئته وأمره فيها ، ومثل ذلك يقرب
النفوس ، ويدنى الأرواح ، ويحبب القلوب ، فتطمئن لحكم

صاحب هذه الشخصية ، حتى حين يقسو عليها ، لأنها توقن أن وراء هذه القسوة انسانا حساسا لا يأتى ذلك الا لحكمة وخير .. وأحسب أن هذه الجوانب المتكاملة فى شخصية «مالك» كانت تعين على امرار مواقف قسوته ، التى حكوها بعض الأحيان ، فتمضى بسلام ، وتنتهى بهدوء .

وتلك النفحة الفنية حين يرف رفيفها من أصحاب الشأن فى الحياة ، وبين المتعاشرين ، توفر الثقة بالقصد الحسن ، والرغبة الخيرة ، فيخف بها وقع ما قسا حينا ، أو خشن مرة . وتلك فى الحياة الفردية الخاصة ، بين أفراد الأسرة ، وفى الحياة الاجتماعية بين أبناء الوطن ، مؤكدة الأثر فى تثبيت اليقين بحسن النية وسلامة الطوية ، التى تنسى معها الاساءة ، وتقرب الرجعة ، ويحتفظ بالصلة ، فيكون النجح العام والخاص .. وتلك آية الفن فى الحياة ، وايمان الحياة بالفن أحسبه كان سببا فى نجاح «مالك» وهو خليق بأن يكون سبب نجح للجماعات الصغرى والكبرى ..

* * *

تلك معان حيوية انسانية تقدر بها «مالكا» بما هو امام وقف من دنيا ماضينا موقف الممارس المجرب للحياة ؛ وفى حياته بما هو امام مفقه ينظم شئون الدنيا ، مجال لبحث أصحاب التخصص فى هذه الدراسات .

التجربة الأخيرة

أبا عبد الله .. امض راضيا مرضيا

أشفقت من الفتوى ، وكنت اذا سئلت فكأنما أشرف عليك الموت

وقد أمضيت عمرك تفتى .. ويشرف عليك الموت كلما سئلت

وفزعت من السياط .. ولكنْ ناشتك السياط على كبرة وضعف

وقد أحللتهم رغم ما أحلوا بك ، مما لم تبرأ منه .. حتى أغمضت عينيك

بشيبة صالحة .. وثقة صادقة .. شارفت بروحك عفو الله .. وخبرت عوّادك الذين سألوك : كيف تجدك ؟ انهم سيعاينون من عفو الله مالم يكن فى حساب .

غدوت الى الروضة ورحت : مصليا متبتلا .. ودارسا متعلما .. وراويا معلما ، واليوم تغدو الى الروضة مسجّى محمولا .. يصلّى عليك ، ويشهد الناس لك — وصاحب

الدعوة خير شاهد — أنك تأخذ منه ولا ترد عليه ..

وفى ثرى « المدينـــة » الذى أشفقت أن يطـــأه حافر تركبه .. لأن محمدا ثاو فيه ..

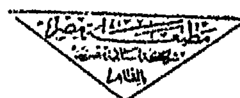
فى هذا الثرى اليوم مثواك .. وأكرم به جوارا ..

وفى روضة من رياض الجنـــة علّمت وتعلمت .. فالى روضة من رياض الجنة ثويت حتى يدعو الخلق داعيها .. فتلقى ربك وقد أوفيت

وسلام عليك يوم ولدت .. ويوم مت .. ويوم تبعث حيـــا .

ومات « مالك » سنة ١٧٩ هـ ودفن بالبقيع .

فهـــرس



الموزع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

الثمن ٥ قروش

مطبعة مصر